

الدكتور أحمد زياد مُحَيِّك

أيام عشناها

رواية

٢٠٢٦

حلب – سورية

العنوان: أيام عشناها
النوع الأدبي: رواية
المؤلف: الدكتور أحمد زياد محبك
العنوان: حلب .سورية
الهاتف الجوال والواتس: ٠٠٩٦٣٩٤٤٩٢٨٧٩٢
البريد الرقعي: mohabek@gmail.com
الإنجاز الأخير للرواية : ٢٠٢٣/١/١٢
الإصدار الرقعي الأول ٢٠٢٦

تصميم الغلاف
المهندسة ذكرى محبك

موافقة وزارة الإعلام على النشر
عن طريق اتحاد الكتاب العرب
سجل بتاريخ ٢٠٢٣/٥/٣
رقم الموافقة ١٩٣

الخروج من الفردوس

نظارة طبية وفروجة مشوية

حوالى الحادية عشرة والنصف، في يوم الخميس السابع عشر من شهر تشرين الثاني، عام ٢٠٢٢، تاريخ لا ينساه، يخرج من باب مديرية التربية، يلقي نظرة عابرة على الحارس الواقف عند الباب.

*

لن أرى وجهك العبوس بعد اليوم. لا أعرف لماذا تغَيَّر شعوري فجأة نحو المديرية، كنت أراها الجنة، فردوسي الأعلى، كم كنت أستمتع بهذا الزحام، وفوضى المراجعين، أحس أنها هي حركة الحياة، وما كنت أنتبه إلى هذا الباب الأسود الكبير، وعندما تمتلئ غرفتي بالشباب المراجعين يطلبون تكليفهم بساعات تدريس كنت أحس بالبهجة، أشعر أنني قادر على فعل شيء، لماذا تغيَّرت نظرتي إلى المديرية كلَّ هذا التغير؟

*

شمس أواخر تشرين دافئة، تطل بحياء من بين غمامات داكنة. المطر متوقع بين حين وآخر، وقد جرى قبل قليل سيوًلاً، وبدأت الشوارع والسيارات مغسولة متألفة، الجو ممتع، يثير في النفس الإحساس بالبهجة والانتشاء.

على الرصيف المقابل تلمحه زهرة، تلكز صديقتها نسرين:

- انظري، هذا هو الأستاذ وحيد، مكتئب، حزين، بعد خدمة ثلاثين سنة، كما سمعت، تقاعد، وما تجاوز الستين.
- لا، هو مرح، وفي عيونه بهجة وسرور.
- أنتِ دائماً متفائلة.
- أنا متفائلة دائماً، لا أنسى يوم زارني في جولة تفتيشية في القرية، حضر لي الدرس، في أول سنة من تعيينه في التوجيه، قبل أربع سنوات، وأثنى عليّ، ولما رأى الخاتم في يدي اليسرى، سألتني: أنت متزوجة؟ قلت له نعم: وعندي ولد، فوراً نصّحني بتقديم طلب الانتقال إلى المدينة، وفي الفصل الثاني أنزلني إلى حلب، وعيّنتني في مدرسة الطليعة، قرب بيتي في حي الخالدية.
- الموجّه الذي قبله نعني في القرية ثلاث سنوات، وكنت متزوجة، وزوجي موظف في حلب، صدّقَت، له فضل عليّ، أول تعيينه في التوجيه، نزلني فوراً إلى حلب، لكن، والله، كرهت المدرسة والتدريس.
- لذلك صارت أي مدرسة تسرع إلى الزواج فور قبولها، حتى لا تتعين في الريف.
- لا، هذا كلام، الريف مملوء بالمدرسات، من كل الاختصاصات.
- وهل ألغى القرار بنقل المدرسة من الريف إلى المدينة إذا كانت متزوجة؟
- لا، ما ألغى، لكن ما بقي في البلد أزواج، كل الشباب هاجروا.
- انظري رجع الأستاذ وحيد إلى مديرية التربية، كأنه نسي توديع مدير التربية.

- قلت لك، هو مضطرب وقلق.

*

يرجع إلى الديوان، ينهض رئيس الدائرة لاستقباله، يمدّ إليه يده بحقيبته البنية اللون، وقد زال عنها لونها عند مقبض اليد.
- أهلاً أستاذ وحيد، أنا عرفت، سترجع، نسيت حقيبتك، تفضل،
والله مكانتك في القلب محفوظة، ولو تقاعدت.
- شكراً، أخي أبو جميل، كان بوّدي تركها لك ذكرى، لكن هذه الحقيبة صاحبتني طوال ثلاثين سنة من عملي في التدريس.
- أعرف، هي غالية عليك، ولها مكانة عندك، والله لو نسيتها عند أي بائع في السوق، لعرفناها، وقلنا هذه حقيبة الأستاذ وحيد.
- ولا تظن من البخل شراء غيرها، لا والله، هذه صديقة العمر، لا أريد تبديلها.

يعلق أبو جميل:

- هذا وفاء منك، وكيف نسيتها والشيك فيها؟ شيك تعويضاتك؟
- هذا لا يمكن نسيانه، الشيك في محفظتي الصغيرة، في داخل الجيب الداخلي، الآن فوراً إلى البنك، أمضيت أربعة أشهر في متابعة إجراءات التقاعد، كان الدولار بثلاثة آلاف، صار بستة، ما عاد لهذا التعويض أي قيمة، والأسعار تضاعفت عشر مرات.
يوّدعه ويمضي.

يحس برغبة في التبول، يمضي إلى المراحيض الخاصة بالموظفين داخل المديرية.

*

من سوء حظي، بل من المخجل، أن يكون آخر مكان أغادره في هذه المديرية هو هذا المكان، يا للسخرية، ماذا أفعل؟ أنا مضطر.

*

في زحمة المراجعين في الممر بين الغرف المزدحمة يلمح المعتمد رائد، تلتقي عينا رائد بعينه، فيمر ولا يسلم، يلتفت إليه، يناديه:
- أستاذ رائد.

- أهلا، أستاذ وحيد.

- هكذا تمر بي ولا تسلم؟ إذا كنت أنا تقاعدت وانتهى عملي، فما عدت أستحق السلام؟!

- لا، يا أستاذ وحيد، أنت على الرأس، وفي العين، لكن ما انتهت إليك في هذا الزحام، أنت أعز إنسان عندي في هذه المديرية، صدّقني: غيابك هو غياب قطعة من كبدي، وأنا مشفق عليك، صدّقني: أتألم لكل أستاذ يتقاعد، أقول لنفسي كيف سيعيش المتقاعد؟ هل سيكفيه راتبه التقاعدي؟

- سوف تأتي ونقترض منك.

- لا، حاشاك، أعرف، أنت طول عمرك ما أخذت مني سلفة على الراتب، الله هو الرزاق.
يودعه ويمضي.

*

رائد من الشباب، الجيل الجديد، سعى إلى الوظيفة برأسه وقدميه، ولمّا توظف بدأ يتكبر على المعلمات والمعلمين، كأن رواتبهم من جيبه، آخر مرة غلط في الحساب مع شاب مكلف بتدريس ساعات، كل تعويضاته عن الفصل كانت حوالى سبعين ألف ليرة، راجع الشاب الحساب، تبين له نقص خمسة آلاف، ما أعادها إليه إلا بعد أسبوع من الجدل والمناقشة، ولم يعترف بخطئه، ولم يعتذر، هو خطأ متعمد.

*

يدخل رائد إلى الديوان، يسلم على رئيس الدائرة.

- هل مربك الأستاذ وحيد؟

- نعم.

- مسكين كان الله في عونك، منذ إحالته على التقاعد تغير لونه، كأنه كبير عشرين سنين، وجه أصفر، وخدود غائرة، الحزن واضح حتى في نبرة صوته.

- يا رائد، أنت شاب، ومثل ابني، الله يرضى عليك، الأستاذ وحيد قبل قليل كان عندي، والرجل ما تغير فيه أي شيء، لا وجهه ولا روحه ولا عقله، أنت تتوهم، وملف الرجل ما يزال عندي، سأعيده غدًا إلى الذاتية، أنقى ملف، أكثر من ثلاثين سنة ولا إجازة مرضية، ولا غياب، وأكثر من خمسة كتب شكر وتقدير، ولا تنس: الرجل عندما يقبض الراتب، كان يترك لك المبلغ الجيد، إكرامية لك، هذا كان أمامي، وأكثر من مرة، هل تنكر؟

- أنا لا أتكلّم عليه بالسوء، أنا قصدي الإشفاق عليه، أسأل نفسي كيف سيتدبر أموره بعد التقاعد؟
- الفرق بين راتبه التقاعدي وراتبه وهو على رأس عمله فرق بسيط، لا يستحق القلق والتفكير.
- يا أبو جميل، الحياة صعبة، والأسعار في ارتفاع، والراتب ما عاد له أي قيمة.
- آه، الآن اختلف الكلام، كلنا في "الهوا سوا"، متقاعد وغير متقاعد، الراتب لا يكفي يومين.

*

مرة أخرى، وهو يغادر المديرية، يلقي نظرة على الباب الحديدي الأسود الكبير، وعلى وجه الحارس، يكاد يلتفت، يشفق على الموظفين في الداخل، الذين هم وراء هذا الباب الأسود، وعلى المواطنين الذين هم على الرصيف أمام الباب الأسود، يحثون خطاهم للدخول، ولا سيما الشباب، من أجل تكليفهم بساعات تدريسية، تعويض الساعة الواحدة لا يكفي ثمن صندويشة فلافل.

*

وفي باب المديرية هناء، وهي خارجة، تلتقي بكل من زهرة ونسرين، فتلتقي الأنامل في مصافحة ناعمة.
- أنت سبقتنا إلى قبض الراتب.
- هل عنده زحام؟ وهل أبقى لنا أي شيء في الصندوق لنقبضه؟

- ورّع الرواتب قبل يومين، ما عنده أحد، أنا قبضت، لكن خرج من غرفته بعدي، لا أعرف إلى أين؟ لا يقعد في غرفته، من غرفة إلى غرفة. - متى سنتقدم ويصبح استلام الراتب بالبطاقة ومن صناديق موزعة في كل حلب، وما نضطر للمجيء إلى المديرية. - وهل يستحق الراتب الأعوج النزول في البطاقة، كله لا يكفي مصروف يومين.

- هذه قصة طويلة، لا تعيدها، ما من فائدة، نحن أصحاب الدخل المحدود.

- هل لمحت الأستاذ وحيد؟

- لا، الله يقصف عمره، تقاعد واسترحنا منه.

- لا، الرجل طيب ونقي.

- ثلاث سنين، من تعييني، حتى الآن، وأنا في الريف، كل يوم سفر، زهقت روحي، هل عليّ البقاء خمس سنين في الريف، حتى أنتقل إلى حلب، بالله عليك، يا نسرين، قولي لي، كيف نزلت أنت إلى المدينة؟ - نزلت لأنني متزوجة.

- اسعني لي بعريس، حتى أتزوج وأنزل، والله، راتي ما عاد يكفيني. - إذا كان راتبك أنت لا يكفيك، ماذا أقول أنا وزهرة؟ عندنا زوج وبيت وأولاد، وأنت ما عندك مصروف، عايشة في بيت والدك، وراتبك كله لك.

وتتكلم هناء بصوت أقرب إلى الهمس:

- هناك كلام، يقال عنه يقبض رشوة، لو سمعت هذا من قبل،
كان والدي دفع له كل ما يطلب.

- لا، يا هناء، لا تصدقي، أنا نزلت من غير رشوة، والله، ولا حتى
هدية، وهذه زهرة، مثلي، أمامك، اسألها.

- بالله عليك، يا زهرة، قولي، والآن بعد ما الأستاذ وحيد تقاعد،
كم دفع له زوجك حتى نزلك إلى المدينة؟

- لا يا هناء، أرجوك، لا تقولي مثل هذا الكلام، الأستاذ وحيد
طيب، ونقي، وشريف، والله ما قبل حتى زجاجة عطر هدية.
وتؤكد هناء:

- هناك إشاعات عن رشوات.

- لا تصدقي، وهذا الكلام غير مناسب، وخاصة بعدما تقاعد
الرجل.

- يا هناء، الأستاذ وحيد عالم ورسام خرائط، اسمه مشهور في
العالم كله.

وتؤكد هناء:

- الرشوة ماشية في كل مكان، الناس في مجتمعنا، وخاصة بعد
الحرب، تعودوا على مقولة "ارش تمش"، ما عادت الأمور مثل قبل أيام
زمان، الوساطة هي كل شيء، والفساد مائي العالم كله، رشوة وفساد
وقتل وحرب وغلاء، من الشرق إلى الغرب، ومن تحت إلى فوق.
وتضحك نسرین، وتقول:

- الأصح، قولي: من الغرب إلى الشرق، شمس الله تسطع من الشرق، هل نسيت كتاب زيغريد هونكه؟
وتؤكد نسرين:
- ومن تحت إلى فوق، هل هذا غلط.
- والله يا نسرين، أنت قوية، على كل حال اختلطت الأمور، وما عاد من الممكن تحديد الجهات، كلها دخل بعضها في بعض.
- تأخرنا، هيا، اسمحي لنا يا هناء، نلحق المحاسب، ونقبض الراتب، أنت قبضت واطمأنت نفسك.
- عندي اقتراح، أدعوكم إلى صحن حلاوة الجبن، في محل سلورة، هنا، قريب من المديرية.
وتنظر نسرين في وجه زهرة، ثم تتكلم نسرين:
- اسبقينا، سوف ندخل، ونقبض الراتب، لكن على شرط.
وتتكلم هناء:
- أنا سأدفع، أنا صاحبة الدعوة.
وترد نسرين:
- هذا أمر مفروغ منه، شرطنا ما نتكلم على الأستاذ وحيد.
- ولا على الشرق ولا على الغرب.
- روحنا زهقت من الجغرافيا.
*
على الرصيف يلتقيه.
- أهلاً أستاذ وحيد.

- أهلاً.
- لن نتذكرني، أنا مكلف بتدريس مادة الجغرافيا في حي الميدان، أنت كلفتني بثمانى ساعات تدريسية، الله يرزقك، ويعوض عليك، والله رفعت معنوياتي.
- أتذكرك، أنت علاء، تخرجت من ثلاث سنوات، وما عندك عمل.
- ما شاء الله ذاكرتك قوية.
- هذا عمل يا ابني، الله يوفقك.
- ولماذا تقاعدت، أستاذ؟
- بلغت الستين، هذا هو القانون.
- سنظل نذكرك بالخير.
- شكراً، هل تحتاج إلى مساعدة، إذا كنت بحاجة رجعت معك إلى المديرية؟ ولو بصراحة، ما عدت أحب الدخول في هذا الباب، ولا رؤيته.
- شكراً أستاذ، أشكرك، لا أريد أي مساعدة.
- يعبر الشارع إلى الطرف المقابل، متخليصاً من الزحام على الرصيف أمام باب المديرية.

*

- نسرین وزهرة تقبضان الراتب، وتخرجان من باب المديرية.
- تلقت نسرین إلى زهرة:
- ماذا سأفعل بهذا الراتب؟ انصحييني؟
- والله لا أعرف، أنا مثلك، كنت سأسألك نفس السؤال.

- أنا والدي متقاعد، ويأخذ ربع راتي، ولا يبقى لي غير أجور المواصلات، وثمان جوارب، ونسينا الأحذية.
- أنا لا يكفي ثمن مناديل الدورة الشهرية.
- تلكزها في خاصرتها، وتضحك.
- انتبهي، لن نقطع الشارع، إلا إذا توقفت السيارات، قبل أسبوع، هنا أمام هذه الإشارة سيارة مسرعة داست طفلة كانت تمسك يد أمها، والإشارة كانت خضراء للمشاة.
- أفكر، ماذا سيعمل الأستاذ وحيد بعد إحالته إلى التقاعد؟
- سوف يتسول، أو يسرق، حتما راتبه التقاعدي لا يكفي.
- لا أقصد هذا، أقصد عنده وقت فراغ، كيف سيملؤه.
- سوف يتسكع في الشوارع أو يتنزه في الحدائق، أو يساعد زوجته في المطبخ.
- أقصد: فَقَدَ شخصية المدرس، ماذا سيفعل ليبي شخصية جديدة؟
- سوف يقتل، ليقتل قاتل.
- وتمسك زهرة يد نسرين:
- نسينا، هناء في محل سلّورة، وهي تنتظرنا، أسرع.
- *
- أمام محل لبيع نظارات طبية مقابل المديرية يقف، يتأمل النظارات في الواجهة الزجاجية.
- *

يجب تبديل عدسات نظارتي، بل يجب تبديل النظارة كلها، غير مرة وقعت وانكسر الإطار، وأجسّ بإجهد في القراءة، صار بإمكانني شراء نظارة جديدة، اليوم سأقبض تعويض التقاعد بعد خدمة ثلاثين سنة، وليس لي غير ماجد، أحد طلابي في ثانوية المأمون، طلابي الكسالي، رسب في البكالوريا، وفتح هذا المحل، كل مرة يراني، وأنا أخرج من المديرية، يدعوني لتبديل نظارتي، وأنا أخجل، كيف سأقول له: لا أستطيع تبديل النظارة؟ دائما أحتج بأن نظارتي مثل حقيبتني هي رفيقة العمر، لا أريد تبديلها، هي مثل زوجتي، هي رفيقة عمري، ولا أبدلها بغيرها، أو لا أبدل غيرها بها، كما قالت لي مرة زوجتي، مدرسة اللغة العربية، والله نسيت أي التعبيرين هو الصواب، لو دققنا في كل كلمة نقولها، كنا سكتنا وما نطقنا بأي حرف، وهي نفسها تغط، ولكن تتفصح عليّ.

*

يخرج ماجد من غرفته الزجاجة في عمق المحل، يستقبله، ويدعوه إلى مقعد جلدي عريض أمام مكتبه، يقعد إلى جواره، وأمامهما شابة.

- أعرفك إلى الأستاذ وحيد، أستاذي في ثانوية المأمون، حقا أستاذ وحيد؟ سمعت أنك تقاعدت.

- نعم.

- أحسنت، التدريس متعب، أقدم لك الأدبية الفنانة الشاعرة والرسامة الأنسة رهنف، تعرفت عليهما من جديد، رائعة، مختصة برسم الوجه.

- أهلا بالأنسة رهف.

- أهلا بك أستاذ.

ويتابع ماجد كلامه:

- كلفتها برسم وجوه، ونظارات على العينين، لأضع لوحاتها في

الواجهة دعاية، هذا أفضل من الصور الجاهزة، ما رأيك أستاذي؟

- أحسنت، فكرة ممتازة.

- أستاذ، بالمناسبة، وصلتي نظارات طبية ممتازة، وبسعر مقبول،

النظارة مع الإطار بستين ألف ليرة سورية.

*

بستين ألف ليرة سورية؟ لما كانت بعشرة آلاف ما استطعت تبديلها،

والآن صار سعرها ستين؟ والله راتي ما تضاعف ولا زاد بمثل هذه النسبة،

سأعيش بقية العمر مع نظارتي.

*

- أشكرك، نظارتي هذه لن أبدلها.

- سوف أبيعك نظارة برأسمالها، لن آخذ منك غير خمسين ألف

ليرة.

- سأفكر في الموضوع.

وتتكلم رهف:

- أستاذ، إذا سمحت، وجهك، أول دخولك، لفت نظري، وجهك له

ملامح خاصة، أتمنى لو تسمح لي برسم وجهك، سأرسم لك اليوم صورة

أولية كوكيز، هي تخطيط بقلم الرصاص، وسأرسم لك فيما بعد لوحة هدية، وجهك له طابع مميز.

ويتكلم الأستاذ وحيد:

- لا مانع، ولكن أرجو عدم وضعها في واجهة المحل.

ويتدخل ماجد:

- اطمئن، هي خاصة لك، ولن أضعها في الواجهة الزجاجية.

تستل رهف من حقيبة أمامها ورقة وقلم رصاص، وتبدأ الرسم، وهي تتأمل ملامح وجهه.

تنتهي رهف من الرسم، تقدم له الورقة:

- تفضل أستاذ وحيد، هذا رسم أولي سريع، فيه بعض الشبه بك، طبعاً أنت الأصل، وأنت أكثر وسامة.

- شكراً، اسمحي لي بالاحتفاظ بالصورة.

- لا، أعتذر إليك، سأخذها معي، ليست جاهزة، تحتاج إلى شغل.

يعلق ماجد:

- الأنسة رهف، أنا لا أنسى دروس الأستاذ وحيد في الثاني الثانوي والثالث الثانوي، وهو يرسم على السبورة خريطة أوروبية، أو إنكلترة، أو إيطاليا، يرسمها بدقة متناهية، كان يقول لنا: الخريطة مثل الوجه، كل تفصيل له مكانه وقياسه وحجمه، وكم كنا نتألم عندما ينتهي الدرس، ونقوم بمسح الخريطة من السبورة من أجل الحصّة التالية، خريطته على السبورة لوحة فنية.

الأستاذ وحيد يعلق:

- تقول هذا الآن؟ لكنك...

- نعم، أستاذي، أعترف، ما كنت أحب المدرسة ولا الدراسة، لكن أعترف، كنا نحبك ونقدر موهبتك وإخلاصك في الدرس، كنت تخرج من الصف عند انتهاء الحصّة وأصابعك يعلوها غبار الطباشير.

رهف تطوي الورقة، تضعها في الحقيبة:

- أستاذ وحيد، أرغب في رسم صورة بورتريه لوجهك، وتسريني زيارتك لي في مرسعي في حي الأشرافية، عند الدوار الأول، بناية عزيزة، فوق مطعم الهناء، في الدور الأول.

*

جميل جدًّا، نحن جيران، أنت في الدوّار الأول في حي الأشرافية، وأنا في الدوّار الثاني، فوق، في الأعلى، وفي الطابق الرابع، كل يوم سوف أزورك، وأنا أرسّمك، وأنت ترسميني، وجه مدور، ممتلئ، شفتان مكتنزتان، عينان واسعتان، سوداوان، رموش طويلة، شعر أسود ناعم قصير، قصّة كارسون، يمنح الوجه شابًا وحيوية، دون الأربعين، موفورة الصحة، لا شك أنها غير متزوجة، لم يرهقها زوج ولا حمل، لكن...

*

- شكرا، دعوة كريمة، سأفكر في تلبيةها.

- لا تحتاج إلى تفكير، غدًّا، أنا سأمر بك في سيارتي، أين بيتك؟ حدّد لي فقط الساعة، والمكان، سأكون عندك ولا أتأخّر ولا دقيقة واحدة، إذا سمحت أعطني رقم هاتفك الجوال، سوف أرن لك، وينزل رقصي عندك، أنا سأتصل بك غدًّا.

- ينهض، يحمل حقيبته الجلدية.
- اعذريني، غدا عندي عدة التزامات، اتركي لقاءنا للمصادفة.
- لا شيء في هذا الكون يخضع للمصادفة، كل شيء له سبب،
وضمن خطة وجود متكاملة.
- أنا سأتصل بك.
- يسرني ذلك، وليته في وقت قريب.
- ينهض ليغادر، فيقول له ماجد:
- أستاذ وحيد، لي معك حديث.
- ويخرجان معاً، أمام المحل يقفان.
- أستاذ وحيد، هناك كلام سمعته، ولا أصدقه.
- ما هو؟
- اتهمك بأخذ رشوة.
- وما رأيك أنت؟
- لا أصدق.
- يكفيني هذا.
- الناس تصدق الشائعة، أكثر من تصديق الحقيقة، على كل حال
أنا على الاستعداد لخدمتك.

*

يودعه ويمضي.

يقطع الشارع إلى الرصيف المقابل، على الأرض، قبالة جامع
الصديق، قطعة قماش، تصطف فوقها صفوف من النظارات الطبية،

بجوارها مرآة، وأوراق ممّا يوضع في علب الأدوية، فيها كتابات بحروف مختلفة الحجم.

يقف يتأمل النظارات، البائع يتكلم:

- تفضل أستاذ، بدل نظارتك بنظارة طبية، بأربعة آلاف ليرة، لا بأربعين، نظارة طبية صينية، مكفولة.
يجرب عدة نظارات، ثم يشتري واحدة.

*

يضعها على عينيه، ويمضي باتجاه ساحة سعد الله الجابري.
يقف أمام مكتبة الأصمعي.

الرفوف في الواجهة خالية، يعلوها الغبار، يحس بصدمة، وهو الذي جاء قاصداً إلى المكتبة، منذ شهرين أو أكثر وهو يفكر في زيارة المكتبة، ولكنه كان مشغولاً بمتابعة معاملة التقاعد.
ينهض لتحيته شاب أشقر الشعر يرحب به أجمل ترحيب، ويترك مكانه وراء المنضدة، ويقعد إلى جواره على أريكة عريضة.
يبادره الأستاذ وحيد:

- يرحم الله والدك.

- تعيش يا عمي.

- كنت إذا طلبت منه كتاباً من مصر أو تونس أحضره لي، أيام زمان.

- صدقت، يا عمي، الآن كما ترى، بعنا المحل، سيحول إلى محل
لبيع الهواتف الجواله ومستلزماتها، نحن في عصر الهواتف الجوال،
وعصر الشبكة.

- ولماذا؟

- لا أحد يشتري، ولا أحد يقرأ، الأسعار تضاعفت، كان ثمن الكتاب
ألف ليرة، قبل سنة، أو أقل، صار ثمنه اليوم تسعة آلاف، وللأسف،
المواطن يشتري الهاتف الجوال بثلاثة ملايين، ولا يشتري الكتاب، حتى لما
كان ثمن الكتاب ألف ليرة كنا لا نبيع في اليوم غيركتابين أو ثلاثة، كان في
حلب أكثر من عشرين مكتبة، وكنا نتنافس، ونجلب الكتب من لبنان
ومصروتونس والمغرب العربي، الآن ما بقي في حلب غير ثلاث مكتبات.

- صدقت، حتى الكتاب الجامعي، أصبح الطالب لا يشتريه، صار
الطالب يشتري الملخصات، والوزارة ستلغي الكتاب الورقي، وعلى الأستاذ
تحويل محاضراته إلى مادة مكتوبة ويضعها في الشبكة، والطالب ينزل
المادة من الشبكة على حاسوبه الخاص.

- وهل عند كل طالب حاسوب شخصي؟

- يستطيع تنزيل المحاضرة على هاتفه الجوال.

- والقراءة في الهاتف الجوال تعمي العينين.

ويرسل كل منهما زفرة أسي.

الأستاذ وحيد يسأله:

- وماذا فعلت بالكتب؟

- أعلنا قبل ثلاثة أشهر عن معرض لبيع الكتب بحسم ستين بالمئة، خسارة، بعنا أكثر من النصف، الباقي نقلته في صناديق إلى مستودع في قبو العمارة.

- آه، حظي سيئ، والله، من ثلاثة أشهر، وأنا أفكر في زيارتك.

- تريد بيع مكتبك؟

- نعم.

- هذه ظاهرة جديدة، كثير من المثقفين عرضوا علينا شراء مكباتهم الخاصة، خلال هذا العام، واعتذرنا.

- وماذا أفعل؟

- بصراحة يا عمي، أنا أعتبر المكتبة الخاصة مثل كنز، على الأبناء والأحفاد الحفاظ عليها، والإضافة إليها.

- الأولاد؟ آه يا ابني، أين الأولاد؟ ابني حسان طبيب، هاجر إلى ألمانيا، وابني أحمد، عسكري، استشهد في تدمر، عام ٢٠١٥، وعندي ثلاث بنات، متزوجات، واحدة هاجرت مع زوجها إلى تركيا، والثانية مع زوجها في الإمارات، والثالثة مع زوجها في السعودية، ومن أكثر من عشر سنين ما زارتنا ولا واحدة، وبقي في شارع سيف الدولة نزل مع البناية كلها على الأرض، نرحنا إلى الأشرفية، الآن أنا وزوجتي، نعيش في شقة مستأجرة ما فيها غير ثلاث غرف، والله الكتب والجرائد والمجلات كلها في صناديق كرتون، بعضها فوق بعض، والخرائط، ملفوفة وممرية في السقيفة، زوجتي ضجرت من الكتب، وهي متراكمة في نصف الغرفة، وفوقها كتبها، زوجتي مدرسة لغة عربية، تقاعدت عام ٢٠١٨، بعد استشهاد ابنها، ملت

من التدريس، ومن الحياة، وأنا ضجرت من الكتب أكثر منها، أحس بععبء وجودها في المنزل، أريد التخلص منها.

- اسمح لي يا عمي، سأقول لك، لكن أرجوك، لا تفهمني خطأ، هناك تاجر كتب في أقبول، الحي القديم، عند باب الحديد، يشتري كل أنواع الكتب، بغض النظر عن الاختصاص، لكن معذرة، هو يشتريها...
- أعرف، أعرف، هو يشتريها بالكيلو، سمعت به، حدثوني عنه، وأعرفه من زمان، عريق في المهنة.

- يا عمي، اختلف كل شيء، وتغير، كان يشتريها بالكيلو، نعم، ولكن ليعرضها للبيع، لكن الآن يشتريها لبيعها إلى معمل الكرتون، لفرمها وإعادة تدويرها.

- للأسف، الحرب غيرت كل شيء.

- صدقت يا عمي، أنا أغلقت المحل من عام ٢٠١٣ إلى عام ٢٠١٨، تقريباً، خمس سنوات، الشارع الممتد من باب الحديد وعبر جادة الخندق إلى شارع القوتلي، ثم أمامنا، إلى نهاية شارع الجميلية، هذا الشارع المستقيم والجميل، أجمل شوارع حلب القديمة، هو خط القنص، أه لو أحكي لك، هنا، أمام المحل، اثنان إخوة، الأول نظر إلى اليمين وإلى اليسار، وركض إلى الرصيف الثاني، وفي منتصف الشارع، هناك، سقط، والدم ينزف من رأسه، ما حكي ولا كلمة، أخوه هجم حتى يسعفه، نحن منعناه، أربعة رجال أو خمسة، مسكناه، تعرف ماذا فعلنا؟
- تفضل.

- كان معنا سلك، في نهايته حلقة كبيرة، كنا مستعدين لهذه الحالات، تعودنا، رمينا السلك على الشهيد عدة مرات، حتى صارت رجله داخل الحلقة، وسحبناه، منظر، لا أستطيع وصفه، أخوه صار معه هلوسة، ضرب رأسه بزجاج المحل، انكسر الزجاج، انشق رأسه، جرح غائر في جبهته، وبدأ يصيح والدم ينزف على وجهه: سأنتقم لك من الدنيا كلها، من الكبير ومن الصغير، من الحي ومن الميت، كأنه أخوه التوأم، يشبهه، هذا كان اسمه عماد، والشهيد، الله يرحمه، اسمه إياد، جارنا صيدلي، قام بخياطة الجرح في جبهته، بعد ساعة وصلت سيارة إسعاف، وأخذت الاثنين.

- الله لا يعيد تلك الأيام.

ويحضر لهما النادل من المقهى المجاور فنجانني قهوة.

- عندي فكرة.

- تفضل، يا عي.

- من أربعين سنة، لا أتذكر بالضبط، أظن قبل عام ١٩٨٠، أو

بعد، عرض الدكتور محمد خير الدين حلواني مكتبته عندك للبيع، وأتذكر أنه أوصى والدك، يرحمه الله، ببيع كل كتاب بحسب سعر الغلاف الذي اشتراه هو، وأنا اشتريت من مكتبته بعض الروايات، الرواية الواحدة بثلاثين ليرة، أو خمسين، بحسب ما كان هو اشتراها، مع أن سعرها الحقيقي كان يومئذ لا يقل عن خمسمئة ليرة، ما رأيك بعرض مكتبي عندكم للبيع بهذه الطريقة، ولكم نسبة من المبيعات.

- آه، يا عمي، تأخرت، كنت أتمنى، لو جئت قبل شهر، أو شهرين، لكن، والله، صدقاً، أقول لك، خلال بضعة أيام، لا أعرف، عشرة أيام، أو أقل، سنسلم المحل، فور انتهاء معاملة البيع، مجرد إجراءات، ومسير المعاملات يمشي بالمعاملة.

*

يحييه، ويخرج، يتأبط حقيبته الجلدية البنية الصغيرة، وليس فيها سوى صور عن قرارات الموافقة على إحالته على التقاعد. بعد بضعة أمتار، وعلى الأرض، تمتد أمامه فوق قطعة قماش أيضاً نظارات طبية.

- بكم النظارة؟

- بأربعة آلاف.

- بثلاثة.

- يا أستاذ، السعر موحد، والله لو درت حلب كلها لن يبيعها لك أحد بأقل من أربعة، وصدقاً، نحن نبيعها بخسارة، بكره سعرها خمسة آلاف أو ستة.

*

يجتاز ساحة سعد الله الجابري، في مساحتها الرحبة يترامض بعض الأطفال، وعلى المقاعد الحجرية يقعد رجال ونساء أكثرهم من العجائز، شمس الخريف الكئيبة تمنحهم بعض الدفء، وغمامات داكنة تحجبها حيناً، وحيناً آخر تترك لها فرجة صغيرة تطل من خلالها، والمطر متوقع بين لحظة وأخرى، وثمة ثلاث عربات لبيع الفوشار والجوارب

وعربة فيها مقصات ومرايا وحقائب صغيرة وشفرات ودُمى وألعاب
أطفال، والبائع ينادي:
- القطعة بألف، القطعة بألف.

وثمة عربة فيها معدّات صنع الشاي والقهوة ورائحة القهوة تنفج
الساحة برحيقها الشهي.

*

قبل سنة كنا نشترى ثلاث قطع بألف، وفيما قبل التاريخ كنا نشترى
القطعة بخمس وعشرين ليرة، وفي العصر الحجري كنا نشترىها بعشر ليرات.

*

ويجد نفسه أمام عربة أخرى فيها أقراص فلافل ذهبية اللون،
وبجوارها ثلاثة أهرامات صغيرة من البندورة المفرومة والخيار والفجل،
كيف أعدها على هذا الشكل؟ يبدو أنه فرم البندورة، ووضعها في سطل،
ثم قلب السطل على وجهه، تشكيل بديع، وبجانب الأهرامات وعاء مملوء
بالطحينة، والبائع منهمك في لف الصندويشات، رائحة الفلافل شهية،
رائحتها تغريه، وصوت البائع يناديه:

- تفضل أستاذ تفضل، الصندويشة بألفين.

ينفحه عبق الفلافل، شهية، مثيرة، لا يمكن مقاومتها.

يقف، يتردد، يتأمل المشهد.

*

سأذهب إلى المصرف أولاً، أقبض تعويض الخدمة، ثم أشتري
صندويشتين، واحدة لي والأخرى لأم أحمد، نتناول الفلافل معاً، تحب

الفلافل كثيرًا، لا يمكن أن أتناول الفلافل وحدي، وسأشتري علبة كولا، بعد قبضي المبلغ، لن أشتري الفلافل من هذا البائع، على العربية، لا أطمئن إلى نظافته، سأشتريها من محل فلافل الفيحاء في منتصف شارع بارون.

*

يجتاز الساحة، يودّ لو يقعد على أحد المقاعد الحجرية، لكن سرعان ما يمضي.

*

من غير اللائق بي القعود هنا في الساحة على مقعد حجري، قد يمر بي أحد طلابي، أو أحد زملائي المدرسين، حقيقة أنا متقاعد، وقد خرجت من سلك التدريس، ذلك السلك...ماذا أقول، لكن يجب أن أحافظ على القليل مما تبقى من مكانة المدرس.

*

وتمضي به خطاه، يحس كأنه سائح هائم، أول مرة يمشي لا إلى مدرسة ولا إلى عمل ولا إلى مديرية ولا مؤسسة، هو متقاعد، يعني هو حر، لا ارتباط له بشيء، متقاعد، لا عمل، لا مسؤولية، لا التزامات، هي الحرية الحق.

*

يا إلهي! كم نحن معقدون! نحن جيل العيب، وهؤلاء الشباب والصبايا يقعدون على المقاعد الحجرية في الساحة، يتناولون القهوة والشاي، ويقضمون صندويشات الفلافل والشاورما والهمبرغر، هذا كله نحن كنا في جيلنا محرومين منه، من العيب أن تأكل في الشارع، من العيب

أن تحمل عرنوس ذرة وتمشي به لتأكله على الرصيف، ولكن، هل ما يفعله الآن الشباب هو الحرية؟ هل هو متعة حقيقية؟ يا إلهي، كنا لا نرتدي البنطال إلا إذا كان مكويًا، وحدّه كالسيف، الآن، الشباب يرتدون بناطيل ممزقة، فوق الركبة، أو أسفلها، أو عند الركبة، وأطراف البنطال مهترئة تتدلى منها الخيوط.

*

الزحام أمام باب المصرف شديد، وكثير من المتقاعدين جاؤوا لقبض رواتبهم.
المستخدم يفتح الباب، فيخرج واحد ليدخل الآخر، وهم يتزاحمون.

يتقدم منه:

- أنا معي شيك.

يفسح له الطريق، ويدخل.

تقول له الموظفة:

- راجع المديرية أولاً، غرفتها هناك.

غرفة زجاجية متألقة، عالية، يصعد إليها على خمس درجات، تشرف على فضاء المصرف كله، مكتب واسع مشرق، فور دخوله تنهض، تحييه، لا يتبين ملامحها، الستائر الفخمة وراءها تنفتح عن نافذة واسعة عريضة، الزجاج يسمح لضوء الشمس بالدخول، النافذة تُسقط عليها ضوءاً مهيئاً، تمدّ إليه يدها من وراء المكتب، فيصافحها، فتظل ممسكة بيده بحنان.

- أهلاً أستاذ وحيد، تفضل.

تشير إلى مقعد جلدي فخم أمام مكتبها، فيقعد، وتغادر مكتبها،
تقعد أمامه، تتضح ملامحها، تستيقظ الذاكرة، وتنبعث مشاعر قديمة،
سلوى، صديقه في معهد شكسبير لتعليم اللغات، كانا يتنافسان في
إتقان اللغة الإنكليزية.

- لا شك، أنتَ عرفتَي.

أشعة الشمس من خلال الزجاج تضيء وجهها المدور المشرق،
ويتألق شعرها المتموج بالشقرة وهو ينسدل من جانبيها على صدر ممثلي،
تحتضنه بقوة وتشد عليه بلوزة صفراء حريرية ناعمة، تشف عن حمالة
سوداء، وفتحة القميص تنساب بلطف عن سلسلة فضية تتدلى حتى
فجوة الثديين، تنتهي بحرف s، ويتذكّر فوراً اسمها، وعيناه على الحرف.
- طبعاً، سلوى، ولا ننسى الأستاذ منير المدرس في المعهد.

- لا تذكره لي، أرجوك.

- كان أفضل أستاذ مرّ في حياتي.

- وكان أسوأ زوج.

أمامها على المكتب الطويل ثلاث شوكيات صبار صغيرة، واحدة
منها فقط تتفتح عن زهرة صفراء ناعمة، كالقميص الذي ترتديه، وعلى
يمينها ثلاثة هواتف، وبجانبيها إطار في داخله صورة لطفلين، يبدوان
توءمين.

يصمت، ينظر إليها مستفسراً.

- ظننته يحبني، بل أحبني، لن أطيل عليك، تزوجنا، مثل أكثر مَنْ يتوهم الحب، كنت غبية، صبية في الثامنة عشرة، وأتطلع إلى الدراسة والجامعة، وكان يكبرني بعشر سنوات، شاب ومتخرج، وأستاذ في معهد، ونحن نعشق اللغة الإنكليزية، تذكر ذلك، وربما عشقته لعشقي اللغة الإنكليزية، تزوجنا عام ١٩٨٢، بعد نيلى الشهادة الثانوية عام ١٩٨٠، ودخولي الجامعة، ست سنوات، أنجبت ولدين، وانتهى الحب، تكذّرت معيشتنا، كان يطمع بثروة والدي، كان محل والدي في منطقة سبع بحرات، في الشارع الممتد من سبع بحرات إلى السجن القديم، المهم، وكانت شقتنا فوق محل والدي، وكان والدي أكبر تاجر في ذلك السوق، طبعاً المحل دُمر والشقة والبناية وصفّ البنايات كلها تقريباً صارت بمستوى الأرض، كان هذا عام ٢٠١٦، نحن كنّا نزحنا قبل ثلاث سنوات، استأجرنا شقة في حي حلب الجديدة الجنوبي، نعود إلى قصة الطلاق، المعهد الذي كان يعمل فيه زوجي أغلق، عام ١٩٨٦، صاحب المعهد أفلس، المهم، زوجي قعد في البيت، لا معهد، ولا دورات، ولا دروس خصوصية، تخيّل زوجي طلب من والدي شراء شقة، وعرض عليه فكرة افتتاح معهد لتعليم اللغات، والدي ما وافق، لا عن بخل، لكن عرف طمع زوجي وكذبه وخيانتة، المهم، وصار ما صار، وانفصلنا.

تضحك، وتضيف، وتشير إليه بيدها:

- كل العتب عليك، لو تزوجنا كان مجرى التاريخ كلّهُ تغير، وربما الحرب كلها ما كانت صارت.
- لو تزوجتك، كان صار كل ما صار.

غمامات سود داكنة تملأ السماء، تحجب أشعة الشمس، يغييم فضاء الغرفة.

تتغير ملامح وجهها، تنقبض، تهض إلى مكتبها، ترفع شعرها عن جانبي صدرها، ترده إلى وراء، يزداد بروز صدرها اندفاعاً تحت القميص الأصفر، هي تتكلم:

- تقصد حظي هو حظي، وكان انعكس عليك؟

- لا، عفوا، والله ما قصدت هذا، وما كانت ظروفني تساعدني على الزواج، ولا أعرف ماذا أقول لك؟ هل كان من المعقول قبول زواجك من شاب في السنة الرابعة بالجامعة، لتتري مثل الأستاذ منير المدرس الأشقر الطويل أستاذ اللغة الإنكليزية، لتتزوجي مني أنا الأسمر القصير؟ تطل شعاعات باهتة من خلال الغمامات السود، يتألق شعرها الذهبي، تشرق ضحكتها:

- كنت أمزح معك، لا أشقرو ولا أسمر، أسمرٌ مُجَبِّ ومخلص أفضل من ألف أشقر مغرور أو طماع ومتكبر، المهم، ولا تنس، هل تذكر سهام، كانت تعشقك، لكن أنت كنت تصدّ عنها، كان همك الدراسة، ودورة اللغة الإنكليزية، هي صارحتني، كانت تحبك، وقالت لي: كَلِّمي الأستاذ وحيد، اسأليه إذا كان عنده رغبة في خطبتي.

- أي خطبة؟ وأي زواج؟ أنا كنت ما أزال في السنة الرابعة، في قسم الجغرافيا، وقلت لك حينها، حملت مادة اللغة الإنكليزية من السنة الأولى والثانية والثالثة، إلى الرابعة، وتوقف تخرجي على هذه المادة، ما كنت أعرف أي شيء باللغة الإنكليزية، ولذلك اتبعت تلك الدورة، وأنت

كنت في الثالث الثانوي، وكنت أنت متفوقة، أنت وسهام، أنت اتبعت دورة اللغة من أجل مجموع علامات أعلى، سامحيني، أنا لا أصدق كلامها، أي حب وأي خطبة وأي زواج.
- والله لا أكذب عليك.

- أنت صادقة، لكن أقصد، لا أصدق كلام سهام، وسامحيني،
والله نسيت هذا كله.

- هذا كله مضى وراح، للأسف الحرب أنستنا كل شيء، على كل حال، الحمد لله، بعد الطلاق تغير مجرى حياتي إلى الأفضل، لا أنكر، الأستاذ منير، سمح لي، وأنا زوجة وربة بيت، بمتابعة دراستي، طبعاً ما تزوجنا إلا بعد نيلي الشهادة الثانوية، نلت الشهادة الثانوية عام ١٩٨٠، وقبلت في كلية الاقتصاد، وتزوجنا وأنا في السنة الثانية، عام ١٩٨٢، مثلما قلت لك، والتواريخ أحفظها بالأرقام، لأنها قصة حياتي، وتخرجت بمعدل ممتاز عام ١٩٨٤، وأنا زوجة وأم، وقبلت في الدراسات العليا، وهنا حصل الطلاق عام ١٩٨٨، وما همني الأمر، سجلت رسالة ماجستير عام ١٩٩٠، ونلتها بتقدير ممتاز عام ١٩٩٤، وفوراً تم تعييني موظفة في هذا المصرف، وأثبتت نجاحي، وسجلت بعدها رسالة دكتوراه، ونلتها عام ٢٠٠٠، وفي تموز من عام ٢٠٢٠ عُيِّنْتُ مديرة في هذا المصرف، وأهلاً وسهلاً بك.

الغمامات السود تنداح، تطل الشمس، تملأ فضاء الغرفة.
- مبارك نجاحك.

- حَدِّثِي أَنْتَ عَنْ حَيَاتِكَ، وَاضْهِحْ، عَمِلْتِ فِي التَّدْرِيسِ، مَا أَمَامَكَ
غَيْرَ التَّدْرِيسِ، أَعْرِفَ كُنْتَ فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ قِسْمَ الْجُغُرَافِيَا، مَا نَسِيتِ،
وَأَنْتِ قُلْتَ هَذَا أَمَامِي، كَأَنَّكَ تَرِيدُ تَذْكَيرِي، وَأَنْتِ الْآنَ تَقَاعَدْتَ، صَارَ
عَمْرُكَ سِتِينَ، وَأَنَا عَمْرِي يَقْرُبُ الْخَمْسِينَ، لَكِنْ أَعْتَبَ عَلَيْكَ مَرَّةً ثَانِيَةً،
كَأَنَّا مَا عَشْنَا مَعًا فِي دُورَةِ اللُّغَةِ الْإِنْكَلِيزِيَّةِ، هَكَذَا أَنْتِ قَطَعْتَ كُلَّ وَسَائِلِ
التَّوَاصُلِ، كَأَنَّهُ مَا كَانَ عِنْدَكَ هَاتِفُ جَوَالٍ، دُورَةُ اللُّغَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكَ
كَانَتْ فَقَطْ دُورَةُ لُغَةٍ، أَنَا بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ كَانَتْ دُورَةُ حَيَاةٍ، مَا هِيَ مُشْكَلَةٌ،
حَدِّثِي عَنْ حَيَاتِكَ، طَبِيعًا تَزُوجَتِ.

- نَعَمْ، وَعِنْدِي زَوْجَةٌ مُمْتَازَةٌ وَخَمْسَةُ أَوْلَادٍ، اسْتَشْهَدَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي
تَدْمَرٍ، وَمِثْلَمَا قُلْتِ أَنَا الْيَوْمَ مُتَقَاعِدٌ، وَمَعِيَ شَيْكَ تَعْوِيزٌ عَنِ الْأَشْهُرِ
الثَّلَاثَةِ الْآخِرَةِ.

- تَقُولُ عِنْدَكَ زَوْجَةٌ مُمْتَازَةٌ، طَبِيعًا، أَنْتِ الْمُمْتَازُ، وَطَبِيعِي هِيَ
مُمْتَازَةٌ مِثْلَكَ، وَأَعْرِفُ، أَنْتِ جِئْتَ إِلَى الْمَصْرَفِ التَّجَارِيِّ، مَا جِئْتَ لَزِيَارَةٍ
سَلَوَى.
- اعْذِرِينِي.

- عَلَى كُلِّ حَالٍ، كُلُّ شَهْرٍ سَوْفَ تَأْتِي لِتَقْبِضِ رَاتِبَكَ التَّقَاعَدِي مِنْ
عِنْدِي، سَيَكُونُ رَصِيدُكَ عِنْدِي أَنَا فِي هَذَا الْفَرْعِ، وَرَصِيدُكَ الْقَدِيمِ
يَتَجَدَّدُ.

- مِنْ سَوْءِ حَظِّي، رَصِيدِي فَتَحَهُ الْمُعْتَمِدُ فِي الْمَصْرَفِ الْعَقَارِيِّ.
- فَوْرًا أَتَصَلُّ بِالْمَصْرَفِ الْعَقَارِيِّ، وَأَطْلُبُ إِغْلَاقَ رَصِيدِكَ هُنَاكَ.
- أَرْجُو صَرْفَ الشَّيْكَ، وَبَعْدَهَا نَتَكَلَّمُ عَلَى فَتْحِ الرِّصِيدِ.

- المهم عندك هو الشيك، للأسف، حاول نسيان الشيك، سأصرفه لك في خمس دقائق، على كل حال، الحمد لله، الله عوضني عن الزوج بهذين الولدين، تفضّل، تعال إلى هنا، بجانب، انظر إلى صورتهم، ما أحلاهما، تميم كان عمره سنتين، وهو الآن طبيب جراح، في فرنسا، باريس، وتمّام كان عمره أربع سنين، هو الآن في إيطاليا، فنان تشكيلي، في روما، مقيم هناك، كأنهما توأمان، أحب صورتهم، وهما في سن الطفولة، لأحس بالشباب الدائم، أنا الآن أعيش وحدي، ملكة زماني، وهذا المنصب عوضني عن الزوج، مكتب فخم، وزهور تملأ النافذة، تعال انفرج على الزهور، تفضل، تفضل.

تنهض من كرسيها الجلدي البرام، وتلتفت نحو النافذة، ثم تلتفت إليه، وتكرر.

- تفضل، تعال، ألق نظرة، انس الشيك، ولا يهمك.

*

ينهض يقترب منها، أمامه في النافذة الواسعة العريضة تمتد أصص فاخرة جميلة حافلة بالورود والزنايق والرياحين، وشعاعات الشمس الخريفية تزيد الورود تألقًا، فيزدهي الأصفر والأحمر والقرنفلي، وجهها تسقط عليه أشعة الشمس، تتسرب بين الرموش الشقر لعينها الزرقاوين، وتسقط الحمرة القانية في شفتين قرمزيّتين ممتلئتين، وتتسرب الشعاعات الذهبية إلى الصدر، ويلتصع حرف s المترجّح فوق فجوة الثديين، كأنه يريد التغلغل بينهما.

تقرب منه، يحس دفء أشعة الشمس، يحس دفء جسمها،
كتفها يلتصق بكتفه، يسري في كيانه عبق جسد ناعم منعش، يحس
برغبة تجتاح كيانه.

- انظر إلى هذه الوردة الصفراء المتفتحة، هو ليس موسم الورد،
ولكنني أعرف كيف أربي الورد، وكيف أُعنى به، وانظر إلى هذا الزنبق
الأسمر اللون المنتصب على ساقه كأنه رمح محارب، بل الأجمل لو قلت
كأنه قلم بيد شاعر أسمر يكتب قصيدة.
- أنت شاعرة.

- والدي، الله يرحمه، أصر على دخولي كلية الاقتصاد، عقل تاجر،
كنت أرغب في الانتساب إلى كلية الآداب، قسم اللغة العربية، على كل
حال، ابني تمام حقق طموحي، قلت لك، هو فنان تشكيلي مقيم في روما،
العام الماضي أقيم له معرض في معهد العالم العربي في قلب باريس.

*

شيخ عجوز يصعد الدرجات الخمس إلى غرفتها، يراه من وراء
الزجاج، شعره أبيض، لحيته بيضاء، يدخل بتؤدة وهدوء، مستنداً إلى
عكاز، يمد إليها يده بشيك:

- يا بنتي، الله يرضى عليك، وقعي على هذا الشيك.
- أسفة، خذه إلى الأستاذ المعاون، هو سيوقع عليه، عندي
اجتماع.

- لكن الموظف قال لي: اذهب إلى المديرية لتوقع عليه.

- وأنا قلت لك: اذهب إلى المعاون.

- المديرية غير موجودة؟

- أنا المديرية، أوف، حسبي الله ونعم الوكيل، هات.

تتناول منه الشيك، توقع عليه، من غير أن تنظر فيه.

- شكرا يا بنتي.

- مع السلامة، يا جدي، كل يوم تفضل، ومعك شيك.

ترسل زفرة، ثم تضيف:

- للأسف، لا أسمع غير كلمة يا بنتي، ويا أختي، كأني سوف أحبه

وأتزوجه، أو كأني سوف أسرق الشيك منه.

*

تلقت إليه، تقترب منه، أنفاسها تغمره، تنفج شفتاها

القرمزيتان عن سؤال:

- هل أعجبتك نافذتي؟

يحبس بالعرق يملأ راحة يده، يضع الشيك على المكتب، خشية أن

يناله البلبل، ينظر إلى ساعة يده، ثم يلتفت إليها، وهويشير إلى الشيك:

- الساعة الآن حوالى الواحدة، أخشى إغلاق الصندوق.

تقهقه، تضحك عاليًا:

- فليغلق الصندوق، هل نسيت أنا هنا المديرية، فليغلق صندوق

المصرف، سأعطيك أنا من صندوقتي.

تأخذ مكانها وراء المكتب:

- تعال، هنا إلى قربي، انظر إلى شرفة منزلي.

*

وتفتح هاتفها الجوال، وتعرض عليه الصور.

- تعال اقترّب، أجمل من حديقة الهاید بارك في لندن، البنفسج والفل والياسمين والنجس وأنواع وأنواع من الورد، والزنبق، أعزشيء عندي الزنبق، شقتي في الميريدیان، أمام الباب الرئيسي للفندق، عمارة الأمل، الدور الأول، الشرفة مطلة على المدخل الرئيسي للفندق، على الجهة الجنوبية، الشمس لا تفارقها، من الصباح إلى المساء، وعندي كناري أصفر، مثل الشمس، تغريده لا ينقطع، هذه بطاقة باسمي ورقم هاتفی، اتصل بي وتفضل بزيارتي، في أي وقت تشاء، أنا كما قلت لك، أعيش وحدي، ملكة زمني، تعال، فقط اتصل.

تقترب منه، تستند بكوعها إلى ذراع كرسيها البرام، يحس بكوعها يلمس جزءاً من جسمه، يده تمتلئ بالعرق.

يتناول من يدها البطاقة، يضعها في جيب السترة.

- تسرني زيارتك، سأزورك في أقرب وقت أنا وزوجتي، الآن وقعي لي على الشيك.

- تفضل بزيارتي أنت والقبيلة كلها، أهلاً وسهلاً، أنت مثل هذا الشيخ العجوز، كل همك الشيك، ومستعجل، كأنك جئت من القطب الشمالي، ولا ينقصك غير عكازة، ولحية بيضاء، سبحان الله، هات، لأوقع على الشيك، أعرف، أنت جئت من أجل الشيك، وهو وحده الذي يملأ عقلك وقلبك وكل حواسك، تفضل، اقعد، لا تتعب نفسك، سأطلب من الأذن ليصرف لك الشيك.

يرن جرس الهاتف إلى جوارها، ترفع السماعه، وتضعها فوراً، ولا ترد.

السماء وراءها تغيم، الشمس تغيب، برق يملأ فضاء الغرفة، يعقبه هدير رعد يهز أركان المصرف، وينسكب المطر غزيراً على الزجاج. تلتفت في كرسى البرام تتأمل المطر المنسكب من وراء النافذة. - ما أروعه، كم أشتي لو أسير الآن تحت المطر، ليبلل شعري وثيابي، كم أشتي لو يغسلني المطر، ما رأيك لو نخرج لنمشي معاً تحت المطر؟ حاول نسيان الشيك، الدنيا مملوءة شيكات، لكن ما فيها نقطة حب، فيها للأسف، ألف حرب، وحرب. تضحك تقهقه.

- هل تذكر، كيف خرجنا مرة من معهد شكسبير، ومشينا معاً تحت المطر.

فجأة، تتغير نبرة صوتها، تنهض، عبر مكتبها تمد إليه يدها بالشيك، وجهها متجهم، خندق عميق ينحفر ما بين الحاجبين، الشديان يندلقان أمامه ضخمين قاتمين، غاب عنهما التألق، حرف s يترجّع يتطاير، عاصفة هوجاء تعصف به:

- أستاذ وحيد، الموظف في التريبة غبي جاهل، أحق، رصاصه تقتله، لا يعرف أصول الشيكات، مثل كل الموظفين، لم يكتب اسم الأب، تفضل اقرأ، لماذا لم تنبههم لكتابة اسم الأب؟ يقف يتناول الشيك من يدها، ينظر فيه. - لكنهم كتبوا الرقم الوطني.

- مستحيل، لا يمكن صرف الشيك.
- أكتبه أنا، يوجد فراغ، أو اكتبه أنت.
- لا يجوز، القلم يختلف، والخط يختلف، ولا بد من كتابة اسم الأب ووَضْع الختم إلى جانبه، الساعة الآن الواحدة، ما من مشكلة، مديرية التربية قريبة، بعشر دقائق تذهب وترجع، وأصرف لك الشيك.
- لكن
- سأنتظرك، لا تتأخر، خذ سيارة أجرة، لو كان السائق هنا كنت طلبت منه توصيلك بسيارتي الخاصة، عندي اجتماع في الواحدة والنصف مع مدير المصرف المركزي، حتمًا لن تتأخر، وصدّقني، أتمنى لو أذهب معك، لنمشي معا تحت المطر، هذا المطر شهّي.
- يحمل حقيبة يده، ويهم بالمضي.
- اترك الحقيبة، لا تخف، لن أسرقها، سوف أهديك واحدة من شجيرات الصبار، سأهديك هذه، فيها زهرة صفراء صغيرة، لا تخف أشواكها ناعمة، لن تجرح إصبعك.
- شكرا، سأخذ الحقيبة، لأحيي بها رأسي من هذا المطر.
- الأجل، لو تركته يبتل.

*

يغادر غرفتها الزجاجية، يهبط على الدرجات الخمس، يدخل في زحام المراجعين، يختنق بروائح الأجساد والسجائر، عند الباب يسأله الأذن:

- تأخرت أستاذ، صرفت الشيك؟

- لا.

- لماذا؟

- لم يكتبوا عليه اسم الأب.

- لو عرضته عليّ قبل دخولك على المديرية كنت أنا كتبت عليه اسم

الأب.

- قلتُ للمديرة اكتبي أنت اسم الأب، أو هاتي لأكتب، قالت لا يجوز

الخط يختلف والحبر.

- مئة شيك مرت علي، وما فيها اسم الأب، وكنت أكتبه أنا شبه

الأمي بخط يدي، ويمشي الحال.

- حظي سيئ.

- إذا الرقم الوطني موجود ما من مشكلة، وكانت المديرية تضرب

اسمك على الشبكة الوطنية، وتتأكد.

- قلت لها هذا، اعتذرت.

- لكن أمضيت ساعة وأنت كنت تتحدث معها، وهي تتحدث

معك، هل بينك وبينها قرابة؟

- معرفة قديمة.

- هي هكذا، تنشدد مع كل من يقرئها أو تعرفه، هات أستاذ أنا

أدخل عليها وأوقعه، سأجعلها توقعه، عندي أسلوب.

- شكرا، لا أريد إحراجها.

- طيب، هات أوقعه من الأستاذ المعاون، وتقبطه فوراً، من غير

مراجعتها.

- سوف تراني من غرفتها الزجاجية المطلة على المصرف كله، قلت لك لا أريد إحراجها.

- أنت رجل نبيل، عليّ واجب خدمتك، اسمع مني، اذهب إلى المصرف التجاري فرع ٢ في البناء المقابل، وقل له أبو حميد أرسلني، أسرع، الصندوق سيغلق.

- سأذهب إلى مديرية التربية، وأطلب من الموظف وَضْع اسم الأب، وأرجع لأقبضه غدًا.

- اليوم هو الخميس، وغدا الجمعة، عطلة، وبعده السبت، عطلة.

- ماذا أفعل؟

- أنت أستاذ مدرسة؟

- نعم، لكن تقاعدت، وهذا الشيك...

- فهمت عليك، على راسي، احترامي أستاذ، اسمع مني، اذهب إلى المصرف المقابل، مثلما قلت لك، المدير محترم، ولا تقل له أنا من طرف أبو حميد، إذا عرف أنت أستاذ، سيصرفه فورًا.

*

شيك نظامي، وما فيه أي مشكلة، قرأت المبلغ كتابة، وهو مطابق للمبلغ رقمًا، وكثير من الشيكات صرفتها بعلي أنا، أنا الآن الشبه الأمي، وما كان فيها اسم الأب، وجود الرقم الوطني وحده يكفي، والله لا أعرف، هناك شيء ما، والمديرة اليوم نفسها متفتحة، ووقفت، ووقفت إلى جوارها، رأيتهما وهي تحدثه عن الورود في النافذة خلفها، لا أعرف، مزاج!

*

يعبر الشارع إلى المصرف الآخر تحت المطر المنهمر غزيرًا.
بعد عشر دقائق، يخرج من المصرف، يشد إلى صدره حقيبته
الجلدية.

*

أول مرة في حياتي كلها أقبض ثلاثمئة وخمسين ألف ليرة، ولكنها لا
تعادل سوى ستين دولارًا، شمس تشرين مشرقة، والجو مغسول بالمطر
الشهي، كما قالت سلوى، هل أمر بها وأخذ شجيرة الصبار؟ ما كان بيني
وبينها لا حب ولا عشق، دورة اللغة كانت أربعة أسابيع، لا أكثر، وفي الأسبوع
ثلاثة دروس، في حي الجميلية، أحيانًا بعد الدرس كنت أتمشّى معها، أربع
مرات أو خمس مرات، لا أكثر، دعوتها إلى تناول الكاتو والكولا، في محل
يرتاده دائمًا الصبايا والشباب، بين ثانوية المأمون، وثانوية معاوية، المحل
قائم حتى الآن، ما لمست يدها، وما قلت لها أحبك، مجاملات ومزاح، هل
هذا حب؟ اليوم يمشي الشاب مع الصبية ألف مرة، ويقدم لها، وربما هي
تقدم له عشرين فنجان قهوة، وخمسين قطعة كاتو، وتمشي مع غيره، وهو
يمشي مع غيرها، ثم يفترقان، ولا تعتب عليه، ولا يعتب عليها، شيء مضحك
حقًا، والله ما خدعتها، هي منْ حقدتها على منير صبت حقدتها عليّ، أوه، هذا
الرجل على الرصيف يراني وأنا أبتسم، وأكلم نفسي، سيقول عني مجنون،
لكن، لست وحدي من يمشي ويكلم نفسه.

*

المطر يهطل رذاذًا ناعمًا، تشرين أحب الشهور إليه.
يرن هاتفه الجوال، يقف تحت مظلة أحد المحلات.

- مساء الخير أستاذ وحيد.
- أهلا بالسيدة سهيلة.
- أهنئك بالتقاعد، وأبارك لك، واسمح لي، لا أسميه التقاعد، سأسميه التحرر وبدء حياة جديدة.
- أشكرك.
- أين أنت؟
- أنا هنا في منطقة العبّارة، خرجت للتو من المصرف التجاري.
- هل عندك التزام أو وعد؟
- لا.
- أنا الآن انصرفت من مديرية التربية، يسرني دعوتك إلى مطعم القمة، أو أي مطعم تختار لتتناول معا الغداء.
- شكرا لك سيدتي.
- لا تقل شكراً، أرجوك، قل: موافق، أكثر من مرة دعوتك، واعتذرت.
- لِيَكُنْ، في وقت آخر.
- هكذا تقول لي دائماً، أعرف، كنتَ تخاف رؤية الناس لنا، أنت موجه في مديرية التربية، وأنا موظفة في المديرية نفسها، طبعاً نحن في مجتمع متخلف، مغلق، تخشى كلام الناس، هل من الضروري وجود علاقة بين أي رجل وامرأة يجتمعان معاً، أو يسيران معاً، قد يكون بينهما علاقة تجارية، أو صداقة، أو حديث عن الحياة وهمومها، لعلني أريد الحديث معك عن حياتي وبיתי وأولادي، أو عن هموم الوظيفة.

- أعرف، أنا واثق، ليس بيننا إلا كل المودة والاحترام.
- كم كنت أزورك في مكتبك في المديرية، وأحدثك عن هموم الحياة،
كل أحاديثنا كانت عن الغلاء والراتب وصعوبة العيش، وكنت تبعث في
نفسي الثقة والأمل والتفاؤل، كنت أرجع من زيارتي لك في مكتبك وأنا
مزودة بشحنة من الأمل والتفاؤل، ما الذي يمنع من لقائنا معًا في مطعم
أو مقصف؟

- قد يكون هذا مستقبلا، وأنا سأدعوك.
- لا تقبل دعوة من سيدة، كي لا تدفع هي فاتورة المطعم؟
- لا، لا أقصد هذا.
- أنا أعرف، أنت تظن أنني أرد لك الجميل الذي قدمته إلي، ليتني
أستطيع ذلك، أنت قدمت لي خدمة كبيرة، سأظل أذكرها أنا وزوجي
وأولادي.

- العفو، أنا لم أقدم لك أي خدمة، مدير التربية هو الذي وافق
على نقلك من العمل في التدريس إلى العمل في وظيفة إدارية في مديرية
التربية.

- لكن لولا توصيتك بي عنده، وشفاعتك لي، ما كان نقلني.
- نعم، زكيتك عنده، ولكن لولا قناعته ما كان نقلك، هو صاحب
الفضل، لا أنا.

- هذا تواضع منك.
- سأدعوك أنت وزوجك، وستكون معنا زوجتي أيضًا.
- أعرفك، هذا هو أنت، لن تتغير.

*

يخطو باتجاه شارع بارون، ليشتري صندويشّي فلافل.
يدخل في العبارة المؤدية إلى سينما حلب، خسارة، لم تعد سينما،
أصبحت مستودعًا، كان في حلب أكثر من ثلاثين سينما، ليس فيها حاليًا
سوى اثنتين، يمرين محلات للفروج والشاورما والصندويش الساخن،
تفغم أنفه رائحة الفروج المشوي، والشاورما، يقف أمام محل الزمّار،
أشهر محل للشاورما، والخروف المشوي، يتأمل الفروجيات المحمرة،
وسيح الشواء يقلب بها أمام النار المتوهجة، والدهن ينز منها، وأمامه
حوالي عشرة أشخاص ينتظرون نضج الفروجيات.

*

فلافل! هل من المناسب شراء فلافل لزوجتي بعدما قبضت ثلاثمئة
 وخمسين ألف ليرة، على الأقل أشتري لها فروجة مشوية، من سنتين ما
 اشتريت فروجة.

*

ويسأله البائع:

- وهل أضع لك معها قنينة كولا؟
- نعم كولا سوداء، وقنينة لبن رائب، عيران.

*

يضع المفتاح في الباب، ويدخل.
تسرع إليه زوجته.

- أهلاً بالأستاذ المتقاعد، مبارك، أرجوك، لا تلهث من صعود الدرج، أنت معتاد عليه، هذا أول يوم في التقاعد.
- يناولها الكيس.
- والله، شملت رائحة الفروج المشوي، وأنت في الطابق الأول، حسبت الرائحة من شقة الجيران أمامنا.
- تسرع إلى المطبخ، تفتح الكيس.
- أوه، ما هذا؟ فروجة محمرة كاملة، ومعها بطاطا مقلية، وكريم ثوم، وقنينة كولا، وقنينة عيران رائب، الله يرزقك، بيدوقبضت الرواتب والتعويضات.
- نعم، قبضت ثلاثمئة وخمسين ألف ليرة وخمسمئة ليرة.
- يصمت.
- وغامرت وركبت سيارة تكسي، من العبارة إلى البيت، قلت للسائق الأشرفية، الدوار الثاني، احزري كم طلب؟
- عشرة آلاف.
- طلب خمسة وعشرين ألف ليرة، ثم رضي بعشرين ألف ليرة، توبة إلى الله، هذه آخر مرة أركب فيها سيارة أجرة، أنا ركبت سيارة أجرة من أجل الفروجة المشوية، حتى أصل إلى البيت وهي ساخنة.
- الله يرزقك، ويعوض عليك.
- وكم ثمن الفروجة، من سنتين ماذقنا الفروجة المشوية الجاهزة من السوق.
- لا تسألني.

- بالله عليك، قل لي.

- رأيت الفروجيات محمرة، وهي تلتمع وتتألق في داخل الشؤااية،
وتتقلب في السيخ أمام النار، وقفت، أنتظر دوري، أكثر من عشرة كانوا
أمامي، ما سألت عن السعر، توقعت بخمسة وعشرين ألف ليرة.
وتكلم أم أحمد:

- يا رجل، هل نسيت؟ الفروجة النيئة الصغيرة بخمسة وثلاثين
ألف ليرة.

- على كل حال هذه آخر مرة في حياتي أشتري فيها الفروج المشوي.
- سنتناوله مئة مرة، لكن نشويه في البيت، هو أوفر، بالله عليك
قل لي كم ثمنها؟ أوه، مبارك النظارة الجديدة، بالهنا، رائعة. من زمان كان
عليك شراء نظارة جديدة، أربع سنوات، وأنت تعمل في التوجيه، بالهنا،
كم ثمنها؟

- سأحدثك أولاً عن الكولا، اشتيتها، ومن زمان ما اشتريت كولا،
توقعت ثلاثة آلاف، فوجئت، ثمنها سبعة آلاف، فكرت في الاعتذار للبائع
عن شرائها، لكن خجلت.

- والفروجة؟ والنظارة؟

- اصبري، واحدة واحدة، الفروجة أو النظارة.

- النظارة، أولاً.

- بخمسة وأربعين ألف ليرة.

- ياه، غير معقول، أقصد الفروجة، لا النظارة، والله ندمت بعد
شرائها، كنت سأشتري لك صندويشة فلافل، لكن قلت لنفسني، هذه

مناسبة لا تتكرر، لن أقبض كل يوم ثلاثمائة وخمسين ألف ليرة، لذلك اشتريت الفروجة.

- الفروجة لا تلغي صندويشة الفلافل.

- بكره نزل نشترى صندويشَيَّ فلافل، ونقعد في الحديقة العامة،

والله ندمت، يا ريت ما اشتريت الفروجة.

- ولا يهملك، سأصنع فورًا من أجنحة الدجاجة صندويشات،

وبكره أطبخ على صدر الدجاجة الملوخية، وأخبي الفخذين إلى وقت آخر،

ستكفيني الدجاجة عشرة أيام، وبعدها نزل إلى الحديقة، ونتناول

الفلافل، وبكم اشتريت النظارة؟

- احزري.

- إذا كان الفروجة بخمسة وأربعين فالنظارة مثلها.

- لا، أقل.

- بأربعين.

- أقل.

- لا أعرف، المهم حلوة، وضرورية، ولا يغلى عليك شيء، بالهنا،

ولتكن بمليون.

- بأربعة آلاف.

- لا أصدق، عتيقة؟ مستعملة؟

- والله جديدة، ولها كيس نايلون يحفظها.

- وكيف هذا؟

- صناعة صينية، مثلها تمامًا صناعة يابانية بستين ألف ليرة.

- والله كنت سأقول لك اشتري واحدة مثلها، لكن سكّتُ، خفت،
توقعت ثمنها أكثر من عشرين ألف ليرة، ما دامت بأربعة آلاف، اشتري
واحدة.

- ما شاء الله، عيونك جوهرة، ما هي بحاجة إلى نظارة، أنت أصغر
مني بعشر سنين.

- أحس بحاجة إليها.

ذيل التقاعد أملس

يوم آخر جديد من أيام تشرين، أواخر الخريف، يترجح بين البرد
والدفء، بين الغيم والصحو.

يوم جديد من أيام المتقاعد.

الشمس تسطع حيناً من خلال الغيوم، فتنسب حبيّة خجولة،
لتكسو الكون بهجة، وتحجبها الغمامات الداكنة حيناً، وينسكب المطر،
فيغسل الكون كله، ثم تسطع الشمس فيتألق الكون.

ينزلان معاً إلى ساحة سعد الله الجابري، ويتجهان إلى الرصيف
الذي كان يقف فيه بائع النظارات، بجوار مكتبة الأصمعي، هو نفسه على
الرصيف، وأمامه مجموعة من النظارات فوق قطعة من القماش على
الأرض.

تنتقي زوجته نظارة. يناولها البائع قصاصة ورق، فيها كتابات بحروف من حجوم مختلفة. تجرب نظارة أخرى، ثم تستقر على واحدة، بيضاء شفافة.

- كم ثمن هذه النظارة؟

- خمسة آلاف.

- منذ يومين، أو ثلاثة، أنت نفسك قلت لي ثمنها أربعة آلاف، وهذه النظارة على عيني، اشتريتها من زميل لك، أمام جامع الصديق بأربعة آلاف، سأذهب إليه لأشترها بأربعة آلاف.

- تذكرتك، من أسبوع، مثل هذا اليوم، الخميس، أنا لا أنسى، وتذكر أنت ماذا قلت لك أنا؟

- ماذا قلت لي؟ نسيت.

- قلت لك اليوم بأربعة آلاف، وبكره بخمسة، والآن أقول لك، بكره بستة آلاف، ودور في أسواق حلب كلها، إذا واحد باعك نظارة بأقل من خمسة آلاف سأعطيك مليون ليرة.

- حسبي الله ونعم الوكيل، ماذا جرى في الدنيا؟!

- حرب وغلاء وأزمة مازوت وبنزين ومواصلات، كان الدولار بـستة آلاف، الدولار اليوم بستة وخمسمئة.

- لكن أنت اشتريتها لما كان الدولار بثلاثة آلاف، وحتى بألف.

- وإذا أنا بعته اليوم بسعر يوم أمس، ورحت أشتري غيرها، سأشتريها بالسعر الجديد، أبيع بالغالي، واشتري بالأغلى، وأضطر لرفع السعر، ماذا أفعل؟

تلكزه زوجته بكتفها، وتقول له:
- ما عدت أريد النظارة، بالنسبة لي غير ضرورية، بخمسة آلاف
نشتري صندويشتي فلافل.
الزوج يدفع ثمن النظارة، ويمضيان معاً.

*

يمران ببائع الفلافل على العربية في ساحة سعد الله الجابري.
- صندويشة بألفين وخمسمئة.
يلتفت إلى البائع، ويقول له:
- من يومين كنت تبيعها بألفين.
البائع يضحك:
- يا عمي، نحن أولاد اليوم، لا أولاد أمس، كيلو الحمص صار بستة
آلاف، وليترزيت دوار الشمس بعشرين ألف ليرة.
تقول له زوجته:
- تعال، نرجع إلى البيت.

*

يمسك يدها، ويمضيان إلى شارع بارون، يشتري صندويشتين، من
محل فلافل الفيحاء.
- بكم الصندويشة، هنا.
- لا تسألني.

- إذا حكيت للجيران، وقلت لهم زوجي اشترى لي صندويشة فلافل من محل الفيحاء، وسألوني بكم الصندويشة، ماذا سأقول لهم؟
- قولي لهم بعشرة آلاف.
- غير معقول.
- طبعاً، السؤال سيكون بعد يومين أو ثلاثة، ويكون سعر الصندويشة صار عشرة آلاف.
- بالله عليك قل لي؟
- بثلاثة آلاف.

*

ويمضيان نحو الحديقة العامة.

أغصان الأشجار العارية في الحديقة غسلها المطر، لونها البني الباهت أصبح لامعاً متألّفاً، يسيران في ممرات بين مساحات من العشب المصفر، تناثرت فوقه أوراق الأشجار، صفراء وحمراء وبنفسجية داكنة، موجات من الأنغام الخريفية.

في ركن منعزل في عمق الحديقة، يتخذان مكانهما على مقعد خشبي، ويأخذان في قضم صندويشة الفلافل، مستمتعين بالطحينة وقد طلب من البائع مضاعفة كمياتها، ودفع له ألف ليرة زيادة، ووضع في كيس صغير عددًا من المخللات وقرون الفليفلة الحمراء الصغيرة الحادة، التي يحبها كثيرًا. تستل الزوجة منديلا ورقياً من حقيبة يدها وتمسح الطحينة التي سقطت قطرات منها على سترته.

وينهضان يتمشيان في الحديقة.

*

- سأحكي لك عن حلم رأيته الليلة الماضية.

- أحلامك كثيرة، وتذكرها ولا تنساها.

- وأنت أحلامك كثيرة.

- لكن لا أتذكرها، ماذا رأيته؟

- رأيته نفسي في المقعد الأول في حافلة حديثة، على وشك الانطلاق،

وشباب وصبايا يصعدون فيها، ولكن فجأة، لا أعرف كيف، بدأ شيوخ

وعجائز يصعدون فيها، ثم انتهت وإذا الحافلة نفسها قديمة، تقريباً

محطمة، ثم صعد سائق كهل، وأدار المحرك، فأخذت الحافلة ترتعد وتهتز،

فقمت ونزلت منها، وأنا أحس بالضيق، واستيقظت وأنا أحس كأن حجارة

فوق صدري.

- هذا من البرد.

- ربما عندي مرض في القلب.

- من الضروري مراجعة العيادة القلبية، وإجراء تخطيط.

- هل عندك تفسير لهذا الحلم؟

- لا، لا تتذكره، حلم مزعج، حاول النسيان.

*

وهما يسيران معاً، يمسك يدها تارة، حين لا يكون أمامهما أحد،

ويتركها حين يرى أناساً قادمين نحوهما. لعل في هؤلاء من هو زميل له في

التدريس، وهل يليق بمن بلغ الستين، وهو متقاعد، الإمساك بيد زوجته

وقد تجاوزت هي أيضاً الخمسين.

*

ما أجمل حلب، وما أجمل حديقته، في العالم كله لا يوجد حديقة أجمل منها. لكن لا شك يوجد، قرأت عن حدائق كثيرة، ورأيت صورها، لكن تبقى حديقة حلب الأجمل، أو الأحب إلى القلب.

*

- ما رأيك؟ خذي هاتفي الجوال، والتقطي لنا معاً صورة سلفي، وتذكري أيام الخطبة، عندما اقترب منا مصور، وعرض علينا التقاط صورة، وبعد يومين ذهبنا إلى الاستديو، وأخذنا نسختين من الصورة.

- ما عدت أحب الصور، تؤلمني الذكرى.

- نلتقط الصورة ونرسلها إلى الأولاد.

- هذا يؤلمني أكثر، حتى صورهم المرسلة عبر الواتس لا أحياها، مؤلمة، فرق كبير، بين صورة وحقيقة.

- أشتي لو كانوا معنا الآن، هنا في حلب.

- أبو أحمد، أنت فتقت جروحي.

- سامحيني، يا أم أحمد، هذه نتائج الحرب، لسنا وحدنا، ما من أسرة إلا هاجر على الأقل بعض أولادها، كلنا ذقنا لوعة الحرب.

- ما عدت أهناً بعدهم بشيء.

*

في أحد الممرات بين أشجار كثيفة يلتقيان ابن عم زوجته، أبو عمار، يستوقفهما محيئاً، يتبادل الثلاثة التحية، فجأة يقول لهما:

- بالهنا، استمتعتم بالفلافل، فلافل الفيحاء مشهورة.

يضحكان، وتسأل الزوجة ابن عمها:

- وكيف عرفت؟

- واضح، على جاكيت الأستاذ وحيد بقعة طحينة لم تجف بعد،

وفي زاوية فمك أنت أثر من الطحينة.

ويصمت، ثم يضيف:

- بالصحة، والهناء، الله يحميكم، ويصلحكم، كيف اشتهيتم

الفلافل في هذا الوقت؟ نسيتم انتشار الكورونا والكوليرا، أنا ذاهب الآن

إلى مشفى الرازي للاطمئنان على صحة ابن أختي سمير، ابن ابنة عمك

باهرة، إذا عندك وقت مري أنت والأستاذ وحيد بمشفى الرازي،

للاطمئنان عليه، قبل يومين تناول من السوق صندويشة فلافل، خلال

أربع وعشرين ساعة نقل إلى المستشفى، إسهال وقيء، وارتفاع في الحرارة،

لا نعرف هل هي الكورونا أو الكوليرا أو التسمم، الله يحميكم.

يودعهم ويمضي.

*

هو عرف أننا تناولنا الفلافل، هل كان من الضروري إخبارنا بمرض

ابن ابنة عمه؟ ابن ابنة أخته، سمير سميرة، لا أعرف، وبسبب الفلافل،

عكّر علينا مزاجنا، حسبي الله ونعم الوكيل، ما هذا الذوق؟

*

والله شغل بالي عند ابن ابنة عمي، من الواجب زيارته والاطمئنان

عليه، على الأقل بالهاتف، الله يحمينا، وشغل بالي، أخشى إصابتنا مثله

بالكورونا أو الكوليرا، الله يشفيه، ويحمينا.

*

الغيوم تغطي الشمس، تهب الريح، تدور أمامهم زوبعة صغيرة،
دوامة الريح، تحمل بعض الأوراق، ويثور الغبار.
ويسرعان إلى المقصف الشتوي، مقصف زجاجي دائري، الجو في
الداخل دافئ، يقعدان إلى منصدة بجوار النافذة، وسرعان ما يقع
الرعد وينسكب المطر، ليسج على الزجاج، خيوط المطر غلالة بيضاء
رقيقة تكاد تحجب الرؤية. ويعم الفضاء دكنة قاتمة، ويلتمع البرق.
ويحضر النادل، فيطلب منه كأسين من الشاي.
فيروز تبوح بوجودها في نغم خريفي حزين:

من يوم تغربنا وقلبي عم بيلم جراح
يا ريتا بتخلص هالغربة تا قلبي يرتاح
يا ريت منرجع نتلاقى وتفرح فينا الدار
وقلوب اللي كانت مش تاقاة لا تحن ولا تغار
يا نار الفرقة الحراقاة شوقسي تي يا نار

أصعب من إيام الفرقة من الليلات السود
إنك ترجع لا في ملقى ولا حب وعود
غير الماضي إلي ما بيبقى يا ريتو بيعود

يلمح زوجته، وهي تمسح دموعها.
- أم أحمد، الله يرضى عليك، ارحمي نفسك.

- هل سمعت فيروز؟
- نعم، سمعت، والله، هذه أول مرة أسمع هذه الأغنية، أرجوك،
جننا نستمتع.
يهم بالنهوض.
- إلى أين؟
- سأطلب من مدير المطعم وضع أغاني صباح فخري
- لا، لا تطلب منه أي شيء، أنت تحب فيروز.
- وأنت كفاية بكاء.
- أنا لا أبكي، دموعي تنزل، ماذا أفعل؟
- اسمعي النغم الجديد، هذا الكلام حلو.

أنت وأنا عم يسألونا كيف
منضّل شو بيحلالنا نغني

ما بيلتقى مرات عنا رغيف
ومنعيش بأطيب من الجّتي

في لنا يا حب خيمي عالجبيل
ناطرة تانزورها بليلة غزل

راكعة الغيمات عند حدودها وتاركي النجمات عاسطحها قبل

- هل سمعت، الحمد لله، يا أم أحمد، لنا بيت من حجر، ولو بالأجرة، نحن في خير ونعمة، تذكري الناس النازحين في الخيم.
- صدقت، لنا بيتٌ على رأس الجبل، في حي الأشرفية، وهو في الطابق الرابع، وأولادنا في بلاد الغربية، لا نعرف على رأس أي جبل. وتهمر دموعها.
- أم أحمد، امسحي دموعك، وانظري هناك إلى الشبان الملتفين حول المدفأة، في وسط المقصف.
- تلتفت، تنظر.
- ما هذه المناظر المزعجة، شتاء وبرد، وينطال كل واحد منهم ممزقٌ عند الركبة، وأطراف البنطال خيوط متناثرة، وواحد لحيته سوداء طويلة، وحلق شعر رأسه على الصفر، والثاني ربط شعر رأسه إلى قفاه مثل البنات، والثالث، والرابع، ما هذا يا أبو أحمد؟
- تمسح دموعها، وتضحك.
- كفاية، لا تنظري إليهم أكثر، كل إنسان حريماً يفعل.
- وهل تسمي هذه الأشكال حرية؟
- هذا هو ذوقهم.
- ذوق فاسد.

- اتركهم وشأنهم، استمتعي بمنظر المطر المنسكب على الزجاج،
وابقي مع فيروز، اسمعي أغنيتهما ما أحلاها.
ويحضر إليهم النادل إبريق شاي فضي اللون، وكأسين، وعلبة
سكر، ومناديل ورقية، وزجاجة ماء.
ويعبق في الجوشدى الشاي مع الزنجبيل.
- أنا مزاجي يا أم أحمد خريفي، أحب الخريف، أحس كأنه خاص،
الربيع كل الناس تبتهج به، الخريف له خصوصيته.

*

ويرن هاتفه الجوال.
- أهلا حواس.
- هل وصلتك الدعوة عبر الواتس، أصبحت رسائل الواتس تعتبر
دعوة رسمية.
- أي دعوة؟ قلت لك بلغ سلامي إلى صديقي مدير التربية، وقل له
أعتذر عن التكريم، لا أريد حفل تكريم بمناسبة إحالتي على التقاعد،
قلت لك هذا من قبل، لماذا لم تبلغه؟
وتسأله زوجته:
- ولماذا تعتذر، المدير أراد تكريمك.
وتسمع كلام حواس في الهاتف الجوال عبر مكبر الصوت:
- يا أستاذ، الموضوع يختلف مئة وثمانين درجة، ليست مسألة
تكريم، المسألة أصبحت مسألة تحقيق، أنت ستحال إلى لجنة تحقيق.
- لجنة تحقيق؟

- نعم.
- لكن أنا بريء الذمة، ولم أسرق، ولم أنهب.
- مسألة رشوة، علىَّ واجب تبليغك، والاجتماع معك، لأوضح لك الأمور، أين أنت الآن؟ سوف آتي إليك فوراً، أنا بخدمتك.
- تفضل بزيارتي في البيت مساء.
- الأمر مستعجل، يجب تدبر الأمر، والعمل بسرعة، نحن في يوم الخميس ٢٥ تشرين الثاني، جلسة التحقيق يوم الإثنين القادم ٢٩ تشرين الثاني الساعة الثانية عشرة.
- أنا في المقصف الشتوي في الحديقة العامة.
- عشر دقائق وأكون عندك.
- ترتعش أنامل زوجته، يصبح لونها أصفر.
- رشوة، وتحقيق، أنت استقلت، تقاعدت، وانتهى الأمر.
- لا تقلقي.
- ومدير التربية صديقك.
- خذي التاكسي واسبقيني إلى البيت.
- لا يمكن تركك وحدك، أريد الاطمئنان.

*

- ويصل حواس، مبللاً بالمطر، يطلب له فنجان قهوة.
- ويعرض على زوجته فنجان قهوة.
- كأس الشاي ما أنهيتها، ما عدت أشتهي القهوة ولا الشاي، جسي كله متوتر.

ويتكلم حواس.

- الإثنين، بعد أربعة أيام، الساعة الثانية عشرة تصل لجنة تحقيق من هيئة الرقابة والتفتيش إلى مديرية التربية، تضم خمسة أعضاء، واحد منهم يمثل نقابة المعلمين، والثاني من كبار المحامين المحترمين، والبقية من هيئة الرقابة والتفتيش في حلب، الأمر عادي جداً، أرجو أخذه بكل بساطة، والتعامل معهم بكل مودة.

وتسأل الزوجة:

- كيف يدعوه المدير إلى التحقيق، وهو صديقه، وما مر على

تقاعده غير يومين؟!

ويتكلم وهو يضحك:

- يا خالتي أم أحمد، الحقيقة مر أسبوع كامل، نحن في يوم الخميس ٢٥ تشرين الثاني، عشرة أيام أو خمسة، هذا كله غير مهم، لا تقلقي، التحقيق عادي، والمدير صديق، ونعم الصديق، هو ما تخلي عن الأستاذ وحيد، واللجنة نفسها ستحقق مع المدير.

وتسأل الزوجة.

- وما هي التهمة؟

- لا أعرف بالضبط، لكنها تتعلق بالرشوة.

ويسأل الأستاذ وحيد:

- ومن كتب التقرير؟

- لا يحمل أي اسم، الرقابة نفسها لا تعرفه.

- وكيف تأخذ الرقابة بتقرير من مجهول؟

- لا أعرف.

يضحك الأستاذ وحيد، ويعلق:

- الأمر حقيقة سخيف، وأنا على الاستعداد للحضور أمام لجنة التحقيق.

الزوجة تعلق:

- هل هذه مكافأة من يخدم الناس ويساعدهم؟

ثم تتوجه إلى زوجها بالسؤال:

- هل أسأت إلى أحد، في السنوات الأربع الأخيرة، أثناء عملك في التوجيه؟

الزوج يتكلم:

- أعرف نفسي لم أسئ إلى أحد، أسألي حواس.

حواس يتكلم:

- اطمئني يا خالتي، الأستاذ وحيد سَمِعْتُهُ مثل المسك.

الزوجة تسأل:

- هل يوجد مَنْ له مصلحة في الإساءة إليك، أو إيدائك؟

الزوج يتكلم:

- لا أعرف أي شخص له مصلحة، وخاصة بعد إحالتي على

التقاعد، لو كنت على رأس عملي، ولو كنت من المرشحين مثلاً لمديرية التربية، كان من المؤكد وجود من ينافسني، ويريد إيدائي.

*

أنت طيب، ولا تعرف، هي تهمة مدبرة، هناك من يستفيد من اتهامك،
هكذا أنت، دائما طيب، عشت معك أربعين سنة، وعرفتك، تظن جميع
الناس أصدقاء لك، وطبعك غالب، مهما حاولت إقناعك فلا فائدة، لن
تقتنع.

*

ويعلو صراخ الشباب الخمسة، وتتشابك الأيدي، وتترامى
الصحون والفناجين والأطباق، ويتناثر على الأرض حطام الزجاج.
زوجة الأستاذ وحيد تضطرب، وتقول لزوجها:
- هيا، لنهض، ونخرج، أنا خائفة.

ويتكلم حواس:

- خالتي أم أحمد، لا تخافي، شباب أكلوا وشربوا، وافتعلوا
الشجار، حتى يتدخل مدير المقصف، ويسامحهم، في ثمن كل ما أكلوا
وشربوا، وحتى في ثمن ما حطموا.
وتعلق:

- هذه نتيجة الفقر والبطالة والغلاء، لكن هذا أسلوب غير
مناسب.

- يا خالتي، الفقير والعاطل عن العمل لا يفعل هذا، هؤلاء صُيَّاع،
انظري إلى هذا الشاب الأصلع صاحب اللحية السوداء الطويلة، آه، لو
عرفت من هو والده.
- من والده؟

- والده الحاج عبد الله، من أكبر تجار البناء في حلب، وهو رجل تقوى وصلاح، وصاحب جود وكرم، وأخلاق عالية، لكن ابنه، عمر، وخسارة هذا الاسم فيه، ولد صبايع، دائما يصنع له المشاكل.

ويعلق الأستاذ وحيد:

- كان الله في عون صاحب المقصف، سيتحمل الخسارة.

ويتكلم حواس:

- لا، انظر، أستاذ وحيد، الولد الصبايع راح إلى صندوق المحاسبة، انظر، انظر، أخرج رزمة نقود وبدأ يعد، هل سمعت ماذا قال؟

- والله ما سمعت، أو سمعت، وما فهمت.

- قال: قل لمعلمك، صاحب المقصف، أنا على استعداد لشراء المقصف وشراء معلمك، وسلم لي عليه.

وتسأل الزوجة:

- من الضروري محاسبة هذا الولد.

- اطمئني خالتي، في المقصف أربع كاميرات تصور كل شيء، وفي المقصف ثلاثة من عناصر الأمن، هناك، لا تلتفتي، في الزاوية.

- ولماذا لم يتدخلوا؟

- لو اقتضى الأمر كانوا تدخلوا.

- وصاحب المقصف؟

- لا تسألي، صاحب المقصف لا يعرف ماذا يجري، عنده ثلاثة مطاعم، وخمسة مقاصف صغيرة، هو سَلَمَ المقصف لموظف يدير الأمور، وتصل إليه الأرباح صافية.

*

ويشير حواس إلى النادل، فيحضر:
- أمرك أستاذ؟

- ما قصة عمر ابن الحاج عبد الله؟

- قبل يومين أو ثلاثة، جاء، وقعد في نفس المكان، ومعه صبية، شكلها غير مريح، وطلب الشاي والأركيلة، والصندويش، والقهوة، وكانت الصبية قاعدة أمامه، والمقصف مليان بالزبائن، لكن فجأة، انتقلت الصبية وقعدت بجواره، ووضع يده حولها، ومال عليها، طبعًا هذا غير لائق، ويسيء إلى سُمعة المقصف، ونزل المدير وحكى معه كلمتين بلطف، لكن هذا الشاب نهض مستاء، وقال له: رح تشوف، وهذا ما فعله اليوم.
- والكاميرات صورت؟

- طبعًا، الكاميرات تصور كل شيء، وسوف ينال الولد الصايغ نصيبه.

- شكرا سليم.

حواس يستأذن، ويعتذر عن الإزعاج.

وقبل أن يخرج يضيف:

- عندما جئت كان المطر يهطل، والغيم يملأ السماء، لكن، لاحظوا، الآن أشرقت الشمس، وستظهر الحقيقة، مثل هذه الشمس، اطمئنوا، والأستاذ مدير التربية، يقدرك جدًا ويحترمك، ويعرفك حق المعرفة، اطمئن، وتفضل، هذا الظرف، افتحه في البيت اقرأه، فيه صورة عن تقرير أرسله أمس إلى هيئة الرقابة والتفتيش، وهو يهديك السلام، وهو

طلب مني الاتصال بك، ومقابلتك فورًا، وأنا راجع إلى المديرية مباشرة.
هل تريد أي مساعدة؟
- شكرًا.

- هذا واجبي تجاه الطيبين من أمثالك، ولكن أرجو قبول ملاحظة
مني أنا، من أخ صغير لأخيه الكبير، ولو جاءت متأخرة.
- تفضل.

- طوال أربع سنوات من عملك في التوجيه، كانت علاقتك مع
المدير رسمية، لا يراك إلا في الاجتماعات، ما من مرة زرته وشربت عنده
فنجان قهوة، حتى الكتب والتقارير ترسلها إليه مع المراسل، لو ترى باقي
زملائك من التوجيه الابتدائي إلى التوجيه الاختصاصي، كل واحد منهم
يزوره في اليوم مرة ومرتين، ويشرب عنده قهوة، الدنيا علاقات.
- صدقت، هذه هي طبيعتي.

- وهو عرف فيك هذا، ويقدرك، ويحترمك، ولا يذكرك إلا بقوله:
صديقي الأستاذ وحيد، اطمئن، على كل حال، بعد انتهاء التحقيق،
مباشرة، لك عندي مفاجأة.
- ما هي.

- سأخبرك في وقتها، وربما قبل التحقيق، أمهلني فقط يومين.

*

وينهض، لكن ما يلبث أن يقعد.
- بالمناسبة، مدير هذا المقصف ينتهي عقده بعد شهرين، أو بعد
شهر، نحن الآن في أواخر تشرين، أي في أول العام القادم ٢٠٢٣، والكل

يتهافت على هذا العمل، هل تقبل العمل في موضعه؟ أنت مدير، مشرف، لا تتدخل في شيء، فقط، تراقب الأمور، وتستلم الغلة، كل يوم، وتودعها في البنك، وفي آخر الشهر تدفع للعمال رواتبهم، ما رأيك؟

الزوجة تسأل:

- وكم الراتب؟

- خمسمئة ألف في الشهر.

وتسأل:

- ومن يشتري المواد الأولية للمقصف، الشاي والسكر والبن والخبز

والصمن والجبنة.

- هذه كلها يوفرها متعهد، وصاحب المقصف كل شهر يحاسبه،

الأستاذ وحيد، عفوًا، قصدي المدير المشرف لا علاقة له بهذه الأمور.

- وإذا العمال سرقوا أو أكلوا وشربوا؟

- كل هذا محسوب سلفًا، أكلهم وشربهم كله على حساب

المقصف، وبعضهم ينام هنا في المقصف، ما عنده بيت، الحرب أكلت

بيوت كثير من الناس.

الأستاذ وحيد يتكلم:

- أشكرك، راتي التقاعدي، وراتب زوجتي التقاعدي، يكفيننا.

- أستاذ وحيد، هل تعرف، مدير المقصف صديقي، وهو مجاز مثلي

في الحقوق، وعمل مدة في تسيير المعاملات، ولكن رأى العمل هنا أفضل،

دوامه طويل، من الثامنة صباحًا إلى الثامنة مساءً، في الشتاء، إلى

العاشرة ليلاً في الصيف، ويأكل ويشرب القهوة والشاي والعصائر، كلها على حساب المقصف.

الأستاذ وحيد يتكلم:

- طبعاً، ظروف ما بعد الحرب ألجأت كثيرين إلى امتحان أي عمل كان.

- وسوف أزيدك به علماً، منذ شهرين ناقش رسالة الماجستير، عمله هنا ساعده على إنجاز الرسالة في سنة ونصف، وسوف يسجل رسالة دكتوراه، أنا معدي في التخرج كان ستين، لو كان معدي أكثر بخمس علامات، كنت تابعت الدراسات العليا، أفكر في تسجيل الماجستير في بيروت أو القاهرة.

- العمل شرف.

- على كل حال هناك موضوع آخر، السيدة سهيلة ستتصل بك، اليوم أو غداً، وربما الآن، ستقيم لك حفل تكريم، بالتشارك مع بعض الزميلات في المديرية، وهو حفل متواضع، إفطار صباح الجمعة، أو السبت، فول وفلافل وفتة، في مطعم سلاف، أمام حديقة السبيل، إفطار متواضع، لكنه رائع.

- أرجوك بلغها اعتذاري، وأرجو ألا تتصل بي.

- السيدة سهيلة تعزك وتقدرك، وهي لا تنسى فضلك، وإذا رفضت أنت ستحرمني الإفطار، طبعاً خالتي أم أحمد مدعوة، وهي موافقة. وتتكلم الزوجة:

- إذا الأستاذ وحيد وافق، فأنا موافقة.

- أنا متأكد سيوافق، من قبل رفض اقتراح المدير تكريمه، ولكن،
أنا أعرف لا يرد للسيدة سهيلة أي طلب.
وينهض حواس، وهو يقول:
- على كل حال، أستاذ وحيد، لك عندي مفاجأة، أمهلني فقط
يومين، ومسألة مدير المقصف هنا حقيقة، ولكن لا أريدها لك، أنت أرقى
وأكبر، واعتبرها مزحة. هناك فرص عمل أكثر، سأحدثك عنها.
يمضي حواس.

*

وتتكلم الزوجة:
- ليتنا ما خرجنا من البيت، تقاعدت، وما استرحنا، ما بقي في هذه
الدنيا أي شيء يسر القلب، هات افتح الظرف لنقرأ التقرير.
- نقرؤه في البيت.
- لا، سنقرؤه الآن.
يتقدم منهما النادل، ويقدم لهما فنجانين من القهوة، وعلبة
بسكويت بالشيكولاته.
يلتفت إليه الأستاذ وحيد:
- ولكن لم نطلب.
- هذه ضيافة من حواس.
يفتح الظرف ويشرعان معا في قراءة التقرير، وهما يرشفان
القهوة.

*

السيد مدير هيئة الرقابة والتفتيش المحترم
إشارة إلى كتابكم ذي الرقم / / والتاريخ / / والمتضمن
طلبكم دعوة الأستاذ وحيد الموجه الاختصاصي لمادة الجغرافيا،
للتحقيق معه بخصوص تهمة موجهة إليه تتعلق بأخذ رشوة، نود
إعلامكم بما يلي: المدرس الأستاذ وحيد من المدرسين الأكفاء، الجادين في
عملهم، والمخلصين، والمتميزين، تم تعيينه موجهاً اختصاصياً لمادة
الجغرافيا، بموجب القرار الوزاري ذي الرقم / / والتاريخ / /، وقد
أثبت جدارة وتميزاً، وكان يقوم بجولات يزور فيها المدرسين ويحضر
دروسهم، ويتصل بهم هاتفياً، وصنع لهم في الواثس صفحة خاصة بهم،
وعدددهم مئة مدرس ومدرسة، وحوالي عشرين من المكلفين، كان يتابعهم
واحداً واحداً، ويزورهم في مدارسهم المتنثرة في أحياء المدينة، وينتقل
بالحافلة، أو السرفيس، ولا ينتظر سيارة المديرية، وكان يسافر إلى الريف
القريب والبعيد أيضاً على نفقته، ولا ينتظر سيارة المديرية الخاصة بنقل
الموجهين الاختصاصيين، وكان يأخذ إذن سفر، لتغطية سفره، من أجل
الطوارئ والحوادث، ولكن لا يقدمه لي للصرف، مع أن وضعه المادي دون
المتوسط، وأكد لكم، أن التقرير الذي وصلكم هو تقرير كيدي، وغامض،
ولم يحدد كاتب التقرير لماذا دفعت له الرشوة، ولا الغاية منها، وأنا
شخصياً مستعد للمثول أمام أي لجنة تحقيق قبل الأستاذ وحيد لأدلي
بشهادتي.

*

الزوجة تعلق:

- حقيقة، مدير التربية يحبك ويحترمك ويقدرك، متى تعرفت عليه؟

- هو في الأصل مدرس رياضيات، ولا أعرفه من قبل، تعرفت عليه بعد تكليفي في العمل في التوجيه، وعلاقتي به هي علاقة عمل فقط، وأظنك سمعت كلام حواس.

- تقرير عادل ومنصف، لكن، أنا في قناعتي، التقرير ضعيف، يجب اقتراح التحقيق مع صاحب التقرير وإيقاع العقوبة به، والمطالبة برد الاعتبار لك.

وتصمت، ثم تضيف:

- سأقول لك كلمة، يا أبو أحمد، هذه التهمة ملفقة، وهناك من كتب التقرير لمصلحته، أو مصلحة شخص آخر.
أبو أحمد يعلق:

- هذا كله لا يهمني، أعرف نفسي، أنا بريء، هيا، لنهض ونخرج من هذا المقصف المزعج.

- الآن فهمت الحلم، هو تعبير عن هذا المقصف، كنا مسرورين فيه، فانقلب كل شيء، وسوف نخرج منه مقهورين مستائين.
- ولكن، أنت، يا أم أحمد، ما كنت معي في الحلم، وما كنت معي في الحافلة؟

- وعندي تفسير آخر، هذه الحافلة هي مديرية التربية نفسها، كنت تحبها، وكنت أنت في عز الشباب، هي كبرت، وأنت هرمت، فخرجت منها، تقاعدت.

- ربما.

وينهضان، وتسبقه زوجته خارجة من المقصف.

*

يمضي إلى المحاسب، عند خروجه تسأله.

- كم دفعت؟

- أرجوك، لا تسألني.

- للمعرفة، لا أكثر، لن نأتي كل يوم.

- ألف ليرة.

- لا تمزح، غير معقول.

- والله، لم أدفع غير ألف ليرة.

- فهمت، الألف بخشيش للكرسون، وثمان القهوة والشاي؟

- دفعها حواس قبل خروجه.

- ولماذا يدفعها حواس؟

- أتوقع، مدير التربية هو أوصاه.

- وكم ثمن فنجان القهوة؟ سأدعوك غدًا، وأدعوزميلاتي بمناسبة

إحالتك على التقاعد.

- لا أعرف.

- أنا أتوقع بألفين وخمسمئة ليرة.

- لا، أظن بثلاثة آلاف.

وتدخل وتسأل، وترجع، وهي تضحك:

- بخمسة آلاف الفنجان.

- وهل سألته عن زجاجة الماء وصندوق المناديل.
- هذه من متممات القهوة، ونحن ما شربنا الماء، ولا استعملنا
المناديل.

- المناديل بخمسة آلاف، ومثلها زجاجة الماء.
- والبخشيش بألف، يا إلهي، أنا سأدعوك كل يوم، لكن إلى قهوتي،
في المطبخ بخمس ليرات، وسأضع لك زجاجة ماء من الحنفية، وعلبة
مناديل مجاناً.

- أي خمس ليرات؟ أم أحمد، قهوتك أغلى ألف مرة.
- لا تبالغ، كيلو البن بأربعين ألف ليرة، والممتاز بخمسين، وأنا
أعرف، أنت تشتري البن بأربعين، ومن غير هال.
- والله قهوتك أغلى ألف مرة.
- لا أصدق، أغلى نوع بخمسين ألف ليرة، ولا أظن وجود نوع أغلى.
- القهوة من يدك وبأنفاسك ومعك في شرفتنا الصغيرة، هي
الأغلى.

- من كل قلبك يا أبو أحمد؟

*

ويرن الهاتف الجوال:
- أهلاً بالسيدة سهيلة.
- يسرني دعوتك إلى حفل تكريم ستشارك فيه بعض الزميلات
والزملاء.
- أشكرك، وأرجو قبول اعتذاري.

- أرجو قبول الدعوة، الدعوة حفل شخصي خاص، حفل متواضع، نتناول الإفطار يوم الجمعة أو يوم السبت، في مطعم سلاف.
- نؤجله إلى ما بعد التحقيق، قد أدخل السجن، أو تُعلّق مشنقتي.
- لا سمح الله، ماذا فعلت بعد التقاعد؟
- يضحك يعلق:
- قبل التقاعد لا بعده، قبل التقاعد متهم بأخذ رشوة.
- لا أصدق، أنت تمزح.
- أسألي حواس، سيشرح لك كل شيء.

*

تغيب الشمس خلف غمامات سود، تلتمع شرارات البرق، ويهدر الرعد مزيجاً، منبئاً بسيول جارفة.

- تعالي نسرع إلى البيت.

- لا، لن نذهب إلى البيت، سنقف هنا تحت المطر، تحت البرق، من هي سهيلة؟ ولماذا تتصل بك؟ وما هذا الترحيب الحار؟ والآن تذكرت، قال حواس: هي تعزك، وقال: أنت لا ترد لها أي طلب، من هي سهيلة؟

- أرجوك، طولي بالك، خذيني بحلمك، أنت سمعت كلام حواس، وسمعت كلامي معها، المرأة كانت معلمة في المرحلة الابتدائية، مدرستها في حي سيف الدولة، وبيتها في حي الجميلية، بين بيتها وبين المديرية مشي عشرين دقائق على الأقدام، كان راتبها يذهب كله أجرة مواصلات، وتكلمت هي مع حواس من أجل نقلها إلى عمل إداري في المديرية، وحواس طلب مني التوصية بها عند المدير.

- وأنت أوصيت بها عند المدير ، لكي ينقلها من التدريس إلى العمل الإداري، لتكون بقربك معك، في المديرية، من حقهم اتهامك بالرشوة.
- حتى أنت، يا أم أحمد، وبعد هذا العمر من الحب والثقة!
- وهل هي متزوجة؟
- متزوجة، وعندها أولاد، وزوجها حي يرزق، على قيد الحياة.
- ماذا يعمل زوجها؟
- والله لا أعرف.
- فهمت، لكن قلبي لا يطمئن.
- اطمئني، المطرب بدأ يهطل، تعالي نقف تحت هذه الشجرة.
- أحسنت الاختيار، شجرة سرو جذعها يابس، عمرها مئة سنة، ستضربها الصاعقة وتنزل فوقنا.
- لا، لا، سنقف هناك تحت شجرة الدلب، ورقها عريض، ستحمينا من المطر، عشرين دقائق وينقطع المطر، هذا مطر تشرين، غزير، لكن ينقطع بسرعة.

*

- يفتح الهاتف الجوال، يضعه في حالة الطيران، تسأله بانفعال:
- بمن سوف تتصل الآن؟
- لا أحد، وضعته في حالة الطيران.
- ولماذا؟ هل تتوقع أي اتصال من سهيلة رقم ٢، حتما عندك سهيلة ثانية وثالثة، طبعاً، تقاعدت، وصار عندك فراغ، وما مر على تقاعدك غير أسبوع.

- لا، لا، لا أريد أي اتصال، ولا أتوقع أي اتصال، أغلقت الجوال حتى لا يعكر علينا أحد الجو.
- والله الجو معكر، وأماننا غيمة كبيرة، والظاهر سيجرفنا السيل.
- لا، أم أحمد، انظري، الشمس هناك، تطل من بين الغيوم، انظري إلى قوس قزح، يمنح الأرض البهجة والسرور.
- وكيف سنرجع الآن إلى البيت؟
- بالتكسي، لا يمكن انتظار الباص ولا السيرفيس، في النزلة إلى البلد أمضينا ساعة ونصف الساعة، حتى استطعنا في النهاية الاتفاق مع أربعة ركاب، وأخذنا معاً سيارة أجرة، ودفع كل واحد أربعة آلاف، وانحشرنا في المقعد الخلفي أربعة، وانحشربجانب السائق راكبان، صارت توصيلته أربعة وعشرين ألف ليرة.
- ما بقي في القلب رحمة، الله لا يوفقه ولا يرزقه.
- لا يا أم أحمد، الله يوفقه ويوفقنا جميعاً، ويفرّج عن العباد، الحق معه، لا تلوميه ولا تعتبي عليه، ليتر البزين صار في السوق السوداء بعشرة آلاف ليرة، وأكثر.
- ما رأيك نرجع إلى البيت مشياً على الأقدام؟
- من الحديقة العامة إلى الأشرفية؟ أماننا مشي ساعة.
- نمشي، نروّح عن أنفسنا.
- وإذا صبت علينا غيمة أمطارها، تشرين مثل نيسان، ما فيه أمان، ساعة صحو وساعة غيم.
- نسترجع أيام الشباب لما كنا نمشي تحت المطر.

- أنا مو افق، نخرج من باب الحديقة من جهة محطة بغداد للقطار، ونمشي تحت الجسر، نمر بشارع الزهور، وأمام نادي الحرية، لا بأس، هيا، في نصف ساعة نصل.

*

أم أحمد تقف، تضع يدها على بطنها، وتثني جذعها، وتتأوه:
- أنا أحس بالألم في أمعائي، أصابتني الكوليرا، لن أذوق بعد اليوم الفلافل من السوق، ما رأيك نمر بمستشفى الرازي، ونزور سميرابن ابنة عمي، ونطمئن عليه، وأجري تحليل الدم، لأطمئن.
- لا يا أم أحمد، اطمئي، أنت انزعجت من قصة التحقيق، وتهيج معك الكولون، والمشي سوف يريحك من التهيج، والطريق من جهة مشفى الرازي ثم شارع فيصل طويل ويأخذ أكثر من ساعة.
- والله ما أزعجتني إلا سهيلة.
- انسيها أرجوك، والآن اتصلي بابنة عمك سهيلة.

تقف، تحديق فيه، وتقول معاتبة:
- أوه، ابنة عمي سهيلة؟ ماذا جرى؟ ابنة عمي اسمها سميرة، سهيلة أخذت عقلك، اسمها على لسانك، اتصل بها الآن واذهب إلى بيتها في الجميلية، قريب، وأنا سأذهب إلى المستشفى، سهيلة أخذتني منك، أخذتك مني، ما عدت أعرف أحكي، الله يأخذها.

*

ويخف المطر، يسقط رذاذا ناعمًا، يسيران معا نحو البيت، وهو
يمسك بيدها ويضغط عليها. يده الأخرى في جيب الجاكيت تقبض على
التقرير، يود لو يخرججه ليعيد قراءته مرة ثانية.

يخرجان من باب الحديقة العامة باتجاه محطة بغداد

- من هذا حواس؟ وما هذا الاسم؟ أنا بصراحة ما أعجيني.

يفتعل الغضب:

- لن أذهب إلى البيت، اذهبي أنت، زعلت منك.

- لماذا؟

- قلت عن حواس ما أعجيني، هذا يعني عندك رغبة في الإعجاب

بالرجال.

- أقصد ما أحببته.

- ما شاء الله، الحب درجة أعلى من الإعجاب.

- لا تمسك الكلمة علي، أقصد ما اطمأن قلبي إليه.

- كيف لا أمسك الكلمة عليك، وأنت مدرسة اللغة العربية؟

- والله لا أقصد، نحن دائمًا نستعمل الألفاظ بمعناها العام، لا

بمعناها الدقيق، لو أردنا تخير الكلمات، لما استطعنا الكلام.

- كنت أمزح معك.

- لكن، ما قلت لي من هو حواس؟

- هو محامي المديرية، يمسك كل قضاياها، ويحل مشكلاتها مع

المدرسين والمعلمين والموظفين، والوزارة، علاقاته واسعة، ويحل مشاكل

الناس.

- وهذا اسمه، حواس، ما سمعت بهذا الاسم من قبل!
- حواس لقبه، نحن سميناه به، من فعل حاس يحوس، أي تحرك بين الناس وقضى حوائجهم.
- آه، فهمت، كانت جدتي الله يرحمها تقول: عندي اليوم حوسة، أي جلي الصحون، وتنظيف المنزل.
- وتصمت ثم تضيف:
- بصراحة، قلبي ما اطمأن إليه، أظنه هو كاتب التقرير.
- يضحك، يقهقه، يرد:
- لا يا امرأة، أحسني الظن في الناس، هذا مستحيل.
- على كل حال، لا تتعامل معه، وابق على حذر، منه، ومن سهيلة خانم، بنفسني أجمع معها، وأعرفها، وبالنسبة إلى التحقيق، متى تظهر نتائج؟
- لا أعرف، بعد شهر، بعد سنة، الله أعلم.
- وإذا ثبتت التهمة، ما هي العقوبة؟
- يمسك يدها، ويضغط عليها:
- العقوبة عقوبتان، لي ولك.
- ما عقوبتي وما عقوبتك، لم أفهم؟
- أنا الإعدام شتقًا حتى الموت، وأنت الحياة أرملة حتى الموت.

الوداع الأول

شمس شاحبة، وجو بارد، العاشر من كانون الأول، يوم السبت
يوم عطلة، الأستاذ وحيد وزوجته ينحدران في الطريق مشيًا على الأقدام
من الأشرافية إلى مطعم سلاف.

الأستاذ وحيد يتكلم:

- حذك اليوم جيد، الجودافى، الشمس ساطعة، ولو كانت صفراء
باهتة، والسماء ما فيها غير سحببات رقيقة عالية، لا أظنها ستمطر.
- يوم أمس الجمعة أمطرت السماء، وجرت السيول، ودائمًا بعد
المطر صحو.

- أرجو تناول الطعام على الرصيف، لا أحب تناوله داخل المطعم،
أتحسس من روائح الطعام ودخان السجائر.
تمسك يده، وتسأله:

- الليلة الماضية، شغلت بالي، أي حلم رأيت؟
- كابوس، أحسست كأني سأختنق، ناديتك، صرخت، سعاد،
سعاد، وأنت ما استيقظت.

- استيقظت، ما كنتَ تناديني، كنتَ تئن، وصوتك مخنوق.
- رأيت نفسي في سوق كبير وطويل، والسوق يعج بالناس، ولكن
بعد قليل اختفى الناس، وخيم الليل، بقيت وحدي، وصلت إلى آخر
السوق، كان هناك باب كبير مزخرف، فتحته، فانفتح على بهوفيه أبواب
كثيرة، اخترت بابًا، فتحته، فانفتح على باب أيضًا، وكلما فتحت بابًا انفتح

على باب آخر، ولا منفذ، شعرت بالضيق، صرت أنادي سعاد، سعاد، ثم ارتعدت، انتابتني رعدة، ونهضت.
- هذا من البرد.

- لا أظن من البرد، وعلى كل حال، البرد تأخر هذا العام، الحمد لله.

- علينا تركيب المدفأة، نحن اليوم في العاشر من كانون، كل سنة كنا نقوم بتركيب المدفأة في ١٥ كانون قبل دخول الشتاء.
- وهل عندنا مازوت؟

- لا، ما عندنا ولا ليتر مازوت، نشترى من السوق السوداء.
- الليتر بعشرة آلاف.

- نحرق في المدفأة بعض الكتب، ما رأيك؟
- مو افق، نحرق كتبك.

- لماذا كتبتي أنا؟ لماذا لا نحرق كتبك، جغرافيا العالم تغيرت، وما عاد لكتب الجغرافيا قيمة، لكن نحفظ بالخرائط، هي من رسمك، وتحمل اسمك.

- نحرق الخرائط أيضاً، كما قلت، جغرافيا العالم كله تغيرت، ونحرق بحوثي، للأسف بحوثي عن تغير المناخ، وارتفاع درجات الحرارة، وذوبان جبال الجليد، وارتفاع مستوى المياه في البحار، وتوقع غرق كثير من المدن الشاطئية في العالم، كلها بحوث لم يعد لها قيمة، سبقني علماء في الغرب إلى نشر بحوث مماثلة، نشروها باللغات الإنكليزية والألمانية

والفرنسية، وبحوثي أنا باللغة العربية، ولا مجال لنشرها حتى باللغة العربية، إمكانيات نشر بحوث من هذا النوع غير متاحة عندنا.

- لن نحرق البحوث ولا الخرائط، سيأتي يوم يعرف الناس قيمتها.

- يا أم أحمد، من لا يحقق نجاحه في حياته فلا قيمة لكل ما يتركه من بحوث، أرجوك، انسي هذا الموضوع، لا تثيري شجوني، هذا هو مطعم سلاف، وصلنا في الموعد تمامًا، الساعة الآن الحادية عشرة.

- كان علينا التأخر ولو عشر دقائق، يا أبو أحمد، هكذا الأصول في مجتمعنا.

- بالعكس، علينا الوصول قبل الجميع، لنستقبلهم.

أم أحمد تضحك.

- أنت طيب ومتواضع ومثالي، في مجتمع متخلف، كان علينا الوصول متأخرين، لينهضوا هم لاستقبالنا، هم أصحاب الدعوة، والدعوة لك، وعلى شرفك.

- لا يوجد فرق.

- لكن، هل تعرف أنا تعبت من المشي من بيتنا إلى سلاف.

- يا أم أحمد، نحن بحاجة إلى المشي، أنت طوال اليوم قاعدة في البيت، ولا تنسي، أرجوك، لا يوجد خط سيرفيس مباشرين الأشرفية ومطعم سلاف، ولا خط باص، لو عرفت صعوبة المشي عليك، كنت أوقفت سيارة تكسي.

- وهل بقي معنا شيء لسيارة التكسي؟

- على كل حال، وعد مني، سنرجع بسيارة التكسي.

- طبعاً، لا يمكن الرجوع مشياً على الأقدام، الطريق كله صعود.

- هذا هو حواس.

*

الموائد والكراسي البلاستيكية تمتد على الرصيف مقابل المطعم مباشرة، ألوانها المتنوعة مثل زهرات ذابلة تحت الشمس الشاحبة، وهي تطل على مساحات من المرج المصفر، تناثرت فوقه أوراق الأشجار، بعضها أصفر وبعضها أحمر، وبعضها الآخر بنفسي، سجادة رائعة من الألوان الشتائية، وليس ثمة وردة متفتحة، مجرد أغصان يابسة وأشواك، مقابل الرصيف اصطفت سيارات كثيرة، كل الموائد على الرصيف مشغولة بالرواد، كأنهم يريدون التزود بقليل من دفء الخريف الشاحب، قبل هجوم الشتاء.

- حقيقة يا أم أحمد إطلالة حلوة، انظري إلى مدخل حديقة السبيل، وتذكري أيام الخطبة.

- بعد الإفطار سنقعد في حديقة السبيل.

بين الموائد مائدة مستطيلة حولها عشرة كراسي، ينهض حواس، يرحب بهما.

- أهلاً بالأستاذ وحيد، أهلاً بالسيدة أم أحمد، حجزت لكم اليوم هذه الطاولة المستطيلة، سنقعد خارج المطعم، لنستمتع بدفء الشمس، وإن كانت شاحبة، في الداخل زحام، ودخان سجائر، أعرف الأستاذ وحيد لا يحب التدخين.

- وإذا أمطرت.

- غيوم قليلة، رقيقة، والسماء بصورة عامة صافية، أو صافية قليلاً.

وتتكلم أم أحمد:

- صدقت، صافية قليلاً، لبت نفوسنا مثلها.

- لا، نفوسنا صافية تمامًا، ولا غيمة.

- والله نفوسنا فيها غيوم كثيرة وسحابات وضباب أسود، تتراكم، وتتراكم، ولا تمطر.

ويتوجه حواس إلى أم أحمد بالسؤال:

- هل زَعَلَك الأستاذ وحيد؟

- لا، الأستاذ وحيد شمس ومطر بلا غيم.

حواس يعلق:

- ليته يمطر على الدنيا كلها.

- لا، مطره فقط لي.

ويقتران من المائدة.

*

هل هذه هي سهيلة؟ أنف كبير، وفم عريض، وعيون واسعة، سمراء، سمرة باذنجانية، سوداء، هنيئاً له بها، ومعطف أسود سميك تلتف به، كأنها تحتاج إلى من يدفئها، لكن لن يكون زوجي، ليكن أي رجل آخر.

*

تتقدم منها، تهض، تتصافحان.

حواس يعرف كلاً منهما إلى الأخرى.

- السيدة أمينة، مديرة العلاقات العامة.

*

سوف أطمئن إليك، حقًا، اسم على مسمى، أمينة، على الأمانات كلها، قريباً تتقاعدين، مثل زوجي، لا شك أنت في حوالى الستين، مع ذلك، تظل المرأة هي المرأة، ولو كانت في السبعين، أو أقل قليلاً، لا، في السبعين تموت نفسها، أنتظر وصول صاحبة الدعوة، السيدة سهيلة.

*

وتقف سيارة، بين السيارات المزدحمة، تنزل منها ثلاث سيدات.

*

واضح جدًا، أنتن مدرسات أو معلمات انتقلتن إلى العمل الإداري، هربًا من التدريس ومشقاته، نال الهرم منكن، الوسطى معها ديسك، أنا على يقين، تمشي وهي تتمايل إلى اليمين وإلى الشمال، ولها بطن كبيرة، تراكمت فيها الشحوم، من الحمل ومن أطعمة حلب الدسمة، وتخجل من الالتكاء على زميلتها، وتستحي من التوكؤ على عصا، هذه نهايتنا نحن المعلمات والمدرسات.

*

ويتكلم حواس:

- السيدة منى، والسيدة سهام، والأستاذة عفراء، موجّهات تربويات للمرحلة الابتدائية.

*

الأستاذة عفراء، أنا واثقة، هي عانس، في الخمسين، متماسكة، هنيئاً لها، لا زوج، ولا حمل ولا ولادة، ومع ذلك، لا خوف منها، طويلة، أطول من زوجي بنصف متر، أبو أحمد قصير، أعرف، لا تناسبه، ونحيلة، منى هي العجوز صاحبة الديسك، اسمها منى، لكنها ليست المنى، وسهام، عيناها زرقاوان، عيناها حقيقة سهام، شعرها أشقر منسدل على كتفها، في الأربعين، قوية، لكن زوجي لا يحب الشقراوات، أعرف، لكن أخشى أن يفكر في التنوع، أوه، يا بلاهتي، الرجل تقاعد، وقعد في البيت، الحمد لله، صار تحت إبطي، يساعدني في الطبخ، لكنه يتدخل، فأضجر، قللي من الملح، أكثر من التوابل، اغسلي البقدونس بالماء والصابون وانقعيه في الملح، الكوليرا مائة الدنيا، ما خلصنا من كورونا حتى جاءت أوكرانيا والكوليرا.

*

وتتكلم عفراء:

- حواس، أين وضعت سيارتك؟

- وضعتها في الساحة في مدخل حديقة السبيل، هناك مواقف

خاصة للسيارات.

- هل الوقوف هناك مأجور؟

ويرد حواس ضاحكاً:

- آنسة عفراء، من تركب سيارة من نوع هونداي بالدفع الرباعي لا

يهمها الوقوف المأجور أو غير المأجور.

- ما عن بخل، ولكن عن قهر، أنا غير مقتنعة بفكرة تأجير موافق السيارات، وخاصة في داخل المدينة، وحزني على الفقير صاحب سيارة سابا.

- هاتي مفتاح السيارة.
- تفضل، هذه مفاتيح السيارة والشقة والمكتب، لا تتأخر، وإلا ذهبت ظنوني مذاهب شتى.
ويأخذ المفاتيح ويذهب.

*

ومن هذه القادمة ماشية من جهة شارع فيصل، مسرعة، كأنها تخاف أن يفوتها الإفطار، لا تخافي، اطمئي، البرد يوسع أنفها.

*

وتعرف بها السيدة منى قائلة:
- السيدة ابتهاج، رئيسة الشؤون القانونية.

*

تقعد بجواري، ملامحها ليس فيها صرامة، وهي القانونية، وجهها بشوش، تسلّم بحرارة، كأنها تعرفني من زمان، أكاد أشم رائحة العرق في جسمها من المشي السريع، عطرها لا يغطي على رائحة جسمها، زوجي حساس لرائحة الجسد، هو على يساري، وهي على يميني، ليتها قعدت في مكان آخر أبعد، لا شك سيشم رائحة جسدها، مرحلة، صوتها هادئ ناعم، كأنها لم تعمل في التدريس، نحن صوتنا يعلو، يصبح حاداً، ثم ييح، ثم يموت.

*

- بيتي هنا في حي السريان، جئت ماشية.
تتناول منديلًا ورقيًا، تمسح وجهها وعنقها.
- أين السيدة سهيلة، تأخرت؟
- دعتنا وهربت.
وتصل سيدتان، إحداهما هرمة والأخرى صبية، لم تبلغ الأربعين،
ولكن التعب ظاهر عليهما.
وتعرف بهما السيدة منى:
- السيدة إلهام، مديرة مكتب السيد المدير، والسيدة جوليت
نائبة معاون السيد المدير للتعليم الثانوي، في الأصل مدرسة
الاجتماعيات.

*

لم أرتح لا لهذه ولا لتلك، أصبحت الجلسة رسمية، ولم يجد السيد
المدير غير إلهام العجوز لتكون مديرة مكتبه، وكيف ستكون حركتها، من
مكتبها إلى مكتبه، كل المدراء في كل الدوائر يختارون مديرة مكتب صبية
رشيقة، جوليت لم تبلغ الأربعين، مرحة، رشيقة.

*

وتصل سيدة بصحبة رجل، ومعهما بنت في الحادية عشرة من
عمرها، تحمل وردة بيضاء، ولوًا صغيرًا من الورق المقوى، تعرّف بهم
أيضًا السيدة منى:

- السيدة سهيلة، رئيسة قسم التوثيق، الأرشيف، وابنتها هدى،
والأستاذ أبو جميل رئيس الدائرة.

*

سهيلة أكثرهن ترحيبًا بي، كأنها تعرفني من ألف سنة، بدأت أشك
أكثر، كأن زوجي حدثها عني، هي صاحبة الدعوة، لكن لا تستحق مني كل هذا
القلق والاهتمام، قصيرة، نحيلة، سمراء، ليس فيها من الجمال شيء، لكن
صوتها دافئ وحنون، فيه أنوثة، والأذن تعشق قبل العين، أحيانًا، وعندها
حركة تثير الانتباه، وابنتها نسخة مصغرة عنها، لكنها أحلى منها، الطفولة
دائمًا تجذبنا إليها، لماذا أحضرتها معها؟ لا شك كي تستقطب اهتمام وحيد
بك، وهذا هو يتناول من الطفلة الوردية، ويقبل رأسها، ثم يوقع على
الخريطة، ويقول: "روعة"، زمن الجغرافيا ولّي، نحن في عصر الحاسوب،
والشبكة العنكبوتية، أبو جميل رئيس الدائرة، نظراته حادة، شاربه
مقصوف بعناية، شعره أسود مصقول ولامع، لا شك أنه مصبوغ، مثلنا
نحن جميعًا، القاعدات هنا، هل هو الذي كتب التقرير في زوجي؟ يقتل
القتيل ويمشي في جنازته؟

*

سهيلة تقدم ابنتها إلى الأستاذ وحيد، وتتكلم:
- هدى، ابنتي، في الأول الإعدادي، تهوى الجغرافيا، وتجيد رسم
الخرائط، فطرة إلهية، لم أوجهها، وستقدم إليك وردة، ويسرها اطلاعك
على خريطة للوطن العربي رسمتها غيبًا، وتتمنى لو تزينا بتوقيعك.
الأستاذ وحيد يتناول منها اللوح الكرتوني، ويقول لها:

- اقعدي حبيبي بجوار أمك، حتى أراك بوضوح.
- ثم يستل من جيبه قلمًا، ويبدأ في رسم وجه هدى، الجميع يتطلعون إليه بصمت مدهوشين، وما هي إلا بضعة دقائق، حتى يوقع على اللوح، من الجهتين، ثم يعرض الصورة على هدى، ويقول لها:
- هذا رسم أولي سريع، تفضلي.
- هدى تعرض على الحاضرين صورتها، ويصفق الجميع صفقات هادئة ناعمة، وتنهال التعليقات:
- صورة رائعة.
- جميلة.
- نعرف الأستاذ وحيد رسام خرائط، لا نعرفه رسام وجوه.
- فن جميل جدًا.
- أستاذ وحيد، ما هذه الموهبة الرائعة!
- وتتكلم أم أحمد:
- والله عشت العمر كله مع زوجي الأستاذ وحيد، وما رأيته مرة مسك القلم ورسم صورة.
- وتعلق سهيلة:
- هذه كرمي لهدى، أجمل هدية، ستحتفظ بها.
- وتتكلم هدى، وهي تصافح الأستاذ وحيد:
- شكرًا أستاذ.
- ويعلق الأستاذ وحيد:
- قبل تعلّمي رسم الخرائط أخذت عدة دروس في رسم الوجه.

وتعلق سهيلة:

- موهبتك هي الأصل، أكبر من العلم والتعلم.

*

طبعًا، تفجرت موهبتك بوجود السيدة سهيلة، ومن أجلها رسمت صورة لابنتها، لا من أجل هدى، سهيلة أحضرت ابنتها وسيلة للتواصل معك، وأنت رسمت صورة ابنتها وسيلة للتواصل معها، حيل قديمة جديدة.

*

ويرجع حواس، يناول الأنسة عفراء المفاتيح.

- تفضلي أنسة عفراء، ما تأخرت، كان عندي رغبة في الإسراع إلى الشقة، وسرقة ما خف وزنه وغلا ثمنه، لكن خفت: البزين ما يكفي، المؤشر عندك واقف على الصفر، أوقبله بقليل.

- أعرف، أنت تمزح، أمس ملأت الخزان على الكامل.

- بالبطاقة؟

- البطاقة تأخرت، مر أكثر من ثلاثة أسابيع، وما وصلتني رسالة.

ملأت من السوق السوداء.

- بكم ملأت؟

- بعشرين ألف ليرة.

- أنا ملأت بخمسة عشر ألف ليرة.

- في الباكاج بيدون سعة عشرة لير، خذه واملاه لي.

- أمرك، لكن بعشرين.

- ولماذا؟

- خمسة عشر ألف ليرة ثمن اللتر، وخمسة آلاف ليرة عن كل لتر عمولة، لي.
- ويضحك، ثم يناولها وريقة مستطيلة:
- تفضلي.
- ما هذه؟
- مخالفة، كتبها الشرطي.
- لكن، مر على وصولي ربع ساعة، وما رأيت أي شرطي في المنطقة.
- تأخذ الوريقة، تنظر فيها:
- أه، هذه من ثلاثة أيام، وهذا رقم سيارتك، عليك دفعها قبل مضي أسبوع، وإلا تضاعفت.
- ادفعها عني.
- أعرف سيارتك لا يمكن كتابة مخالفة باسمها.
- الشرطي ما اقتنع.
- ولم تدفع له رشوة؟
- رفض.
- هذا شرطي شريف.

*

ناس تشتري لتر البنزين بعشرين ألف ليرة، وتركب سيارة من نوع هونداي بدفع رباعي، وناس تمشي على قدميها، والله لا أعرف الهونداي ولا المازدا ولا السابا، أسمع بها، ولا أعرف واحدة من الأخرى، ونحن لا نقدر على

شراء ليتر مازوت، للتدفئة، الحمد لله الشتاء تأخر، وسنمضيه مثل الشتاء الماضي، لا مدفأة ولا مازوت ولا بنزين، وحتى لا حطب.

*

ويتكلم حواس:

- الان اكتمل النصاب، باسمكم جميعاً نرحب بالأستاذ وحيد، وبزوجته السيدة سعاد، السيدة سعاد مدرسة لمادة اللغة العربية، تقاعدت في الخامسة والخمسين، وما تزال في ريعان العمر، والأستاذ وحيد أظنكم تعرفونه أكثر مني.

وتتالى كلمات الترحيب والمجاملة والثناء على الأستاذ وحيد.

حواس يتكلم:

- طبعاً، سنشرب القهوة أولاً، ثم نتناول الإفطار المتأخر، الآن الساعة الحادية عشرة والربع، أماننا اليوم كله، والجويساعدنا شمس ساطعة، لكنها خجول، وحضوركم يزيد الجو دفناً.

وتعلق منى:

- الجودافى جداً، الحمد لله، لا نريد أي زيادة في الدفء.

ويرد حواس مازحاً:

- أنا أنصح لك بخلع هذا المعطف.

*

هدى تسأل أمها:

- ماذا يفعل ذلك الرجل هناك بين السيارات، وهو يضع عكاز تحت إبطه، وينطأ أو يقفز، ولا يمشي.

وتنظر سهيلة.

- هذا يا بنتي رجل فقير يمسح السيارات، ويبدو لي رجله مقطوعة،
مسكين.

- ولماذا يمسحها؟

- حتى يعطيه بعض الزبائن إكرامية، بدلاً من التسول.

- عطيتني مئة ليرة، لأعطيه إياها.

- خذي، هذه ألف ليرة.

*

وتصل فناجين القهوة.

ويعبق الجو بشذى القهوة والهال، ويشير حواس إلى النادل،
فيحضر على الفور إلى الأستاذ أبو جميل أركيلة بالمعسل، ويتعطر الجو
بنفحات الأركيلة، وينداح في الفضاء صوت صباح فخري:

هيمنني تيمتنني	عن سواها أشغلتنني
أخت شمس ذات أنس	دون كاس أسكرتنني
ذات عقد ذات بند	أسبلته فوق نهدي
لست أسلوها ولو في	نار هجران كوتني
أيها الساقى فدنن	باسم من قد أنستني

وتصل أطباق الفول والحمص والفتة و أقراص الفلافل وأطباق
المخللات وصحون السلطات.
وتتكلم أمينة:

- أنا أنصح بعدم تناول السلطات، الكوليرا منتشرة في حلب.
وتتكم سهيلة:
- كلوا واطمننوا، مطعم سلاف مشهور بالنظافة، وأنا أعرف كل
الخضروات مغسولة بالماء والصابون.
وتعلق ابتهاج:
- ولا يهكم، مشفى الرازي قريب، خمس دقائق بالمشي على
الأقدام.
وتعلق جوليت:
- مشفى الرازي ما لنا فيه محل.
ويلق أبو جميل:
- أنا عندي واسطة كبيرة، أستطيع حجز ثلاثة أسرة.
وتضيف سهيلة:
- ولكن نحن عشرة.
ويضيف أبو جميل:
- الباقي على حواس، واسطته أكبر من واسطتنا نحن جميعاً.
وتتكم أم أحمد:
- الشائعات أكثر من الحقائق، ابن ابنة عمي دخل مشفى الرازي،
اتصلت به لأطمئن عليه، لكن كان خرج من المشفى، ما نام في المشفى غير
ليلة واحدة، وخرج في اليوم التالي، صار معه مغص، وقليل من الإسهال،
وأسرع إلى الرازي، توهم هو وأمه إصابته بالكوليرا، ولكن بعد التحليل
تبين مجرد مغص عادي، الوهم يقتل، والشائعة أخطر من الحقيقة.

وتتكلم إلهام:

- لا نحتاج إلى واسطة من أحد، ارش تمش، ادفع تفتح لك غرفة خاصة.

وتعلق سهام:

- ما عرفنا كيف نخلص من قصة الرشوة حتى نعود إليها.

وتضيف سناء:

- انتبهي، يا ست إلهام، أنت سكرتيرة المدير، ومديرة مكتبه، مسؤوليتك أكبر منا، نحن موجّهات تربويات، كل كلمة محسوبة عليك.

وتضيف إلهام:

- أنا ما قلت أي شيء، فقط قلت: ارش تمش، وهذا كلام الناس، وناقل الكفر ليس بكافر.

ويضحك الجميع.

ويتكلم أبو جميل:

- أنا من البداية توقعنت، التقرير المقدم إلى هيئة الرقابة والتفتيش تقرير كيدي وما له أساس من الصحة.

وتتكلم سهيلة:

- وما اختار صاحب التقرير غير الأستاذ وحيد ليتهمه بالرشوة، أطيّب رجل في العالم، وبعد هذا الأستاذ وحيد رفض رفع دعوى ضده لرد الاعتبار، قال سامحه، والله لو كان اتهمني أنا، كنت حرقت بيته.

وتتكلم سهام:

- المشكلة ما عرفنا من هو.

وتتكلم سهيلة:

- المهم رفع دعوى مضادة، ولو ضد مجهول، وطلب رد الاعتبار، التسامح غير صحيح في هذه القضية، على كل حال، سيأتي يوم ونعرفه، الله يكدر عمره، كدر حياتنا عشرة أيام.

*

آه، يا سهيلة، لو أعرف سبب هذه الحماسة، وتودّين لو كنت أنت المتهمّة، كأنك تريدان افتداء زوجي بك، لماذا كل هذه العواطف تجاه زوجي، بدأت أشك فيك، هذا الاندفاع هو تغطية لجريمتك، أنت كتبت التقرير.

*

ويتكلم حواس مـمازحـا:

- لو ثبتت التهمة، لا سمح الله، وأقول لا سمح الله، وهي لن تثبت، ولكن لو ثبتت، على سبيل المثال، أو الافتراض، كان الرجل راح إلى المشنقة.

ويضيف أبو جميل:

- وكنا ما اجتمعنا هذا الاجتماع، وكنا حرمنّا من هذا الإفطار الجميل.

وتعلو الضحكات وتفرقع.

*

شفاه رخوة غليظة مكتنزة بحمرة براقّة تنفج عن أفواه هرمة، وأسنان صناعية لماعة، وأخرى هرمة كابية، ضحكات فاقعة زائفة، لا شك وراءها هموم خفية وآلام، ما أقبح الضحك.

حواس وحده يضحك ههدوء، ويعرف كيف يزدد الطعام.
لا أطمئن إليك، ولا أثق بك، لا أعرف كيف يثق بك زوجي كل هذه
الثقة، هذه مشكلته، يثق بكل الناس، ولا يشك في أحد.

*

وتتكلم منى:

- يا جماعة، قصة الرشوة انتهينا منها الحمد لله، دعونا نهنا
بصحن الفول، أنا صحن خالص، وما شبع، لا أعرف بطي كبرت، أو
الصحن صغرت، كان نصف الصحن سابقًا يكفيني، وما كنت أكمله.
وتتكلم جوليت:

- كل شيء تغير يا ست أم بشير، هذا قانون الحياة.

وتتكلم منى:

- يا حواس، الله يرضى عليك، اطلب لي صحن فول بالحمض، لا
أريد الفول بالطحينة، وأريد الإكثار من الزيت، وسجل هذا الصحن على
حسابي.

*

الصحن ما صغر، أنت بطنك كبرت، ما هي مسألة صحن ولا مسألة
طعام، المسألة هي مسألة قهر، شيء ما في حياتك، ولا تجددين التسلية أو
العزاء غير في الطعام، عندك ولد هاجر، أو استشهد، بطنك كبرت، وهمك
كبر، وصار معك ديسك، اسأليني أنا، آه، ما عاد أي شيء يجمعنا غير
الطعام والقهر.

*

ويتكلم حواس:

- سأطلب وجبة ثانية من الحمص والفل والفتة للجميع مع الفلفل، والسلطات، على حسابي، ولا أحد يشعر بالحر.

ويتكلم أبو جميل:

- اطلب نصف الكمية، حتى لا تزيد الصحون.

- اطمئن، لن يزيد ولا نصف صحن.

وتسأل منى:

- بالمناسبة، بكم الصحن؟

- لا تسألني.

- طبعاً، لن أدفع، لمجرد العلم.

- كل صحن بعشرين ألف ليرة، عدا الفتة بأربعين، وأظنها صارت

بخمسين.

وتكلم سهيلة:

- آخر مرة تناولت الفول مع زوجي والأولاد، هنا عند سلاف، كان

الصحن باثني عشر ألف ليرة، لذلك اقترحت عليكم الإفطار عنده،

احترافاً بالأستاذ وحيد، وفي المثل: اسأل المجرب، ولا تسأل الحكيم.

*

الحمد لله، عندك زوج وأولاد، لكن لن أطمئن، أنت حقيقة المجربة،

أرجوك، كفي بلاك عن زوجي، صوتك حنون، وطيب، وزوجي يحب الصوت الطيب.

*

ويسأل حواس:

- متى كان هذا؟

- الأسبوع الماضي، نعم، الأسبوع الماضي، مثل هذا اليوم، يوم

السبت، لا، كان يوم الجمعة.

- عادي، الأسعار كلها في ارتفاع.

*

وتطوف بهم صبية في نحو الخامسة عشرة، تحمل أوراق

اليانصيب، تعرضها عليهم، وهي تقول:

- جربوا حظكم، سحب رأس السنة، مليار ليرة، جربوا حظكم.

وتسألها سهام:

- بكم البطاقة؟

- بمئة ألف.

وتتكلم منى:

- ما رأيكم، نشترى بطاقة على حظ الأستاذ وحيد، نشارك فيها

كلنا، كل شخص يدفع عشرة آلاف، وفي حال الربح نتوزع المليار بالتساوي.

وتختلف الآراء بين مؤيد ومعارض.

ويتكلم الأستاذ وحيد:

- نريد رزقنا بعرق الجبين، لا نريده ضربة حظ، وهذا كله وهم

وخداع.

ويحضر النادل، يقول للصبية:

- روعي، غيبي بسرعة. قبل ما يلحك صاحب المطعم، هذا كله عندنا ممنوع، لا بيع جوارب ولا قداحات ولا سجائر، هذه كلها أساليب تسول، وربما سرقة من الزبائن.

وتتكلم سهام:

- لماذا هذا الظلم من صاحب المطعم، باعة فقراء مساكين، دعوهم يعيشوا.

ويلق أبو جميل:

- أنتم لكم الظاهر، وراء هذه الصبية وغيرها خفايا، أنا لا أهتمها هي بالذات، هناك: مخدرات، بغاء، سرقة، لا نعرف، ظواهر غريبة في مجتمعنا، وجديدة، ما كانت من قبل.

ويضيف حواس:

- طبعا هذه الظواهر شاذة، وموجودة في كل مجتمع، وكانت موجودة في مجتمعنا، لكن بنسبة أقل، ومع ذلك، أرجو عدم الخلط بين الفقر وهذه الظواهر، الفقير لا يقوم بهذه الأعمال، الفقير يشقى ويتعب ويرضى بالقليل، يريد اللقمة بالحلال، مجتمعنا متمسك حتى الآن بالأخلاق.

*

ويرفع النادل الصحون والأطباق، وما يلبث أن يأتي الشاي.
وتتعطر الأجواء بنكهة الشاي مع الزنجبيل، تمازجه رائحة المعسل الفواحة، وأبو جميل ينفث دخان الأركيلة. ويزيد الجو بهجة صوت صباح فخري وهويشدو:

حَبِيبِي عَلَى الدُّنْيَا إِذَا غَبَتِ وَحَشَّةٌ
فَيَا قَمَرًا قُلْ لِي مَتَى أَنْتَ طَالِعُ

لَقَدْ فَنَيْتَ رُوحِي عَلَىكَ صَبَابَةً
فَمَا أَنْتَ يَا رُوحِي الْعَزِيزَةَ صَانِعُ

وَعَيْرُكَ إِنْ وَافَى فَمَا أَنَا نَاظِرُ
إِلَيْهِ وَإِنْ نَادَى فَمَا أَنَا سَامِعُ

فَإِنْ تَتَقَضَّلَ يَا رَسُولِي فَقُلْ لَهُ
مُحِبُّكَ فِي ضَيْقٍ وَعَفْوُكَ وَاسِعُ

فَوَاللَّهِ مَا ابْتَلَّتْ لِقَلْبِي غُلَّةٌ
وَلَا نَشِفَتْ مِنِّي عَلَيْهِ الْمَدَامِعُ

أم أحمد تمسح دمعة من عينيها، بهدوء، كي لا يشعر بها أحد.

*

لن تنشف دموعي، أحمد وحدك حبيبي، أنت قمري، رضيت بقضاء
الله، أنت شهيد، في جنات النعيم، ولكن، فراقك صعب، خذني إليك، الله
يلعن الحرب، وساعتها.

*

منى تتكلم:

- السيدة أم أحمد، أنت طوال الجلسة صامتة، لو نسمع صوتك،
أسمعنا كلمة بهذه المناسبة الجميلة.

- شكرًا لكم جميعًا، وأشكر السيدة سهيلة صاحبة فكرة التكريم.
وتعلق جوليت:

- ننتظر تهمة جديدة، حتى نجتمع مثل هذا الاجتماع.
وتكلم أم أحمد:

- لا نريد تهمة جديدة، لا لزوجي، ولا لأحد غيره، نعوذ بالله من
التهم، نجتمع على المودة والمحبة.

وتضيف عفراء:

- نجتمع في تكريم زميل آخر سيتقاعد قريبًا.
وتسأل سهيلة:

- من المتقاعد القادم؟
وترد عفراء:

- لا أحد غيرك، أنت، السيدة سهيلة.

*

آه، أحس بالعطب، متقاعد ومتقاعدة، كل الحديث عنهما، وهي
الوحيدة التي تدافع عن وحيد بك، لا أفهم حقيقة الأمر.

*

وتكلم جوليت:

- سمعنا ببراءة الأستاذ وحيد، وهو بريء حتمًا، لكن، حتى الآن، ما عرفنا ما هي التهمة، وما عرفنا كيف جرى التحقيق.
ويتكلم حواس:

- أنا سأحدثكم عن التهمة، وشخص آخر غيري سيحدثكم عن مجريات التحقيق، وكيف تم إثبات البراءة، ونفي التهمة من الأساس، وطبعًا، الأستاذ وحيد نفسه لا يعرف كيف كانت مجريات التحقيق.
وتتكلم منى:

- أنت شوقتنا أكثر لمعرفة المجريات، ما عادت التهمة تهمنا، وشوقتنا لمعرفة هذا الشخص الآخر الذي سيحي لنا عن مجريات التحقيق.

ويتكلم حواس:

- إليكم بالترتيب، أولاً، التهمة تتلخّص في قبض مبالغ من خمس مدرّسات نقلهن الأستاذ وحيد من الريف قبل أربع سنوات، أول تعيينه في وظيفة موجه اختصاصي، وقام بتكليف متخرجين جدد بساعات تدريسية بدلا منهن، طبعًا التهمة منحصرة في قبض رشوة من أجل المدرّسات.

وتقاطعه سهام:

- إذن، هي تهمة قديمة، ولماذا نبشوها الآن.

ويتكلم حواس:

- رجاء، يا ست سهام، لو سمعت كلامي إلى الآخر، لعرفت أنها في الأساس تهمة باطلة، المدرسات نقلهن الأستاذ وحيد لأنهن كن متزوجات، وواحدة منهن حامل، وفي الشهر الثالث.

*

حواس، أنت تعرف كل شيء، وأنت تدبر كل شيء، أنت والله رأس الفتنة، وزوجي لعبة بين يديك، بل الكل لعبة، أنت الدينامو المحرك.

*

ويقاطعه أبو جميل:

- من حق أي مدرسة الانتقال إلى المدينة إذا هي متزوجة أو تزوجت، وزوجها موظف في المدينة، أو عمله في المدينة، هذا ما نص عليه القانون، ما فعله الأستاذ وحيد ما فيه أي مخالفة.

ويضيف حواس:

- ولعلمكم، كل مدرسة من المدرسات الخمس، قدمت طلب انتقال، وسجلته بشكل رسمي في الديوان، وعرضت الطلبات في اجتماع موسع حضره كل الموجهين التربويين، وحضره نواب مدير التربية الأربعة، وأُخذت الموافقة على النقل بالإجماع، وكل هذا مسجل في محضر، وأُخذ فيه قرار، أما عن مجريات التحقيق، فلا تسألوني، أرجوكم، السيد مدير التربية هو الذي سيحدثكم، انظروا ها قد وصل.

*

هذا هو نقيب المعلمين أعرفه، ومعه أيضًا مدير التربية، ولا شك الرجل الثالث هو سائق سيارة مدير التربية أو سيارة نقيب المعلمين، وهو

يحمل قالب كاتو، لكن من هذه الصبية؟ وتحمل لوحة ملفوفة بورق فاخر، ربما عضو مكتب النقابة، هي دون الأربعين، ممتلئة، أقرب إلى البدانة، وجه مدور، وشعر أسود قصير ناعم، زوجي لا يحب الشعر القصير، لكنها فاتنة.

*

ويتكلم حواس:

- أعرفكم بالفنانة التشكيلية رنف، طبعًا تعرفون السيد المدير والسيد نقيب المعلمين، والأخ الكريم هو سائق سيارة السيد نقيب المعلمين، وأهلًا وسهلاً بالجميع.

وتتكلم سهيلة:

- هذا من ترتيبك يا حواس.

*

نعم كل شيء بترتيب من حواس، صدقت يا سهيلة، وأنت شريكة في المؤامرة.

وهذا زوجي يصافح رنف بحرارة، كأنه يعرفها من قبل، ويقول لها: حتما ليست مصادفة، سعيد جدًا بحضورك، وتطول المصافحة، كأنه لا يريد ترك يدها، أين تعرف عليها ومتى؟ حركاتها رشيقة وناعمة، هي الأخطر من بين كل الحاضرات.

*

وتتكلم سهيلة:

- اسمحوا لي باسمكم جميعًا، أن أتوجه بالشكر إلى السيد مدير التربية، وإلى زميلنا السيد نقيب المعلمين في حلب، فرع التربية، وأشكر

الزميل عماد الشهير بالحواس، الذي أعد لهذا الاحتفال، ونسّق مع السيد مدير التربية والسيد النقيب، وأشكر لكم حضوركم جميعاً، وأتوجه بالشكر للأستاذ وحيد، والسيدة سعاد، لتبليتهما الدعوة، وأود أن أذيع سرّاً، أخفاه عنا الأستاذ وحيد.

وتسأل عفراء:

- وهل اعترف بالتهمة؟

ويضحك الجميع.

وتتابع سهيلة:

- لا، الأستاذ وحيد أكبر من أن تلصق به أي تهمة، ولكن السر الذي أطلعني عليه حواس هو: اليوم العاشر من كانون الأول عيد ميلاد السيدة سعاد زوجة الأستاذ وحيد.

تدمع عينا سعاد.

ويصفق الجميع، ويهتفون معا بصوت يلفت الأنظار:

هابي بيرث دي تويو سعاد

هابي بيرث دي تويو سعاد

ويسأل حواس:

- وهذا اسم السيدة سعاد واسم الأستاذ وحيد، وهما مكتوبان بحروف من عسل على قالب الكاتو، ولكن لا أعرف أي الاسمين الأول؟ وأي الاسمين هو الثاني؟
وتتكلم سهيلة:

- القالب مستدير، وحيث أدرت القرص، أو حيثما وقفت ستجد الاسمين، لا قبل ولا بعد، ولا فوق ولا تحت.
وتمسح أم أحمد الدموع من عينيها.
ويتكلم مدير التربية

- نهى زميلنا الأستاذ وحيد بإحالته على التقاعد، وأنا شخصياً عرضت عليه التعاقد معه لخمس سنوات بصفة خبير، لكنه اعتذر، ونحن لن نستغني عنه، ولا عن خبراته، وسيظل واحداً من أسرتنا، وخرائطه تملأ المكتبات في الوطن العربي كله، وسوف تبقى قابلة للتداول، مع وجود الشبكة العنكبوتية.

ويتكلم نقيب المعلمين:

- لقد كان زميلنا الأستاذ وحيد مثلاً للأب والمعلم والأستاذ، في جِدِّهِ وإخلاصه وتفانيه في العمل، وأظهر كفاءة عالية في عمله موجهاً اختصاصياً، وشهد له كل المدرسين مادة الجغرافيا أنه كان لطيفاً معهم، وقدم لهم كل ما يفيدهم في العملية التعليمية، وكان أنموذجاً بكل معنى الكلمة للموجه التربوي، وهو عضو في نقابة المعلمين، وسيبقى مع زوجته عضوين فيها.

وتسأل سهيلة:

- حتى الآن لم نعرف كيف كانت مجريات التحقيق.

ويتكلم حواس:

- السيد نقيب المعلمين سيطلعكم على مجريات التحقيق، تفضل.
يتكلم النقيب:

- طبعا الأستاذ وحيد دُعيَ إلى التحقيق، ولكن السيد مدير التربية رفع تقريراً مُشْرِفاً إلى هيئة الرقابة والتفتيش، فاقتنعت به، وألغت دعوة الأستاذ وحيد إلى التحقيق، وقام أحد أعضاء هيئة الرقابة والتفتيش بإجراء لقاءات مع أزواج المدرسات، كل واحد على حدة، وسأله: عندي ابنتي مدرسة جغر افيا في القرية، وأرغب في نقلها إلى المدينة، وأريد سؤالك: كم دفعت لموجّه الجغر افيا حتى نقلها، أو ما الهدية التي قدمتها له، والأزواج الخمسة أكدوا تقديرهم للأستاذ وحيد، وأكدوا عدم دفع أي مبلغ أو تقديم أي هدية، هكذا جرى التحقيق. ويصفق الجميع.

*

ويتكلم حواس:

- احتفالنا بعيد ميلاد السيدة سعاد سيتجدد العام القادم في العاشر من كانون.

وتتكلم سهيلة:

- الاحتفال العيد القادم سيكون على حسابك أنت.

ويتكلم النقيب:

- لا، الاحتفال هذا العام على حساب نقيب المعلمين.

ويصفق الجميع.

ويتكلم حواس:

- الله يديم النقابة.

ويتكلم النقيب:

- اللهم آمين، ولكن في علمكم، سأدفع أنا من حسابي الشخصي،
لا من صندوق النقابة، ويا حواس، هات الفاتورة، واطلب وجبة كاملة
للسائق، ولزوجته وأولاده الأربعة، فول وفتة وحمص وفلافل، وست علب
كولا، واطلب من النادل إحضار السكين والصحون لتقطيع قالب الكاتو.

*

ويدعو نقيب المعلمين السيدة سعاد لتقطع هي وزوجها قالب
الكاتو، ثم يقوم هو بنفسه بتوزيع القطع على الجميع.
ويتكلم حواس:

- والعام القادم من سيدفع نفقات هذا الحفل؟
ويتكلم النقيب:

- سيكون هناك شخص آخر هو الذي سيدفع.
ويشير إلى مدير التربية، ثم يضيف:

- الأستاذ مدير التربية مرشح لاستلام وزارة التربية، والتهمة التي
ألصقت بالأستاذ وحيد، وهو بريء منها، كان المقصود بها الإساءة إلى
السيد مدير التربية، وإفشال ترشيحه للوزارة، لكن صاحب التهمة غبي
جداً، اختار رجلاً طيباً بريئاً، ولعله اختاره وهو متقاعد، وللأسف، حتى
الآن ما عرفنا كاتب التقرير، لا نحن ولا هيئة الرقابة.
يتوجه الجميع بالشكر إلى النقيب وإلى المدير، ويحيون الأستاذ
وحيد، وزوجته.

النقيب يلتفت إلى الأستاذ وحيد وزوجته:

- تهنئتي لكم بالتقاعد، والتبرئة من التهمة، وأنت بريء منها في الأصل، وتهنئتي لزوجتك بعيد ميلادها، لكننا لم نحضر خمسين شمعة ولا خمس شموعات، حتى لا نكشف عن عمرها، فهي، ما شاء الله، أصغر من عمرها الحقيقي، متعكم الله بالصحة والعافية، وأدام عليكم المودة والمحبة، وإذا اجتمعتم إلى أي شيء فلا تطلبوه مني، اطلبوه من السيد الوزير، بعد يومين ستسمعون اسمه وزير التربية في الإعلان عن التشكيل الجديد للوزارة.

*

ويتكلم حواس:

- ويسعدني أنا شخصياً تقديم صديقتي الفنانة التشكيلية، رهف، وقد طلبت منها رسم لوحة بورتريه للأستاذ وحيد، وقدمت لها صورة له بالجوال، فقالت أعرفه، وكانت قد التقت به مرة واحدة عند صديقنا المشترك الأستاذ ماجد، ورسمت له بسرعة صورة أولية، وتفضل الأنسة رهف الآن بتقديم الصورة له.

رهف تفض الأوراق الفاخرة عن الصورة، وتعرضها على الجميع، فيبيدي الجميع إعجابهم، ويعلو صدى التصفيق.

يتناول منها الأستاذ وحيد الصورة، يصافحها شاكراً، ثم يتناولها منه حواس، وهو يقول:

- أنا سأوصلكم إلى البيت.

الشمس تختفي وراء سحب كثيفة، تسوقها رياح سريعة، زوبعة صغيرة تدوّم على الرصيف، تسقط قطرات من المطر على اللوحة، يسارع حواس إلى لفها بالورق.

ينهض الجميع استعدادا للمغادرة.

*

ويتقدم منهم صاحب المطعم، جهم، طويل القامة، صوته قوي:
- باسم مطعم سلاف أرحب بكم، وأهني الأستاذ بإحاليته على التقاعد، وأهني السيدة زوجته بعيد ميلادها، والحقيقة شرفتم المطعم بحضوركم، وللأسف قصرنا في الخدمة، والعتب على صديقي حواس، لم يخبرني بالتفاصيل، ويسرني باسمي واسم مطعم سلاف أن أقدم للأستاذ وحيد ثمن باقة ورد، هذا الظرف، وقد وضعت فيه خمسين ألف ليرة سورية.

ويتكلم الأستاذ وحيد:

- أشكرك، ولكن أعتذر...

ويقاطعه نقيب المعلمين:

- مقبولة، مقبولة، تفضل أستاذ وحيد، وخذها، الهدية لا ترد.

ويتردد الأستاذ وحيد.

مدير التربية يتكلم:

- هات، أنا سأعطي الظرف إلى السيدة سعاد، هي وزوجها واحد.

مدير التربية يمد يده، يأخذ الظرف، ويناوله إلى السيدة سعاد.

ويصفق الجميع.

سهيلة تودعهما بحرارة، وتؤكد:

- أتوقع زيارتكم لي.

وترد سعاد:

- بكل سرور، وفي أقرب فرصة.

*

وحيد وسعاد يرغبان في الذهاب إلى البيت ماشيين، ولكن حواس
يصر على توصيلهما، ويطلب منهما الانتظار ريثما يحضر السيارة.

وحيد وسعاد يقفان على جانب من الرصيف.

صاحب المطعم يقول للنادل الذي بجواره بصوت عال، وهو يشير

إلى الرجل صاحب الرجل المقطوعة:

- عشرين مرة قلت لك أبعد هذا المتسول عن سيارات الزبائن، هيا
بسرعة، قل له إذا شافك المعلم مرة ثانية راح يكسر عكازتك، ويرميك
على الأرض، ما هذا؟ يحمل خرقة متسخة، ويحرج الزبائن، يتظاهر بمسح
الزجاج، وهو يوسخه بخرقته.

ينتبه إلى وقوف الأستاذ وحيد قريباً منه، فيتجه إليه ويقول له:

- والله يا أستاذ، لا تؤاخذني، الزبائن يشكون منه، لا تشفق عليه،

عنده أكثر من خمسين سيارة، يمسحها كل يوم، من هنا إلى دوار الدلة،

هذا دخله في اليوم أكثر من راتب وزير.

ولكن، ما يلبث أن ينادي النادل:

- يا عصام، تعال.

ويرجع إليه عصام.

- خذ هذه خمسة آلاف ليرة، ضعها في يده، وأحضر له من المطعم صندويشة فلافل، وقل له لا يرجع إلى مسح سيارات الزبائن، وله كل يوم مثليها.

أبواب مفتّحة

وهما في السيارة، وحواس يمضي بهما إلى الأشرفية، تتوجه سعاد
إلى حواس بالسؤال:

- بالله عليك، قل، لي، كم كانت الفاتورة؟

- خالتي أم أحمد، لا تسألي.

- للمعرفة، لا أكثر.

- ٨٦٥ ألف ليرة سورية، ولا تنسي، نحن عشرة، ومع القهوة
والشاي والكولا، عادي، لوفي مطعم آخر، كانت كلفت أكثر، طبعا هذه
مع حسم خاص لي أنا.

- وصاحب المطعم صاحبك أيضا؟

*

آه، لو يعطونا ثمن هذه الحفلة، كنا عشنا فيها أنا وزوجي، شهرين.

*

- نعم، كل أصحاب المطاعم أصحابي، أنا أُخْلِص قضاياهم في
قصر العدل.

- وهل دفعها النقيب من حسابه، لا من صندوق النقابة؟

- نعم، الرجل كريم.

- وهل يتحمل راتبه هذا؟

- والله فهمت سؤالك من البداية، النقيب عمل في الكويت ١٢ سنة، وعنده ثلاثة محلات بوتيك، ولا يستعمل سيارة النقابة، هذه سيارته الخاصة، وقالب الكاتو على حسابه.

- وكم ثمن قالب الكاتو؟

- لا أعرف، ما كنت معه، لكن على الأقل...

ويتدخل الأستاذ وحيد:

- يا أم أحمد، يا أم أحمد، كفاية أسئلة، لا تفسدي علينا المتعة والسرور، الأرقام مزعجة، أرجوك، افتح الراديو بجانبك.

ويشدو وديع الصافي بنغم حزين:

على الله تعود على الله
يا ضايع في ديار الله
من بعدك أنت يا غالي
ما لي أحباب غير الله

يا أبو الأحباب لاقيني
من بعد غياب هنيئي
حاجي من دموعي تسقيني
نشفت دموعي إي والله

ويتكلم أبو أحمد:

- الله برضى عليك، يا حواس، أغلقِ الراديو، خالتك أم أحمد
نشفت دموعها.

وتعلق أم أحمد:

- لا، اترك وديع الصافي يكمل الأغنية.

ويضيف حواس:

- قريباً، يرجع الغياب، إن شاء الله.

على الله تعود بهجتنا والفرح
وتغمر دارنا البسمة والفرح
قضينا العمر ولف ضل وولف راح
وضاع العمر هجران وغياب

لو جاني يوم مرسالك
و طمني يوم عن حالك
لطرب الفؤاد كرمالك
واسجد على أبواب الله

ويتكلم الأستاذ وحيد:

- شكراً، أخي حواس، وصلنا.

حواس يطفى المحرك، ويتكلم:

- أستاذ وحيد، عندي موضوع، سأتكلم عليه صراحة أمام خالتي

أم أحمد، أنا أعرف، أنت تصارحها بكل شيء، الأستاذ نقيب المعلمين

عنده ثلاثة محلات بوتيك، مثلما قلت لك، واحد من المحلات الثلاثة في الأشرافية، هنا قريب من بيتك، وهو بحاجة إلى موظف يعمل فيه، ولي صديق تاجر، وكيل شركة أدوية، ووكيل نظارات شمسية إيطالية، ووكيل عطور فرنسية، وهو بحاجة إلى موظف في محل لبيع النظارات والعطور، المحل في أول شارع النيل، بعد دوار الدلة، وبحاجة إلى أمين مستودع للأدوية، في حي الشهباء القديم، وعنده صيدلية، هنا في الأشرافية، قريبة من بيتك، ما رأيك؟

يسأل الأستاذ وحيد:

- في أي شيء؟

- لما كنا في المقصف، قلت: لك عندي مفاجأة، هذه هي المفاجأة، العمل في الصيدلية، تقعد وراء صندوق المحاسبة، ويوجد شاب صيدلي، هو يحضر الدواء، وأنت تستلم الثمن، أوفي محل البوتيك، في الأشرافية، بجوارك، أوفي محل بيع النظارات والعطور، والدوام فيها كلها من العاشرة صباحًا إلى العاشرة ليلاً، مع وجبة غداء، على حساب صاحب المحل، والراتب هو نفسه، خمسمئة ألف ليرة في الشهر، وهذه ثلاثة أبواب للرزق انفتحت أمامك، اليوم هو السبت، أنتظر منك الجواب، وعندك مهلة إلى يوم الأربعاء، الخميس تستلم المحل، وتتعرف على البضاعة والأسعار وطبيعة العمل، والدوام يبدأ السبت، تشاور مع خالتي أم أحمد، وأنا أستأذنك.

وتتكلم أم أحمد:

- الدوام طويل، وراتب خمسمئة ألف قليل.

- كلامك صحيح، لكن هذا هو الواقع الحالي، لكن من الممكن زيادة الراتب بعد شهرين أو ثلاثة، وفكري في العرض، أنت والأستاذ وحيد.

- أرجوكم، اتركوا لي عشرة أيام أعيش فيها بحرية، أحس فيها بفرحة التقاعد.

ويأبى حواس إلا أن يصعد معهما إلى الدور الرابع، ليحمل اللوحة التي رسمتها رهف.

وأمام الباب يلح عليه الأستاذ وحيد بشرب فنجان قهوة في بيته، فيعتذر، ويودعهما وينزل.

*

أبو أحمد يلتفت إلى زوجته، فور دخولهما إلى البيت، ويسألها:

- أنا لاحظت، أنت غير مسرورة؟

- لا شيء يسر.

- رأيتك، مسحتِ الدموع من عينيك مرتين، ونحن على المائدة،

عدا دموعك في السيارة.

- مرة؟ مرتين؟ أه لو تعرف، في القلب نهر دموع.

- انتبه إليك بعض الزميلات، وأبو جميل انتبه.

- نعم، وهم ظنوها دموع فرح، وسرني هذا، أنا أفرح لأجلك وأعتز،

الحمد لله، أنت محبوب من الجميع.

- الله يديم بعضنا لبعض، ويديم الصحة والعافية.

وتأخذ في البكاء.

- تكلمي.

- ماذا سأقول؟ أنت تعرف، الصمت أفضل.

يقول لها ممازحًا:

- من أجل سهيلة؟

- لا، عرفت سهيلة، هي في طبيعتها عاطفية، وحنون، بكائي من أجل

البلد كلها، ومن أجل الأولاد، وابننا أحمد، أوف، ماذا أقول.

- انسي الله يرضى عليك.

- هذا الغلاء أنساني كل شيء، كيف سنعيش، إذا أردنا الإفطار كل

يوم صحن فول، لا يكفي لنا راتبك ولا راتبي، وباقي الوجبات؟ الأمير

وحده يبلع راتبك كله.

يضمها إلى صدره.

- يا أم أحمد، لسنا وحدنا، ما من أسرة إلا وتضررت، أولاد في

الغربة، معامل احترقت، عمارات دمرت، أرواح أزهقت، انسي.

- آه، لمن أحكي، لمن أشتكي، خليها في القلب تجرح ولا تطلع تفضح.

*

وفي نفسي شيء آخر، لا أريد تكديرك، يا أبو أحمد، أنا غير مرتاحة

لحفلة التكريم، ولا لحواس، ولا سهيلة، ولا كل الموظفين والموظفات، ولا

لقصة الرشوة والتبرئة، الكل يعرف أنت بريء، وأكبر من التهمة، لماذا يتم

اتهامك بعد تقاعدك؟ ويتم تبرئتك بهذه السرعة، خلال يومين ثلاثة تهمة

وتبرئة؟ وفي المديرية وفي كل المؤسسات والمديريات، رشوات بالسر والعلن،

وبأساليب مختلفة، وما عادت الرشوة مشكلة، صارت عادية، أصبح لها

اسم جديد: هدية، حتى أحد الشيوخ قال: تقديم هدية بعد إنجاز المعاملة ليس رشوة، أما قبل إنجاز المعاملة فهو رشوة، ولماذا أنت بالذات؟ هي قصة مدبرة، لكن من المستفيد؟

*

- يا أم أحمد أنت مدرسة لغة عربية، وكان عندك موهبة، كتبت أيام زمان عشر قصص، اكتبي.
- والله حياتنا تحتاج إلى رواية في عشر مجلدات، أكبر من رواية "الحرب والسلام"، لتولستوي.
- اكتبي.

- ماذا أكتب؟ وهل أستطيع قول كل شيء؟ وإذا كتبت من سينشر؟
- دور النشر كثيرة، ومسابقات الرواية كثيرة.
- للأسف، كل الروايات صارت عن الجنس والسياسة والدين.
- ما آخروا رواية قرائها، عن الجنس أو السياسة أو الدين؟
- ما قرأت.
- وكيف عرفت؟
- قرأت في الشبكة الأخبار عن الروايات الفائزة في المسابقات، وقرأت تعليقات عليها وتلخيصات لها.
- اكتبي عن السياسة والجنس والدين، مثلما الناس تكتب.
تضحك:

- الحقيقة أرغب، ولكن، لا أجرؤ.

*

أستحي، أخجل، عيب، لا أجرؤ، كلمات، فقدت معناها، غابت عن الواقع، وأظنها مُجِيتٌ من المعاجم حتى من المعاجم القديمة، أو أكلها العفن والرطوبة.

*

ويتكلم الأستاذ وحيد:

- نسيت، حكيت لك في الصباح عن رؤيتي في المنام السوق وزحام الناس، وكيف بقيت وحدي، وانفتحت أمامي أبواب وأبواب، ما سألتك عن تفسيرك للحلم؟

- تفسير الحلم سهل وواضح، وتحقق اليوم.

- كيف تحقق؟ وضّحي لي.

- كنت اليوم مع سهيلة ورهف وسهام ومنى وعفراء، ومع المدير والنقيب، ومع حواس، وراحوا كلهم، وهذه ثلاثة أبواب عمل انفتحت أمامك، وبقيت أنا وحدي.

- لا يا أم أحمد، أنت معي وأنا معك.

- غير صحيح، أنت التقيت مرة واحدة مع رهف مثلما قال حواس عند ماجد، وفي اليوم الثاني جاءت بلوحة فيها صورتك.

- هذا يا أم أحمد بترتيب من حواس، وأظنه أطلعها على صورة لي في الهاتف الجوال، وبالمناسبة لما التقيتها عند ماجد، استلّت ورقة ورسمت بسرعة بالقلم الرصاص صورة لي، هي تخطيط أولي، يسمى كوكيز.

- وكم قعدت أمامها؟

- عشر دقائق، على كل حال، هاتي ننظر في اللوحة.
- تناوله اللوحة، يتأملها:
- هل أعجبك فيها؟
- يا أم أحمد، الوجوه سبعة أنواع، مثلث ومستطيل ومربع ودائري وبيضوي ومعين وعلى شكل قلب، سأسألك، كيف شكل وجهي؟
- لا أعرف؟
- عشنا معاً مئة سنة، وما عرفت شكل وجهي، تأملي.
- تقريباً، وجهك مربع الشكل، فكك السفى عريض، وهو بطول
- جبهتك تقريباً، ويتوازى معها.
- صدقت، والآن تأملي في اللوحة، كيف شكل وجهي فيها؟
- ننظر في اللوحة، تتأملها، ثم ننظر في وجهه:
- وجهك في الصورة مدور.
- أحسنت، والآن انظري، وتخيلي وجود خط ينزل من الزاوية
- الخارجية للعين، عند الجبين، هل هو على تماس مع زاوية الفم؟
- لا.
- والآن، تأملي، وتخيلي وجود خط يماس مع حدقة العين، من
- جهة المدمع، ثم ينزل، هل هو على تماس مع جانب الأنف؟
- لا.
- الآن دققي معي أكثر، قيسي، بشكل وهمي، المسافة من الذقن إلى
- الأنف، هل هي نفس المسافة من الأنف إلى العظمة بين الحاجبين؟
- لا.

- أخيرًا، هل الأذن أعلى من نهاية الحاجب.

- انتظر حتى أتأكد، نعم، نعم.

- يا أم أحمد، هذه كلها أخطاء فنية، وهناك أخطاء أخرى، يجب وجود أربع بقع ضوئية، في وسط الجبهة، وبين العينين، وفي أرنبة الأنف، وفي أسفل الأنف فوق الشفتين، وفي الذقن، هي لم تحقق منها سوى بقعتين، في وسط الجبهة، وفي الذقن.

أم أحمد، تتأمل وجه زوجها، وتساءل:

- والله، أنا لا أعرف هذا كله، كان عليّ في أيام الخطبة تأمل وجهك، هل تأملت أنت في وجهي أثناء الخطبة ودرسته؟

أبو أحمد يضحك:

- الحب يا أم أحمد شيء، ومقاييس الأبعاد الفنية شيء آخر، أنا أتحدث هنا عن الفن.

- وهل درست الطب قبل دراسة الجغرافيا، ولم تخبرني؟

- درست فن رسم الوجه، لأن أستاذنا كان يقول لنا: الخريطة مثل

الوجه، ولا بد من وجود تناسب بين الأبعاد والمسافات، وكما أبدع الله في خلق الأرض، أبدع في خلق الوجه.

- لكن الأرض ينالها التغير، القارات تتزاح، وبراكين تنفجر وبراكين

تخمد.

- وهل يبقى الوجه على حاله، من الطفولة إلى الشيخوخة؟

- الآن أفهم: اللوحة لم تعجبك.

- هي لفنانة كما يبدو لي هاوية ، لم تدرس فن الرسم ، ولكن عندها موهبة ، وهي مقبولة منها.
- يا أبو أحمد ، والله ، إذا نظرنا إلى اللوحة من بعيد ، رأيناها ناجحة ، لا تظلم البننت ، وهي رسمتها كرمى لك ، دائما الدخول في التفاصيل يفسد الأمور ، أنا أعجبتني.
- والآن ، أين سنعلقها؟
- لا أعرف؟
- ما رأيك في تعليقها وراء السرير ، فوق رأسنا؟
- تضحك ، تعلق:
- ضعها تحت مكدتك ، حتى تنام عليها.
- أخشى من الأحلام المزعجة.
- لا بالعكس ، سترى أجمل الأحلام.
- هاتي اللوحة ، سأضعها فوق صناديق الكتب.
- وترد أم أحمد:
- لا يا أبو أحمد ، هاتها ، سأعلقها في غرفة الجلوس ، هي جزء من التكريم لك ، ولا ألقها فوق صناديق الكتب ، سوف أستعير من الجيران مطرقة ، وأعلقها على الجدار ، فوق التلفزيون ، لا من أجل الصورة ، لكن كرمى لصاحب الصورة.
- وتصمت ثم تضيف:
- بل كرمى لها ولك ، والله ، كل من يقدر زوجي أقدره وأحترمه.
- أنت الذوق كله.

- يصمت، ثم يسألها:
- والآن، ما رأيك في المحلات؟
- تريد تغيير الموضوع.
- نعم، هل أعمل في صيدلية قريبة، أو في محل لبيع النظارات في شارع النيل، عند دوار الدلة، أو في مستودع الأدوية.
- أنت متحمس للعمل.
- نعم، بصراحة، نحن بحاجة، لا يكفي لنا راتبي ولا عشرة أضعاف راتبك.
- القرار لك، لكن أنا إذا شئت، أقترح العمل في الصيدلية، هي قريبة من البيت.
- سأفكر، لكن كما قلت، سوف آخذ إجازة عشرة أيام، أستريح فيها، وأحس بمعنى التقاعد.
- ثم يلتفت إليهما يسألها:
- ماذا سنفعل بهذا المبلغ، والله شعرت بالحر، مدير التربية أخرجني.
- يا أبو أحمد، الموضوع عادي، هذا هدية من صاحب المطعم، الرجل كريم، وما هو رشوة.
- يضحك، ساخرًا، يعلق:
- كريم، أي كرم هذا! هل رأيت موقفه من الرجل صاحب الرجل المقطوعة.

- والله أنا مع صاحب المطعم، الرجل صاحب الرجل المقطوعة معه خرقة متسخة، ويمسح بها زجاج السيارات، ومن حق صاحب المطعم طرده، ولكنه في النهاية أكرمه، ووعدته بخمسة آلاف ليرة كل يوم، على شرط الابتعاد عن سيارات الزبائن.

- وهل صدقت؟ هذا كلام قاله أماننا، لن يعطيه ولا عشر ليرات، وهل رأيت الخرقة؟

- لا

- الرجل معه خرقة، وسطل ماء، وهو يغسل الخرقة، ويعيد ملء السطل.

- يكفيه غسل خمسين سيارة.

- وهل صدقت؟

- على كل حال، إذا كانت عينك على المبلغ، فتفضل خذه، هولاك، أنا أخرجت بأخذه، تفضل خذه.

- أبقية معك، بعد يومين أو ثلاثة، نزل إلى حديقة السبيل، في يوم صحو، نستمتع بالشمس والدفء، ونبحث عن هذا الرجل المسكين، ونعطيه المبلغ.

حوار العشاق

يخرج إلى الشرفة الصغيرة.

*

شمس ساطعة، دافئة، وسماء صافية، كأنها سطح ورقة زرقاء، ولا سحابة حتى ولو رقيقة، الحمد لله، نحن في اليوم الحادي والعشرين من كانون، أول أيام الشتاء، والجو مقبول، وما صار برد حقيقي.

*

يرجع ليقول لزوجته:

- يا أم أحمد، عشرة أيام مرت، وما طلعتنا فيها من البيت.
- أنا القاعدة، أنت رحت إلى سوق الأشرفية أربع مرات.
- أنا طلعت إلى السوق لشراء الخبز والأكل، والله أشتي أبقى في البيت، ولا أذهب إلى السوق، غلاء، وقهر، وحكاية كل يوم.
- وأنا أشتي الذهاب إلى السوق ولا أبقى في البيت.
- هذه هي حقيقة الإنسان، دائما ينظر إلى الضفة الأخرى من النهر، ويظنها أجمل.

- بالله عليك، ما مللت؟

- والله ما مللت، أحسست بالراحة، واستمتعت.
- بأي شيء استمتعت، لا تدفئة، ولا كهرباء، ولا تلفزيون؟
- قرأت رواية دون كيشوت، وضحكت.
- قلت لي: قرأتها من زمان.

- هذه رابع مرة أقرأ فيها هذه الرواية، ممتعة، ما رأيك؟ تعالي ننزل إلى حديقة السبيل.
- سبقتني، والله كنت سأقول.
- هيا، ونشتري صندويشات فلافل من مطعم سلاف.
- شبعنا من الفول والحمص والفتة والفلافل، ما عدت أشتهيها.
- أشتري لك صندويشة شاورما.
- وهل تعرف كم ثمنها؟
- نعم، أعرف، من يومين مررت ببائع شاورما، هنا، في الأشرفية، الصندويشة بثمانية آلاف ليرة.
- ثمانية أنا وثمانية أنت، ستة عشر ألف ليرة، نشتري بها نصف فروجة، نطبخ عليها الرز، يكفيننا ثلاثة أيام، أنت جهز نفسك للنزلة إلى حديقة السبيل، وأنا سأجهز هنا في البيت لفافتين من الزيت والزعتر، وأملأ الترمس بالشاي.
- سوف أساعدك بتجهيز الشاي.
- ونأخذ معنا الظرف والخمسين ألف ليرة، وندور على الرجل صاحب الرجل المقطوعة، ونعطيه المبلغ.
- *
- وينزلان مشيا إلى حديقة السبيل.
- في مدخل الحديقة متسولة في ثياب متسخة، تقعد على الأرض، وأمامها منديل تناثرت فيه بضع وريقات نقدية، وفي حضنها وليد، ترضعه من ثدي تركته يندلق واضحا خارج ثوبها.

أبو وحيد يقول لزوجته:

- تعالي نعطي المرأة هذا المبلغ.

ترد بلهجة ساخرة:

- هل أشفقت عليهما أم على وليدها؟ أو أعجبتك هذا الدالقي.

- والله يا أم أحمد نيتي حسنة، الله يستر عليهما.

- لا تستحق المساعدة، لو عندها قليل من الحياء ما تركت نديها

هكذا يندلق أمام الناس.

وعلى مبعدة منهما ولدان وبنت يركضون نحوهما يمدون إليهما
الأيدي يطلبون المساعدة، فيهم شبه كبير بتلك القاعدة في مدخل
الحديقة.

- هل رأيت يا أبو أحمد، هؤلاء أولادها، فيهم شبه كبير بها، وبعد

قليل، أنا متأكدة، سوف نرى زوجها.

*

على مقعد خشبي يقعدان، يتناولان لفافات الزعتر، مع الشاي.

- يا أبو أحمد، أكثرت من السكر، كم ملعقة وضعت؟

- لا أتذكر، الشاي الحلو أطيب مع الزيت والزعتر.

- هل تعرف؟ كيلو السكر صار بستة آلاف وخمسمئة.

- أوه، أم أحمد، الله يرضى عليك، جئنا إلى السبيل لتتسلى، ونروح

عن أنفسنا، ما جئنا للكلام على الغلاء والأسعار.

- والله يا أبو أحمد، لو نحن ما حكينا كان القلب حكى.

ويسود صمت.

*

أولاد يلعبون ويتر اكضون حول البركة في وسط الحديقة، وجوههم
محمرة من وهج الشمس، سيارة أولاد يقودها ولد في العاشرة، تمشي
بالبطارية الكهربائية.

- هل تعرف ثمن هذه السيارة؟

- لا أعرف، ولا أريد، المعرفة شقاء وحزن وألم، ليتنا كنا بلا عقل،
ولا إحساس، ولا شعور.

في دفء الشمس، يحس بذبول واسترخاء، يكاد يغفو.

*

أم أحمد تسأل:

- إيه، أبو أحمد، ماذا قررت؟

- بخصوص ماذا؟

- المحلات الثلاثة التي عرضها عليك حواس.

- بصراحة لا أحب العمل في محل يملكه نقيب المعلمين، أو المدير،

نسيت، لا أعرف لمن محل البوتيك، لهذا أوداك.

- والعمل في الصيدلية بجوارنا؟

- عندي تحسس مفرط تجاه الروائح، ولا أحب رائحة الدواء.

- والعمل في مستودع الأدوية؟

- العمل في مستودع الأدوية مشكلة، مستودع فيه رطوبة، وجرد،

وحسابات، وأرقام، أنا غير مهياً لمثل هذا العمل.

- ما بقي أمامك غير محل النظارات والعطور.

يصمت.

- يا أم أحمد، والله التقاعد في الستين جريمة، القانون جائر، أنا مستعد للعمل حتى السبعين، حتى الثمانين.

- ما مللت من التدريس؟

- والله، في كل سنة أجد نفسي في قوة الشباب، مع الجيل الجديد كنت أجد نفسي.

تضحك، تعلق:

- يا أبو أحمد، الآن تحس بحنين إلى التدريس، وقبل شهر، وأنت تجري معاملة التقاعد، كنت تنتظر التقاعد بفارغ الصبر، ولمّا تقاعدت فرحت، وقلت: يوم التقاعد أجمل تاريخ في حياتي، ما هذا التناقض؟
- هذه هي حقيقة المشاعر البشرية، تتناقض، لتتوازن، وتتكامل، مثل القارات والمحيطات، مثل الجبال والوديان، الآن أنا أحس بفراغ، تخيلي، لو عشت حتى الثمانين، جدي يرحمه الله، عاش تسعين سنة، لو عشت حتى الثمانين، سأمضي عشرين سنة، هكذا، في الأكل والشرب والنوم والمرض، مثل القطط والعصافير، من غير عمل ولا إنتاج ولا شغل، لذلك كنا نسمع عن أجدادنا في السبعين تزوجوا، من حقهم، جددوا حياتهم.

تنهض، تنظر فيه:

- تزوّج، ما المانع؟

- أوف، أنا قلت هذا على سبيل المثال، المهم بداية حياة جديدة، نسمع عن الأوروبيين يقولون: بعد الستين تبدأ الحياة، نحن في بلادنا

تنتهي الحياة في الأربعين، مرة قرأت مقالة للمنفلوطي، عنوان المقالة: في الأربعين، يعلن فيها انتهاء الحياة عند الأربعين.
- غير صحيح، الرسول محمد صلى الله عليه وسلم نزل عليه الوحي وهو في الأربعين، وبدأ حياة جديدة.

- هو نبي، ونزل عليه الوحي، لكن نحن بشر، وما نزل علينا وحي.
- أه يا أبو أحمد، خلال يومين، تغيرت حياتك، ما كنت من قبل هكذا، التقاعد غيرك، هيا نمشي، ونغير هذا المكان، الشمس جعلتك تتكاسل وتسترخي.

- لن نجد أي مقعد أجمل منه، الشمس تدفئنا، وبركة الماء أمامنا، لكنها فارغة، الحمد لله، لو كانت مليانة كنا أحسسنا بالبرد، وأطفال يلعبون، الحديقة اليوم مكتظة بالناس.
- أنا أريد المشي، إذا شئت ابقى أنت.

*

ينهضان يتمشيان معاً.

يسألها:

- ما رأيك؟ نستأجر أي محل كان، لمدة سنة، وأضع فيه مكتبتي، وأبيع الكتب، هذا أفضل عمل.

- أمس حكيت لي عن مكتبة الأصمعي، وقلت: الرجل باع المحل، وسيتحول إلى بيع الهواتف الجواله، وقلت بلسانك: ما عاد أحد يقرأ، انظر في الحديقة، لا نرى أي شخص معه كتاب يقرأ فيه، أو حاسوب

يعمل عليه، في الأفلام نرى الناس في أورة يقرؤون في الحافلات وفي
الحدائق، وحتى في الحدائق معهم حاسوب يعملون عليه.
- أشتي لو أنزل كل يوم إلى الحديقة، ومعى كتاب أقرأ فيه.
- فهمت، أنت قصدك تركي في البيت، وحدي، وأنت تستمتع
وحديك بالحديقة، والصبايا من حولك، أنت مللت مني يا أبو أحمد.
- معاذ الله، أنت الروح والحياة، هذه خواطرو أفكار، الحقيقة
تؤلمني هذه المظاهر، انظري إلى هذه الأراكيل، كيف صفها هذا الرجل، في
داخل الحديقة، وهو يريد إغراء الناس بالتدخين، الإنسان يأتي إلى
الحديقة ليشم الهواء النظيف، وينقي رثتيه، لا ليملأهما بالمعسل.
- والله يا أبو أحمد، رائحة المعسل شهية، هل تتذكر أبو جميل، لما
كان ينفث الدخان، وتتعطر الأجواء.
- تفضلي، اقعدى هنا، على هذا المقعد، وأنا سأطلب من هذا
الرجل إحضار أركيلة لك بالمعسل، أنا سأحضرها لك.
- لا، لا، يا أبو أحمد، هذه خواطرو أفكار مثلما قلت، الله يرضى
عليك، لا تتوتر، لكن، لاحظ، الرجل معه ولد يحمل الأراكيل، عمره
خمس عشرة سنة، يحرمه من المدرسة، ويجبره على العمل معه.
ويعلق الأستاذ وحيد:
- على كل حال، هذا أفضل من التسول.
- يا أبو أحمد، عمَل هذا الرجل أسوأ من التسول، هو ينشر
السموم في صدور الناس، ويعوّد الشباب على أسوأ عادات، لاحظ معي،

أكثر المدخنين في الحديقة من الشباب، وما أدراك، لعله يخلط المعسل بشيء آخر، كيف تعتبر عمله أفضل من التسول؟

- وانظري، هناك في الطرف الآخر، في الجهة الشرقية، رجل آخر يجهز الأراكيل، ومعه ابنه، أظنه دون العاشرة، وهو يحمل المجرمة ويطوف بها ليضع جمرات الفحم المتقدمة على رؤوس الأراكيل، مسكين، غاز الكربون يقتل صدره.

- يا أبو أحمد العتب على الشباب، الواحد منهم يظن تعاطي التدخين في الأركيلة متعة، ومباهاة، ومفخرة، ويظن ضررها أقل من السيكرة، انظر إلى ذلك الشاب، وصديقه، يضع رجلاً فوق رجل، والأركيلة أمامه، ينفث الدخان، ويظن نفسه سلطان الزمان، وصديقه يلتقط له صورة، هل تعرف لماذا؟ آخ، ليضعها في صفحته على الفيس بوك، ويفاخر بتدخينه أركيلة في حديقة السبيل.

- يا أم أحمد، الشباب فيهم دائماً الخير، هم بناء المستقبل، لكن لو تو افرت لهم الملاعب، أو النوادي الثقافية، لو تو افرت لهم دورات للتدريب على الإسعاف والإنقاذ، لو وجدوا من يرعى مواهبهم ويوجهها، ما كانوا قعدوا في الحديقة وتعاطوا تدخين الأراكيل.

- يا أبو أحمد، تعال نرجع إلى البيت، أنا ضجرت.

- ما استمتعنا بعد بدفء الشمس، تعالي نمشي في الجهة الأخرى.

*

ويمر بهم رجل عجوز يحمل بالونات ملونة.

- كم عمر هذا العجوز، في تقديرك يا أم أحمد؟

- أظنه تجاوز السبعين.

- نعم، بارك الله في سعيه، يحمل البالونات، ويطوف في حديقة السبيل مشياً على قدميه، طوال النهار، لبيع البالونات، ويدخل السرور إلى قلوب الأطفال.

- ويدخل الحسرة إلى قلوب بعض الأطفال والأمهات، هذه أم تجر ابنتها، عمره أربع سنين، وهويبيكي، ويشير بيده، يريد بالونة. وتنفجر بالونة بفعل أشعة الشمس.

- حسبي الله ونعم الوكيل، كان الله في عونته هو الآخر، كم بالونة سيبيع في اليوم حتى يعيل نفسه وأولاده؟ ما رأيك: نعطيهِ الخمسين ألف ليرة؟

- لا، هي من حق صاحب الرجل المقطوعة، هكذا نؤينا من البداية.

*

يتقدم نحوهما رجل في جلابية صيفية بيضاء، شعره أبيض طويل، متناثر على جانبي وجهه، لحيته بيضاء طويلة، يعرج في مشيته، جانبه الأيسر مشلول، يمد إلى الأستاذ وحيد يده اليمنى جاعلاً أصابعه على شكل مسدس، يصيح، وهويضحك:

- طاخ، طاخ.

أبو أحمد يعلق:

- يا إلهي، من متسولة تدلق ثديها، إلى متسول أبله يهددنا بمسدس وهمي، كأنه ملك الموت، وأولاد أشقياء يتعلقون بنا يطلبون مساعدة. ما رأيك، أم أحمد، نعطيهِ الخمسين ألف ليرة.

تضحك، تعلق:

- ماذا سيفعل بها، سيرمها في حاوية القمامة، أنا قبل أسبوع رأيتَه مع ابنة خالتي في شارع النيل، والمطريهطل، وهو بهذه الجلابية الصفية البيضاء، تحت المطر، وهذه هي حركاته، إذا رأى أي رجل وجهه إلى الرجل مسدسه، ويصيح: طاخ، طاخ.

أبو أحمد يضحك، يعلق ساخرًا:

- ولماذا إلى الرجل، لا إلى المرأة؟

- لا أعرف، لعله عاشق، وخطف منه أحد الرجال زوجته، المهم،

ما عاد في هذه الدنيا شيء يسرُّ.

- ولماذا؟ سيدتي، تأملي جمال الحديقة!

- لم تحدثني، طول وجودنا في الحديقة، أي حديث يسليني، كل

أحاديثك عن الغلاء، هل هذا حديث العشاق والمحبين؟

- حديثنا عن الواقع يدل على تقاسمنا معًا هموم الحياة، وهذا

هو الحب والعشق.

- هذا لا يكفي، كنت أشتهي سماع كلمة حلوة، قصة حلوة.

*

يقف قبالتها، يسألها بجد:

- يا أم أحمد، أود سؤالك؟ هل الحب في مفهومك، كلمات حلوة.

تفكر، ثم تقول:

- لا، لكن، لا بد منها.

- إذن، ما هو الحب؟

- لا أعرف.

- والله، يا أم أحمد، المعرفة كلها عندك، أنت سيدة المعرفة، أنت درست كل قصص الحب وأشعاره، من عمر بن أبي ربيعة، إلى نزار قباني، ونسينا امرأ القيس وعنترة بن شداد.

- قصص الحب شيء، والواقع شيء.

- وما هو الحب في الواقع؟

- موضوع واسع ومعقد.

- يا أم أحمد، تعالي نقعد هنا على هذا المقعد، هو مشرف على الحديقة كلها، تفضلي اقعدي، وحدثيني على الأقل، عن مفهوم الحب عندك.

- لا، سنمشي إلى البيت، لا أشتي، بعد الحرب، ما بقي عندي حب غير حب ولدي أحمد.

وتدمع عيناها.

- وأنا؟

- أنت شيء آخر.

- آه، يا أم أحمد، أنا شيء آخر، هكذا ببساطة أنا مجرد شيء، مثل ورقة أو قطعة خشب، هذا، لو عرفت، اسمه تشيء الإنسان، أي تحويله إلى شيء، إلى سلعة.

- أعرف، والله أعرف، لكن لا أقصد، ماذا أقول لك؟ أنت عندي كل شيء في الدنيا، أقصد، إذا أردت أنت عندي الأرض والسماء والأفلاك والنجوم والمجرات والكواكب كلها.

تصمت، ثم تضيف:

- لكن لا أنسى أولادي، وبيتي، وأهلي، لا أنسى الناس العائشين في الخيام في البرد، تحت الثلج والمطر، والعائشين لاجئين في الغربة، والمطلوب منهم التأقلم، أي فقدان هويتهم وشخصيتهم.

- صدقت، يا أم أحمد، لا بد في الحب من كلمات حلوة، لكن الكلمات وحدها لا تكفي، الحب مواقف نبيلة، وبذل وعطاء وتضحية، والحب بين الرجل للمرأة وحده لا يكفي، الحب الحقيقي هو حب الناس، كل الناس.

- للأسف، نحن مجتمع البغض والكراهية والحسد والكيد والغش والخداع والنهب، نحن ما عندنا حب، نحن لا نعرف الحب، أرجوك، تفضل، نذهب إلى البيت.

يقول لها مازحًا:

- لا، لن نذهب إلى البيت وأنت غير مرتاحة، سأثبت لك: الحديث مع المرأة عن الغلاء والبنزين والمازوت هو حديث الحب الحقيقي، المرأة المعاصرة صارت تحمل هم الحياة والمعيشة أكثر من الرجل، هل نسيت، أنت نفسك، أسألك؟ قبل تقاعدي، من كان يحضر ربطة الخبز إلى البيت، ويستيقظ مع الفجر ليوقف في الصف أمام الفرن؟ من كان يحمل البطاقة الذكية ويمرول ليحصل على حصتنا من السكر أو الرز كل ثلاثة أشهر؟ وأنت قلت لي: النساء أمام الفرن أكثر من الرجال، وأنا رأيت هذا بعيني اليوم، وأنا رأيت بعيني أكثر من امرأة تدفع أسطوانة الغاز في عربة يد،

وتذهب لتبديلها، وهي في غاية السرور، فقد جاءت بها رسالة لتبديل الأسطوانة بعد ثلاثة أشهر.

- صدقت، وأنا رأيت من الرجال من عنده سيارة، ويبدل الأسطوانة، ويرى امرأة تدفع الأسطوانة، تخرجها بقدمها، حتى تصل إلى البيت، وما عندها عربية، ولا يقول لها: تعالي أوصلك أنت والأسطوانة إلى بيتك، قلت لك، نحن لا نحب بعضنا، لا أعرف ماذا أقول.

- ولذلك يا أم أحمد، صار الكلام بين العشاق على الغلاء، هو نفسه الكلام على الحب.

تضحك وتعلق:

- لا، يا أبو أحمد، الكلام على الغاز والمازوت والغلاء، يأتي بعد الزواج، لو الشاب حدث الصبية على الغلاء لتركته فوراً، وما عقلت في الشبكة، بعد الزواج يتغير الكلام، بالله عليك، أسألك، لو كنت تتمشى الآن، مع تلك الصبية، انظر هناك، هل كنت ستحدثها عن الغلاء والبنزين والمازوت؟

- صدقت، لو مشيت معها لحدثتها عن جزر لانغرهانز، وأجعلها تحلم بها.

- هذه أول مرة أسمع باسم هذه الجزر؟ هل هي مكتشفة الآن، أو تشكلت بفعل انفجار بركاني؟

- احزري أين تقع؟

- لا أعرف.

- سوف أقرب إليك الجواب، حتى تحزري، هي المسؤولة عن السكر.

- هل يزرع سكانها قصب السكر أو الشمندر؟

- سوف أقرب إليك الجواب أكثر وأكثر، هي تنظم السكر في الدم.
تضحك، تتكلم:

- عرفت، هي في البنكرياس، ولكن لماذا سموها جزر لانغرهانز؟

- لأنها مجموعة خلايا متعككة تختلف عما حولها من الخلايا،
تشبه الجزر الصغيرة، ومكتشفها طبيب ألماني اسمه لانغرهانز، وعددها
على الأقل مليون جزيرة، ما رأيك في تمضية الصيف في إحدى تلك
الجزر؟

تضحك، تفهقه، تهم بضربه بحقيبة يدها ممازحة:

- والله، لو مشيت مع تلك الصبية، وكان حديثك معها عن جزر
هانغرهانز، أو لانغرهانز، ما عدت أعرف، والله كانت الصبية ضربتك
بحقيبتك، ولو كان معها مسدس لضربتك عشرين رصاصة، مثل هذا
الأبله، حقيقة الرجال يستحقون القنص، هذا الأبله لا يوجه مسدسه
الوهمي إلى الرجال عن جهل، هو يحسن الاختيار.

*

وتمسك يده، تشد عليها بقوة، تتسمر في مكانها، وتهتف:

- قف، قف، أرجوك، تعال نمشي في هذا الممر، نبتعد، انظر هذا
الكلب أماننا، كأنه ذئب، ولسانه يتدلى، وفمه مفتوح، وأنياه بارزة،
تعال، من هنا.

لا تخافي يا أم أحمد، هذا كلب أليف، مربوط بحبل إلى يد صاحبه.
- الله يبعث له رصاصة حقيقية، لا رصاصة وهمية من رصاصات
ذلك الأبله المسكين.

- لا يا أم أحمد، هذا كلب مدرب، وغالي الثمن، ولا يأكل إلا لحمة
مشوية.

- كم كيلو يأكل في اليوم؟ لو صاحبه أكل لحمة مشوية كان صار
أحسن منه، انظر، صاحبه جلد على عظم، وثيابه... لا أعرف ماذا أقول،
نسيت الكلام كله.

- أم أحمد، هذا خادم خاص، خرج به للنزهة، صاحبه قاعد في
الفيلا.

- يا أبو أحمد، الحمد لله، تسلينا اليوم بما فيه الكفاية، تعال
نرجع إلى البيت، وأخر تسلية كانت الكلب، أخاف يطلع أمامنا شيء آخر،
كفاية هذا اليوم، وهذه آخر مرة أنزل فيها إلى حديقة السبيل، قرفت.

- نسينا الرجل صاحب الرجل المقطوعة؟

- ما نسيناه، الآن نخرج من باب السبيل، مقابل مطعم سلاف،
ونمشي إلى دوار الدلة، عندي أمل، سوف نراه.

*

وهما يغادران باب حديقة السبيل يقول لهما:

- نزهتنا اليوم يكتب فيها قصة، ما رأيك، عنوانها: حوار العشاق.

- قصة مملة، لا أكشن فيها، ولا تشويق، لا أحد سيقروها.

- نعم، صدقت، لا أحد سيقراً مثل هذه القصة، للأسف، اعتاد الناس على أفلام الرعب والجريمة والقتل، أفلام الأكشن أفسدت أذواقهم، لأنها تعبر عن واقع العالم، عالم تشتعل فيه الحروب في كل مكان، حروب يشنها كبار قادة العالم، ليشغلوا شعوبهم عن مشاكلهم الداخلية، وليحققوا مصالحهم وأهدافهم وطموحاتهم الشخصية، باسم المصالح القومية، وباسم الحرية، للأسف، وباسم حقوق الإنسان، وليزجوا شعوب العالم في الحروب، ولا يهتمهم سقوط آلاف القتلى، حتى من شعوبهم، أو من المرتزقة، ولا يهتمهم تشرذم الملايين، طبعاً، الشعوب، من الطرفين، بريئة، ومغرر بها، والقادة هم...

- أبو أحمد، سامحني للمقاطعة، أرجوك، هل عدنا إلى حوار العشاق، أنا سئمت.

- هذا هو الحوار الحقيقي، وأتمنى لو كل شاب وصبية يكون الحوار بينهم على هذا المستوى.

- يا أبو أحمد، حوار العشاق عندك هو حوار سياسي اقتصادي.

- لا، لا يا أم أحمد، أرجوك تذكرني إعجابي بفيلم قبل الشروق، وجزأه الثاني قبل الغروب، شاهدناه معاً في الحاسوب قبل عامين تقريباً. لا أتذكر، الأيام المرة أنستني كل شيء.

- شاب التقى بصبية في قطار، ثم نزلاً معاً في فيينا، وأمضيا اليوم كله في التجوال في شوارع فيينا، وكان الحوار بينهما مثل الحوار بين كل العشاق، ليس فيه شيء، غير متعة الحكى، ثم ودعته وسافرت، أظن إلى باريس، وبعد عشر سنين، في فيلم آخر، جديد، عنوانه قبل الغروب،

التقت به مصادفة في باريس، في إحدى المكتبات، وهو يوقع على رواية جديدة من تأليفه، استرجع فيها ذكرى لقاءهما في فيينا.

- فيلم، حقيقة، ممل، لذلك نسيت.

- والله، حرت معاك، سوف أنزل الفيلمين، مرة ثانية، لنستمتع

بهما.

- اترك هذا الموضوع، قل لي ماذا قررت؟

- بخصوص أي شيء؟

- بخصوص العمل، في أي محل ستعمل؟

- لن أعمل في أي محل، هذا هو قراري، سوف أستمع عشرة أيام في

الاستمتاع بحياة المتقاعد.

- وتقع معي في البيت؟ تساعدني في المطبخ.

- نعم، ونزل كل يوم إلى حديقة السبيل، ونرفه عن أنفسنا، المشي

رياضة.

- يا أبو أحمد، لا راتبك يكفيننا ولا راتبي.

- نعيش على قدر هذين الراتبين.

- يا أبو أحمد، نحن ما اشتركنا بغير أمبير واحد، من أجل الإضاءة،

لا غسالة ولا ثلاجة، حتى ولا تلفزيون، الأمير الواحد صار بثلاثين ألف ليرة

في الأسبوع، راتبك وحده للأمبير.

- نلغي الأمير.

- أنا أعرف إحدى الأسر مشتركة بخمسة أمبيرات.

- وأنا أعرف أسرة مشتركة بعشرة.

- والحل؟ لا بد من حل.

يصمت.

- سأعمل في محل النظارات والعطور، سأتصل بحواس.

*

- أهلاً أستاذ وحيد.

- أنا قررت العمل في محل العطور والنظارات.

- جيد، أراك غدًا الساعة التاسعة أمام المحل، أوبالأحرى أمام

دوار الدلة، ونذهب إلى المحل معًا.

- لا تستعجل، أرجوك، أريد الاستمتاع عشرة أيام بحياة المتقاعد.

- أستاذ وحيد، الفراغ قاتل، أنت تقاعدت في ١٧ تشرين الثاني،

أي من شهر وسبعة أيام، أظنك مللت، ستباشر العمل يوم السبت ٢٤
كانون.

- لا بأس، ولكن أنا لا أعرف تركيب العطور، ولا خلطها.

- لا، لا، هذه عطور أوروبية، في زجاجات مختومة، وداخل صناديق

مغلقة، من يطلبها يعرف نوعها، ومع ذلك، إذا شئت افتح زجاجة واحدة،

أو افتح اثنتين، واحدة للرجال، والثانية للنساء، وكل من يدخل عليك

أكرمه ببخعة عطر، حتى لو ما اشترى، حتى ينتشر في الجو العطر.

- اتفقنا، ولكن عندي طلب.

- تفضل.

- سأحضر معي بعض الكتب، لأقرأ فيها، وأتسلى.

- إذا أردت، انقل كل المكتبة، أعرف، أنت متضايق من الكتب بسبب ضيق المنزل، في المحل قبو، مستودع واسع، يتسع لعشر مكتبات، وفي عمق المحل رفوف فارغة، ضع فيها الكتب التي تفكر في قراءتها.
- ممتاز، ولذلك، أرجوك، مربى بالبيت قبل التاسعة، حتى تساعدني في نقل مئة كتاب على الأقل في سيارتك، وسأنقل معي بعض الخرائط.

- حاضر، انا بخدمتك، وعندي لك بشارة.

- تفضل.

- حظك جيد، بيت سائق إحدى السيارات العاملة في نقل الأدوية في الأشرافية، سوف يمر بك عند الانصراف، ويوصلك إلى البيت، لكنه لا ينصرف من المستودع حتى الحادية عشرة، وأحياناً حتى الحادية عشرة والنصف.

- سأظل أنتظره إلى الفجر، لكن الآن عندي سؤال.

- تفضل.

- هل عند الأستاذ غسان، صاحب المحل، ابن مدرس أو بنت مدرسة أو قريب يعمل في التدريس؟

- فهمت قصدك، الأستاذ غسان صيدلي، وابنه الوحيد في أمريكا يتخصص في علم الأدوية، وليس له أي قريب يعمل في مجال التدريس، اطمئن.

*

ويضغط على يد أم أحمد.

- سمعت الحديث مع حواس، هل أنت مسرورة؟

- لا.

- والسبب؟

- سوف أحرم من وجودك معي في البيت.

- قبل قليل قلت: سوف أمل من قعودك معي في البيت، والآن...ما

هذا التناقض.

تعلق ضاحكة:

- هذا تكامل، لا تناقض، مثلما قلت أنت من قبل.

*

ويمشيان من باب السبيل إلى دوار الدلة.

وتتكلم أم أحمد:

- ما صادفنا الرجل، رحنا وجئنا من باب السبيل إلى دوار الدلة

مرتين، وما صادفنا الرجل صاحب الرجل المقطوعة!

- لا تقلقي، أنا غداً في أثناء عملي في المحل سوف أسأل عنه،

سيصله المبلغ.

- وبالمناسبة أنا أحصيت السيارات المرصوفة، وجدت عددها

عشرين، لا خمسين.

- قلت لك: كلام صاحب المطعم مجرد حكي، سيعطيه، أمامنا

مرة، وبعدها، الله أعلم، ماذا سيفعل، ولما قال عنه يمسخ خمسين

سيارة، هي كلمة هو قالها، الرجل مسكين، ويستحق المساعدة.

*

ويقف أمام دوار الدلة، ويشير إلى بناء مطل على بداية شارع النيل،
ويقول لأم أحمد:
- انظري، يا أم أحمد، هناك، إلى الشقة في الدور الرابع، فوق
البناء.

- نعم، شقة جميلة، إطلالة رائعة، على الجهة الجنوبية والغربية،
الشمس تسطع عليها من الشروق إلى الغروب، أجمل اتجاه في حلب،
وشارع النيل كله أمامها، وحديقة السبيل، الله يبنى أصحابها.
- هي الآن يعاد تأهيلها، انظري إلى الحجر الأبيض الجديد، هو
ترميم للجدار الجنوبي للشقة.
- يبدو لها قصة.

- نعم وراء كل شقة قصة، هذه الشقة اشتراها زميل لنا متقاعد،
هو زميلنا الأستاذ أبو جميل، غير أبو جميل رئيس الدائرة، من خيرة
الأساتذة، رجل علم وأخلاق، مهذب، ووضَّعه بئس، عنده ولد وحيد،
درس الطب، عمل في السعودية عشرينين، أرسل إلى والده كل ما حصَّل
من مال، اشترى لابنه هذه الشقة، أظن عام ٢٠١٥، وسكن فيها مع
زوجته حتى حين وصول ابنه، ما سكن غير شهرين، وكان ينتظر عودة
ابنه، حتى يزوجه، وفي يوم من الأيام وقت العصر كان في حديقة السبيل،
مع زوجته، وسمع صوت قذيفة، ونظر، حسي الله ونعم الوكيل، القذيفة
دخلت في شقته، احترقت الشقة، بكل ما فيها من فرش جديد، وتهدم
الجدار الجنوبي*.

* هذه إشارة إلى وقائع رواية " شقة على شارع النيل"، للمؤلف.

تعلق أم أحمد:

- حسبي الله ونعم الوكيل.

- وما انتهت القصة في احتراق الشقة، وصل ابنه إلى مطار دمشق،

وركب في الباص إلى حلب، ولكن قبل وصوله إلى حلب، عند خان
شيخون، نزلت قذيفة على الباص، وقتل هو وكل الركاب، مصائب، أيام
عصيبة، مرت علينا، الله لا يعيدها.

- حسبي الله ونعم الوكيل، وحاليًا يرمم الشقة ويعيد تأهيلها.

- لا، يا أم أحمد، الرجل لا أعرف أين أراضيه الآن، ميت، طيب،

هاجر، لا أعرف، الله أعلم.

- والله، قصة الشقة يكتب حولها رواية.

- قلت لك، يا أم أحمد، اكتبي رواية عن حياتنا.

- هذه ثالث مرة تقول لي اكتبي رواية.

- والله، أنا أحب الروايات، أظنك نسيت؟ عندي في المكتبة أكثر

من مئة رواية، وكلها قرأتها، وبعضها قرأته أكثر من مرة.

- وأنت كلما قلت لي اكتبي رواية زاد قهري، وأشعلت النار في قلبي،

ما الفائدة من الكتابة؟ عصرنا عصر تلفزيون ومسلسلات وفيس بوك

وو اتس أب، راح عصر الرواية، الرواية ماتت.

- الرواية ماتت، والشعر مات، والخرائط ماتت، ماذا بقي لنا؟

*

- والآن، ماذا سنفعل؟

- إلى البيت، سأوقف سيارة تكسي.

ويقف ليشير إلى سيارة أجرة.
- يا أبو أحمد، لن يرضى السائق بأقل من سبعة آلاف ليرة،
والطريق نمشي به عشر دقائق.
- ولا يهمك، صار عندي راتب خمسمئة ألف، وهذا أول مشوار
بالتكسي، لعيونك أم أحمد، كل مشاورينا ستكون بالتكسي.
- لا، سنمشي.
- الطريق، كله صعود، ويحتاج على الأقل إلى ربع ساعة، وهو
صعب.

- وليكن ساعة، معك، يا أبو أحمد، يسهل كل صعب.
- أعرف، الشقاء حلو.
- مع مَنْ نحب.
- هذا هو حوار العشاق.
يمسك يدها، ويمشيان صاعدين إلى القمة، حيث حي الأشرافية.

*

وهما يصعدان الدرج، يتصل بحواس.
- أهلاً أستاذ وحيد.
- غيرت رأيي.
- في أي موضوع؟
- سأحتاج إلى يومين أو أكثر لترتيب صناديق الكتب، واختيار بعض
الكتب لتنزيلها إلى المحل، بمساعدتك.
- هل تريد تأجيل العمل في المحل إلى يوم الأحد أول عام ٢٠٢٣؟

- جيد، بلّغ هذا للأستاذ غسان، قل له: ستكون البداية الفعلية مع بداية السنة الجديدة، الأحد، لكن سأجرب العمل في المحل، لذلك تمرّبي في البيت بسيارتك الإثنين ٢٦ كانون الساعة ١٢ ظهرًا، ننقل بعض الصناديق إلى المحل، ونرتب الكتب، وأتعرّف على المحل والبضاعة والأسعار، والثلاثاء ٢٧ أفتح المحل، وأعمل فيه أربعة أيام أو خمسة، للتعرف على طبيعة العمل، وتكون المباشرة الفعلية الأحد الأول من عام ٢٠٢٣.

- بأمرك، أستاذ وحيد، كل شيء مثلما تريد.

*

تتكلم أم أحمد:

- أنت متردد.

- لا أشتي العمل، ولا حتى في التدريس، ولا في رسم الخرائط، أدبت واجبي، وانتهى الأمر، من حق المتقاعد راتب يكفيه بقية حياته ويعيش عليه حياة كريمة، ويذهب في رحلات يطوف بها العالم.

الدخول في الجحيم

حبات شوكولا وكفوف صوفية

في التاسعة والنصف من يوم الثلاثاء ٢٧ كانون الأول يفتح المحل.
حوالي العاشرة
تدخل إلى المحل، تنفحها رائحة عطر فاغم، من وراء صندوق
المحاسبة ينهض.

*

لا شك هو في الستين، أسمر، عينان صغيرتان، نظرة ثاقبة، سترة
ذات ألوان متداخلة فاتحة، كأنها قوس قزح، قميص أصفر، ربطة عنق
خضراء، صاحب ذوق، أنف كبير مفلطح، صوته أجش مبحوح، مثل عطر
قوي.

*

- أهلا، تفضلي.

*

ترى صورتها في المرايا الكثيرة المتقابلة والمتجاورة، رأت جانباً من
شعرها الأشقر المنساب على كتفها الأيمن، أحست بطولها الفارع.

يظل واقفًا وراء منضدته، هو قصير، تلفت نظرها مزهرية أمامه
بجانب صندوق المحاسبة، فيها زنبق أحمر، منتصب كأنه رأس رمح، رأسه
يعلوه قطرة ماء متألقة، تتأملها، تبتسم، إلى جوار صندوق المحاسبة
نموذج بلاستيكي للكرة الأرضية، تمر بها، غير مبالية، تتأمل زجاجات
العطر، أشكالها تتثنى وتتمايل وترجّح، كأنها جوفة راقصات، نظارات
شمسية، تحت زجاج نظيف متألّق، مرآة مدورة مكبرة، ترى عينها في
المرآة، تلتفت:

- أريد نظارة شمسية، تناسب وجهي، تختارها لي أنت، على ذوقك.
يمشي في الممر الضيق بين رفوف النظارات، وجام العرض، يصبح
قبالتها.

*

وجهه نضر، يشع حيوية، مثل العطور، صوته الخشن المبحوح
كمنديل أحمر في يد مصارع الثيران.

*

- سيدتي، وجهك لطيف، تناسبه النظارة الكبيرة.
يتكلم وعيناه تحومان حول وجهها مثل عصفور تائه يبحث عن
غصن.

- لا، أنا أريد نظارة بعدسات صغيرة مدورة، بنية اللون قاتمة.
- سيدتي، وجهك واضح مشرق متألّق، ليس فيه غموض ولا
أسرار، هذه النظارة القاتمة المدورة تبعث الحيرة والقلق، بل الخوف،
وتوحي بالغموض والأسرار.

- صوتك مثل صوت زوجي، رحمه الله، فيه بحة جميلة كنت أحبها،
زوجي ضابط، كان، رحمه الله، يكثر من التدخين.
ويقدم لها نظارة وفق طلبها.
في المرأة المدورة المكبرة تتأمل العدسات القاتمة المدورة، تنال
إعجابها، وتتجه نحو الصندوق، تضع النظارة، تضع هاتفها الجوال
بجانها.
تلتفت إلى الزنبق.
- يعجبني هذا الزنبق الأحمر، كم هو جميل، حسبته في البدء من
البلاستيك مثل هذه الكرة الأرضية.
تميل عليه تشمه، تلمس القطرة المتألقة في قمته.
- هـو لك، تفضلي، خذيه.
- آه، لو أعطيتني إياه بيدك كنت أخذته.
ويمد يده ليناولها الزنبق:
- لا، لا أقبله الآن، اتركه لي هنا في المزهريّة، سأفكر أنا بأخذه في
مرة قادمة، لا تمنحه لأحد غيري.
تتلقى صوته المبحوح وهو يرد أشبه بالهمس:
- بأمرك، سيدتي.

*

- كم ثمن النظارة؟
- مئة وخمسة وعشرون، وخمسة دولارات ثمن العلبة.

- لا بأس، سعر مناسب، لا تعرف، لو كانت إيطالية كان ثمنها أربعمئة دولار، النظارات عندك كلها راى بان، هل تعرف، لكنها صينية، هي كوبي، وما هي أوريجينال، هذه الرفوف كلها وايفيرير، أنيقة، والرف الثاني أوفياتور، وهي عاكسة للضوء، والرف في الأعلى كلوب ماستر، وهذا النوع هو الأفخم، كم سعر النظارة من كلوب ماستر؟
- ثلاثمئة دولار.

*

تلفتت إلى زجاجات العطر، تتجه نحوها، تحس بمشيتها وهي ترى قوامها في المرايا المتقابلة والمتجاورة:
- أريد من العطور ما يشبه رائحة الزنيق.
صوته يؤكد بخشونة:
- هو عطر للرجال.
يرى فرقة ضحكها من خلال المرايا.
- أعرف، لن أستعمله.
تستمتع بانكسار نظرتة، واحمرار وجهه.
- هدية لزوجك؟
- قلت لك: زوجي متوفى.
يزداد وجهه احمراراً، وهي تضحك، رفوف العطر تردد صدى ضحكها.
- سأشمه قبل النوم.
عبر المرايا تراه وقد مال برأسه إلى جانب، كأنه يفكر، أو يتعجب.

يناولها زجاجة عطر من أحد الرفوف:

- تفضلي.

تصطنع الجد:

- هذا العطر الزنبقي سأهديه إلى والدي، هل صدقت حين قلت:

سأشمه قبل النوم.

يناولها زجاجة العطر، ويعلق جأداً:

- أنا آسف، اعتبريني مثل والدك.

ضحكتها تتردد أصدائها مع العطور وتتجاوب مع المرايا.

- لا أريدك مثل أبي، أريدك أنت، بائع العطور.

تمضي إلى صندوق المحاسبة، تضع الزجاجة بجوار الصندوق.

تخلع معطفها الفرو الأبيض، تضعه على الجام الزجاجي.

- اعدرني، خلعت المعطف من غير استئذان، محلك ضيق،

ومغلق، ودائي.

- من حقك، نحن في سادس يوم من أيام الشتاء، والبرد بدأ يشتد.

قميص أزرق كالبنفسج، مفتوح حتى فجوة التهدين عن صدر كزبد

البحر، أبيض متألق. القميص تحت إبطها ينديه عرق خفيف.

- بالمناسبة، أود سؤالك؟

- تفضلي.

- لماذا اخترت لي تلك الزجاجة؟

- لا أعرف، كل ما أعرفه: هذا الصف من العطور خاص للرجال.

تضحك، وتعلق:

- أحسنت، هذا اسمه جاكواربلو، هل تعرف ثمنه؟

- ثمنه مئة وعشرون دولارًا.

- لمعلوماتك هذه الرفوف تحوي أفخر أنواع العطور الباريسية

للرجال، باكور ابان، وديلان بلو، وجاكواربلو، وجاكواربلاك، أنت

أعطيتني جاكواربلو، وهو غوريدي، وهو غوبوس، هذه الرفوف بحد ذاتها

تحفة، لوحة فنية.

- أشكرك.

*

طوال حياتي لم أتعلم من طالب أو طالبة زجاجة عطر هدية، ولا من

مدرس ولا من مدرسة، ولا أعرف غير العطر العربي، الفل والياسمين

والورد، وكانت الزجاجة بمئة ليرة، أظنها اليوم بألف أو خمسة آلاف، من

عشر سنين ما اشتريت أي نوع من العطر، رائحة الحرب أنستني كل شيء،

حكيت لي زوجتي عن العرب في الجاهلية، أذكر قالت لي كان عند العرب امرأة

اسمها منشم، وكانت تصنع العطر، وإذا قامت الحرب غمسوا أيديهم في

ذلك العطر، نحن اليوم لا نشم غير رائحة الغلاء، والله أنت رائحتك أجمل

رائحة، ترى كيف كانت رائحة منشم، وما وجدوا لها غير هذا الاسم، منشم؟

طبعًا هي أسطورة.

*

- أحتاج الآن إلى عطريناسبني، سأعتمد على ذوقك.

- أنت لست بحاجة إلى أي عطر، عطرك طبيعي، أجمل من كل

العطور.

ترد بحدة:

- لا أطلبه هدية، سأدفع ثمن العطر.

*

آه، لو تعرف، أنا لست بائع عطور، أنا أستاذ جغرافيا، متقاعد.

*

- قلت لك لا أعرف أي شيء عن العطور، لا الرجالية ولا النسائية، سأعطيك زجاجة من هذا الرف.

يناولها زجاجة عطر، من الرف الأول، على يمينه.

تنظر إلى الرفوف، وفيها صناديق العطور، تشير إلى رف عال.

- لا، لا أريد هذه، أريد الزجاجة هناك، في الرف الرابع.

يحضر سلماً قصيراً، فيه خمس درجات، يصعد عليه، يحمل زجاجة، ويلتفت إليها يسألها:

- هذه؟

- لا، بجوارها، هي هناك، على اليمين.

*

حدثتني زوجتي مرة عن وصف امرئ القيس لفرسه، وها أنذا مثل حصان امرئ القيس، أحط مثل السيل في فتحة القميص، بين النهدين.

قطرة العرق بينهما أشهى.

*

- هذه؟

- لا بجانبها، تماماً، على شكل نهد.

يلتفت إليها، بكامل جذعه، وهو ينزل، مهدوء، ممسكا بالزجاجة،
بحرص، ولطف، يده ترتعش.

- واو، ما هذه النقطة في بنطالك؟
يحس بالدم يتدفق إلى وجنتيه وأذنيه.
- أشفق عليك، كم أنت محروم؟!
- العتب على الزجاجة، لمستها فأثارتني.
تضحك تقهقه:

- ماذا سيحصل لو لمست نهدي؟
- لن ألمسه.

- طبعا، ولا حتى في الأحلام.
يناولها الزجاجة.

تحتضن يده والزجاجة بين يديها.
- أهنئك، يدك باردة، أنا أكاد أحترق.
وتداعب فتحة القميص، تكاد تهتم بفك عروة جديدة، وهي تعلق:
- أرجوك، هل عندك هنا في المحل شوفاج، الجو حار.

*

أي شوفاج هذا؟! ولا مازوت، ولا بنزين، ولا كهرباء، وأنا أرتجف من
البرد، والمحل في الواقع رطب وبارد.

*

يمضيان إلى صندوق المحاسبة.
- هل تعرف اسم هذا العطر؟

يقرأ الاسم على الصندوق:

- شاليمار.

- وهل تعرف قصته؟

- لا أعرف.

*

أنا أعرف قصص الحرب والدمار والجوع والشهداء، كأنك ما عشت
مثلي قصص الحرب.

*

- هذا العطر له قصة، هل تعرف تاج محل؟

- نعم، قبر بناه الإمبراطور شاه جيهان لزوجته ممتاز محل في الهند.

- أحسنت، وكان يحيا، وفي حياتها صنع لها حدائق شاليمار،

وتعني معبد الحب، وزرع في الحدائق أجمل أنواع الزهور، وهذا العطر
الباريسي مستوحى من حب الإمبراطور لزوجته، ويحمل اسم تلك
الحدائق.

- لا أعرف هذه القصة؟

- وهل تعرف أسماء العطور في هذه الرفوف؟

- هي عطور نسائية، هذا كل ما أعرفه.

- عندك في الحقيقة أروع أنواع العطور الباريسية: شانيل بعدة

أصناف، وأبيوم، بأصنافه المتنوعة، ولافييه إي بل، ولافييه لانكوم.

*

سأقول لها أنا هنا بائع، واليوم هو أول يوم لي في العمل، وأنا أستاذ متقاعد، لكنها لا تترك لي فرصة لأتكلم.

*

تفتح الحقيبة وتسأله:

- كم صار ثمن الزجاجتين؟

- صار ثمن الزجاجتين مئتين وعشرين دولارًا.

- والنظارة؟

- ثمنها مئة وثلاثون، مع العلبة الممتازة.

تناوله ثلاثمئة وخمسين دولارًا.

يتحرك في مكانه جيئة وذهابًا، تلتفت تتأمل حركته في المرايا، تلحظ اضطرابه.

- أنا خجلان منك، أنا غير مستعد حاليًا.

تقاطعه ضاحكة:

- لأي شيء غير مستعد؟

- هذا أول يوم لافتتاح المحل، ما عندي ورق ألف به الزجاجتين،

لكن لكل زجاجة صندوق خاص، والنظارة لها علبة خاصة.

ترد بصوت هامس:

- واضح، واضح تمامًا، أنت خجلان وغير مستعد، وأنا مستعجلة.

*

وأنا متأكدة أنك لا تعرف كيف تلف زجاجة واحدة ولا زجاجتين، وخاصة النهد.

*

تضع المبلغ على المنضدة أمامه، وتلقي بالزجاجتين والنظارة في حقيبة يدها.

- أشكرك، لا أريد، لا تتعب نفسك، لا أريد العلبة، ولا الصندوق، أخاف عليك من لمس الزجاجاة مرة ثانية، أنا مستعجلة، كلها للاستعمال، لا أفكر في إهدائها لأحد، عندي سؤال: هل بقربك محل لبيع الشيكولاته؟ يفكر، يطيل التفكير:

- نعم، بعد هذا المحل بخمسة محلات.

وتمضي نحو الباب، يركض نحوها يقف في الباب.

- أعتذر إليك، لا أعرف كيف قلت لك: عرقك أجمل من كل العطور، سامحيني.

تضحك، تهقه، لا تكاد تستطيع التوقف عن الضحك، ونهداها يتر اقصان طرئاً، تعلق:

- حقيقة، أنت طيب، وعفوي، هل تعرف ماذا قلت الآن؟

- قلت عطرك أجمل من كل العطور.

تضحك أكثر فأكثر:

- لا، حبيبي، أنت قلت عرقك.

يمسح العرق عن جبينه.

- أعتذر، مرة ثانية، هي زلة لسان.

- زلة اللسان هي تعبير عما في الوجدان.

- أعتذر، أسحب كلمتي.

تسأله، وهي تصطنع الجد:

- لماذا تسحب كلمتك، هل تراني لا أستحق؟

يصمت، يتردد:

- لا أعرف، ماذا أقول؟

- تعرف، لكن لا تجرؤ.

*

قبل يومين قالت زوجتي: لا أجرؤ، فقلت لها في نفسي: أستحي، أخجل، أخجل، عيب، لا أجرؤ، كلمات، يا أم أحمد، فقدت معناها، غابت عن الواقع، وأظنها مُحييت من المعاجم، حتى من المعاجم القديمة، أو أكلها العفن والرطوبة. نعم: لا أجرؤ، نحن جيل تلك القيم.

*

ترتدي معطفها، تفتح الباب، تهتم بالخروج، يمسك الباب، بيده:
- أعتذر، للمرة الثالثة، صديقي، ما قلت لأي واحدة قبلك مثل هذا الكلام.

تضحك، ضحكة واسعة، وتقول:

- لا تعتذر، كلمتك حلوة، سرتني، ولن أنساها، لكن رجاء، لا تقلها لأي امرأة أخرى، حتى زوجتك، أشكرك.
يتلقى كلمة أشكرك، وهي تخرج.

*

يمضي نحو عمق المحل، هي ما تزال موجودة، يحس بخطوتها، بالتفاتتها، بحركتها وهي تتمشى، وهي ترد شعرها الأشقر عن جانب وجهها،

حركة يدها وهي تفتح الحقيبة، وهي تداعب فتحة القميص عن صدرها،
ينظر في المرايا، لعلها تعكس صورتها، يمضي نحو مكانه من صندوق
المحاسبة.

يرجع إلى عمق المحل.

يقف أمام صفوف الكتب الهاجعة فوق الرفوف، ينقر عليها
بإصبعه، كأنه يعزف لحنًا شجيًا على مفاتيح بيانو عتيق، تهدلت أوتاره،
واسترخت.

*

كتب متراكبة يستند بعضها إلى بعض، مثل حجارة دومينو، تنتظر
دفعة صغيرة بالإصبع لتهوي ويتتابع سقوطها. كم كنت أعتز بك، وكم كنت
أفخر، أقطع من لقمتي وأشتري الكتاب. كم أنت الآن متعبة، وثقيلة،
وبائسة، أنقلك من مكان إلى مكان، ولا أعرف أين سيكون مصيرك؟

*

في المرأة التي أمامه، يراها في الباب، يلتفت، فإذا هي تقتحم المحل
بطولها ومعطفها الأبيض، وشعرها الأشقر ومشيتها، وبالعرق تحت إبطها
وبرائحة الأنوثة، وبضحكة عريضة.

- جئت لأخذ هاتفي الجوال، نسيت ههنا عندك، بجوار الصندوق.

ينظر يرى الهاتف، يحمله يقدمه إليها:

- تفضلي.

تحمله، تنظر فيه، تسأله:

- هل أخذت رقي؟

يتلعثم، يتردد:

- لا، وكيف أخذه؟ صدقيني لم أنتبه إلى وجوده.

- أعطني رقم هاتفك الجوال، إذا سمحت.

- تفضلي، اكتبي.....

- هل هذا رقمك؟

- لا، هذا رقم هاتفي الجوال.

*

يسرني هذا الجواب، ليتك تتفاعل معي هكذا دائماً، كما قلت أنت،
الخلج يقتلك، حتما سوف تموت قتلاً، ستقتلك امرأة، وليت قتلك يكون
على يدي.

*

- والاسم؟

- وحيد.

- والكنية؟

- يكفي وحيد.

- وهل أنت وحيد في الأسرة؟ أوفي حلب؟ أوفي العالم؟

- يوجد في العالم مليون وحيد، لكن أنا وحيد في جوالك.

- سأتصل بك ذات يوم.

ترن له، وهي تقول:

- اكتب إلى جانب الرقم اسمي.

- ما اسمك؟

- احزر.
- لا يمكن أن أعرف!
- اخترأي اسم، المهم أنا، لا الاسم، أعطني أي اسم تراه يناسبني.
- حنان.
- هذا اسم جدة جدتي، أريد من الأسماء الحديثة.
- نهاوند.
- ثقيل.
- ماذا أسميك؟
- آه، ليتك سميتني، وأرحتني، أتعبتني، سأمر بك بعد أسبوع،
لعلك تفكر في تسميتي.
- نوال، جود، مرج.
- اسم نوال مقبول، أحسنت، ولكن ليس هو اسمي، لكن إذا شئت
نادني: جلنار.
- يرى أناملها البيضاء وهي تودعه من بعيد بحركات لطيفة، يرجع
إلى مكانه.

*

- يحس بنداوة العرق على جبينه، إلى جانب رقمها في الجوال يكتب
اسمها، نوال. جلنار.
- قبل أن تغادر، وهي في الباب، تقول له، وهي تغمز بعينها نحو
البقعة في بنطاله.
- ماذا ستفعل بعد خروجي؟

*

تلامس أذنيه وسوسة ناعمة صوت حنون، يهمس:
- مرحبًا.

ظهره إلى الباب، يتأمل الكتب في عمق المحل، ويرسل زفرة، يلتفت.
وجه أبيض مدور، عينان سوداوان، شعر أسود ينسدل على جانبي
الوجه، تتقدم نحوه.
- مرحبًا.

*

أي تحية هذه، مرحبًا، ثقيلة، متخلفة، غير حضارية، لكن يشفع لها
هذا الوجه الطفولي الجميل، وإن كانت فيما يبدو في الأربعين، أو أكثر.

*

- أهلا وسهلا، تفضلي.
تنظر في أرجاء المحل مبهوتة.
- عفوا، رأيت من وراء الواجهة رفوف الكتب، ظننت محلك
مكتبة، كنت أفكر في شراء بعض الكتب، لكن فوجئت، محلك لبيع
العطور والنظارات.

- هذه مكتبي الخاصة، ليست للبيع، وفيها بعض الروايات
قرأتها أيام الشباب إذا أردت أعرتك بعضها، عندي روايات مترجمة إلى
العربية: روبنسون كروزو، الشيخ والبحر، وداعًا أيها السلاح، دون
كيشوت، جين إير، توم سوير، الكونت دي مونت كريستو، ذهب مع
الريح، جزيرة الكنز، قصة مدينتين.

- اختيارك فوضوية، عشوائية، لا رابط بين هذه الروايات.
- هي من أيام الشباب.
- هذه كلها قرأتها بالإنجليزية، أنا مدرسة لغة إنجليزية، في مدرسة الطليعة، هنا قريبة، بين شارع النيل والخلدية، طوال الطريق من أول شارع النيل إلى هنا، وأنا أفكر في هدية مناسبة، ونظرت الآن إلى زجاجات العطر، وفكرت فيها، لكنها أوروبية، وغالية.
- هل من الممكن سؤالك لمن الهدية؟
- عندي طالبات متفوقات، سأقدم لهن هدايا بمناسبة انتهاء الفصل الأول من السنة الدراسية.
- كم طالبة عندك؟
- عندي أربعون طالبة، لكن المتفوقات عشر طالبات، سأهدي المتفوقات.
- سأهديك عشر روايات، هي هدية لك، ولطالباتك.
- طالباتي صغيرات، في الصف الأول الإعدادي، وهذه الروايات غير مناسبة.
- مناسبة جداً، ما فيها إباحة ولا جنس.
- أنا أقصد، هي فوق مستوى طالبات الصف الأول الإعدادي.
- في ظني هي مناسبة، وعلينا رفع المستوى الثقافي للطالبات، لا النزول إليه.

- تعببت، وأنا أبحث، مررت بمحلات التجميل وأدوات الزينة،
فكرت في أدوات التجميل، لكن طالباتي صغيرات، ومهذبات، بعيدات عن
المساحيق والعطور وأدوات الزينة.
- الطالبة دائما تقلد معلمتها.
- أنا لا أستعمل أدوات الزينة ولا العطور.
- طبعاً، جمالك يغنيك عن أي زينة.
ترد بخجل أشد:
- أشكرك، ولكن أنا غير جميلة إلى هذا الحد، أشكرك.
تحس بالدم تدفق إلى وجهها.
- سأتجول مرة ثانية، في شارع النيل، وإذا لم أجد هدايا مناسبة
فسوف أرجع إليك.
- أهلا وسهلا بك، ومن الآن سأنتقي لك عشرة كتب، وأرجو أن
ترجعي، ولو اشتريت هدايا، قدمي لطالباتك هذه الكتب، وعندي كتب
أخرى، تذكرت: عندي كتب المنفلوطي كلها: النظرات، ثلاثة أجزاء،
والعبرات، والفضيلة، كل المدرسين ينصحون لطلابهم بهذه الكتب،
وتذكرت، عندي كتب جبران خليل جبران.
صوتها ينسكب في أعماقه، وعيناها تتألقان براءة وطفولة،
حقيقة، لا مساحيق على الوجه، ولا كحل، ولا أساور ولا عقود، لا
حقيقية، ولا مزيفة.
تهم بالمضي، يناديهما:

*

أكرهك، أتحنس من العطور، لم أنتبه لوجود العطور، ليتني ما دخلت إلى محلّك، عجوز في السبعين، وتريد مغالتي، للأسف، وجه ملأته التجاعيد، وسترة متألّقة، وألوان متناقضة، لا ذوق فيها.

*

- يا أنسة.

تلفتت، تقف، وهي في الباب، تسأل بنبرة جافة:

- نعم؟

*

مغرور، ثرثار، معتاد على الثثرة مع الزبونات، وهذه الكتب اشتراها ذات يوم من بائع على الرصيف، ليصطاد بها الصبايا، أتمنى لو كان معي بارودة أبي لأطلقت عليه النار، مع أنني أعرف، أن يدي ترتجف، ولا أحسن التصوير.

*

- يا أنسة، هل عملت في قرية السفيرة؟

وترجع.

- نعم، هل أنت من السفيرة؟

- لا، ولكن زرتها عدة مرات، في السنوات الأربع الماضية، في كل

سنة مرتين تقريباً، ومتى انتقلت إلى حلب؟

*

مضحك، سخيّف، هل ذهب إلى السفيرة لبيع النظارات والعطور هناك؟ أسئلة مملة؟ ماذا يريد مني؟ وهل ذهب إلى السفيرة في تجارة، أو

للنزهة؟ وما هي موضع نزهة، خمس سنين من الشقاء فيها وتعب السفر حتى انتقلت إلى حلب.

*

- هذا هو العام الثاني لي في حلب، العام الماضي انتقلت.
- وفي أي مدرسة أنت حاليًا؟
- في مدرسة الطليعة، بين شارع النيل والخالدية، ذكرت لك هذا، قبل قليل، لكنك نسيت.
- ترجع، تنظر فيه، تتأمله.
- كأني رأيتك من قبل.
- أنا رأيتك أكثر من مرة.
- في السفارة؟
- نعم، وفي حلب، مرة رأيتك في مكتب رئيس الدائرة الأستاذ أبو جميل، وأنت تتابعين أوراق نقلك إلى حلب، ومرة دخلت إلى مكنتي، وسألتني: هل سيأتي اليوم إلى مديرية التربية موجه اللغة الإنكليزية الأستاذ منذر؟
- تصمت، ترجع إلى منتصف المحل.
- اعذرنني، نسيت، لا أتذكر، تعبت جدًّا في معاملة الانتقال، الأستاذ منذر أتعبني، نقعي خمس سنوات، وما نقلني إلا بعد استكمال السنوات الخمس، لكن شهادة لله، هو رجل حق، أنا لا أحبه، لكن أحترمه.
- وأنا تعبت مثلك وأكثر في إنجاز معاملة التقاعد.

- لم تعرفني إلى نفسك، أستاذ؟

- أنا الموجه الاختصاصي لمادة الجغرافيا، ورأيتك مرتين أو أكثر في غرفة المدرسين والمدرسات في السفيرة، في أثناء قيامي بجولة أنا والأستاذ منذر.

- أوه، أنت الأستاذ وحيد، أنا نهى، اعذرني أستاذ، وبصراحة، أول دخولي سألت نفسي لماذا هذه الخرائط مدلاة هنا من السقيفة، نسرين زميلتي في المدرسة، مدرسة جغرافيا، حدثتني عنك، تذكرك دائماً بالخير، سَمِعْتُكَ مثل المسك، الكل يذكرك بالخير، وماذا تعمل الآن؟ هل المحل محلك؟

- تقاعدت، وعَرَضَ علي صديق العمل هنا في محله، وهذا أول يوم لي.

- بالتوفيق، أستاذ، اعذرني، وبصراحة، وسامحي، أول حديثك معي، لا أعرف ماذا أقول، جعلتني أتذكر والدي، يرحمه الله.
- يرحمه الله، واعتبرني مثل والدك.
- لي الشرف في ذلك.

*

كنت أكره والدي، يرحمه الله، يقعد أمام دكة خشبية، في فناء الدار، في قريتنا، يفرم التبغ، ويلف السجائر بورق صغير رقيق، كنت أشتي سرقة وريقة من ذلك الورق، ثم ينفث الدخان، ويسعل، حتى يكاد يختنق، وحين يضعني في حضنه ليقبلي، أتحمس من لحيته الطويلة الخشنة، ومن

رائحة التبغ، آه، لو تعرف كم كنت أكره أبي، ولكن بعد وفاته بدأت أحبه،
يرحمه الله.

*

- متى توفي؟

- توفي، وأنا في الثانية عشرة، شيء وحيد أذكره فيه، وأحبه،
علمني كيف أكون جريئة، كان يصطحبني أنا وأمي إلى الجبل، بين أشجار
الزيتون، وكان يعلمني إطلاق النار من بارودة صيد، على علبة تنك، وأمي،
الله يرحمها، كانت تعاتبه، وتخاف عليّ من ارتداد البارودة، وأنا طفلة،
وما مرة أصبت الهدف، لكن علمني الجرأة.

- متى توفيت أمك؟

- توفيت أُمِّي في عام نيلى الشهادة الثانوية، فرحت بي أشد الفرح،
ولكن إخوتي حاولوا منعي من النزول إلى حلب، عندي ثلاثة إخوة، نزلت
إلى حلب، ودرست في قسم اللغة الإنكليزية، كنت أدرس وأعطي الدروس
الخصوصية حتى أعيش، إخوتي حرموني من الميراث، عندنا خمسمئة
شجرة زيتون، استولوا عليها كلها، ثم تخاصموا، أحد إخوتي استشهد،
وشجر الزيتون كله احترق، الله يلعن الحرب، أنا تعلمت الاعتماد على
نفسي، والآن أعيش مع سيدة عجوز، في حي الخالدية، تؤجرني غرفة
واحدة، دارها شعبية متواضعة، الله يمد في عمرها، أولادها ينتظرون
موتها ليترثوا الدار، ويبنوا في مكانها عمارة، سامحني، أنا ثائرة.
- أهلا بك، سرني حديثك، وهو مثل حديث كل الناس في بلدنا.

- الحقيقة، أول دخولي المحل، شعرت بضيق وتوتر، وسامحني،
انزعجت من عرضك عليّ الروايات للإعارة، وبصراحة، وسأجعلك
تضحك، تمنيت لومعي بارودة والذي لأصوبها عليك، لكن اطمئن، ما من
مرة أصبت الهدف.

يضحك يقهقه.

- وما أدراك، اعتبري نفسك أطلقت، وما أصبت الهدف.
- أشكرك، ولكن الآن، اطمأن قلبي إليك، وأحس حقيقة أنت مثل
والدي.

- شكرا لك.

- سأبحث هنا في شارع النيل عن أي هدية مناسبة لطالباتي، وإذا
لم أجد أي هدية مناسبة، سأعود إليك.
- ولو وجدت هدايا مناسبة عودي، زيارتك لي تسرني.

*

تفتح باب المحل، تدخل، تندفع إلى عمق المحل، ينهض من وراء
صندوق المحاسبة.

- من هذه الخنفساء التي خرجت للتو من المحل؟

- زبونة.

- ماذا اشتريت؟

- ما اشتريت أي شيء.

- غاالتها؟ طبعًا، أعرفك لا تقدر الجمال الحقيقي، رأيتها، عرفتها، وهي تخرج من المحل، تفرق شعرها الأسود في المنتصف، مثل مجنونة، لا يهتمي.

تتقدم منه، وهي تحمل إلى صدرها كيسًا ورقيًا، تنطلق بمرح زائد، ثم تقف فجأة، وتسأل وصوتها يتقطع لاهثة بغضب:
- الزنبق كان هنا، بجوار صندوق المحاسبة، هو الآن هنا على الجام، من نقله؟

يتلعثم، يتردد، تصبح وحنجرتها تبح:
- أعرف، أردت إهدائه إلى تلك الخنفساء، فلم تقبله، غبية، لا تفهم معناه، قلت لك هولي.
يحاول الكلام:
- والله ما حركته من مكانه، أنت توهمت.
- لا تقل أي شيء، أعرف.

*

تتقدم منه، تضحك، المرايا تعكس رنة ضحكة منطلقة، تمد إليه راحة يدها، بمرح، وفيها خمس قطع شيكولاته، وصوتها خافت في نبرة ناعمة:

- تفضل، شيكولاته، طعام العشاق، نوع فاخر، متميز، لم تذق طعمه من قبل.

الإيهام والسبابة تمتدان نحو راحة يدها، ليلتقط حبة واحدة، تسحب يدها بسرعة خاطفة، وقد أطبقت عليها أصابعها.

- لم تعرف كيف تأخذها، كنت أتوقع منك أخذ يدي كلها، لا حبة شيكولاته واحدة.

- أنسة نوال، أنا أسف، اعذريني.

تحس بصوته المبحوح كأنه عطر جارج، تتكلم بصوت مخنوق:

- خيبت ظني، نادني جلنار، عندي بكرة سهره، ستأتي صديقاتي لوداعي، أنا مسافره إلى كندا، هذه الحبات الخمس اشتريتها خاصة لك، لم تذق مثلها، غير شيكولاته الضيوف.

تصمت، تحس بالقهر.

تضع الحبات الخمس على الجام، حبة بعد حبة، بين كل حبة وحبّة مسافة.

يتأمل الحبات بصمت.

- أنت لا تعرف، كل حبة بعشر سنوات، تأكلها، فتعود طفلاً.

- أنا محرج، ليس عندي ضيافة، هذا أول يوم لي في المحل، قلت لك: أنا غير مستعد.

تعلق بلهجة ناعمة:

- أعرف، أنت غير مستعد.

يتناول الحبات جميعاً، يمضي بها إلى مكانه وراء صندوق المحاسبة.

- شكراً، سأخبئها، الآن لا أشتئها.

- عرفت، ستخبئها لتطعم بها تلك السوداء، لا شك، سترجع إليك.

- لا، خبأتها لأتناولها فيما بعد.

- تمنيت لو أطعمتني واحدة بيدك.
- يحمل الحبات الخمس في راحة يده ويقدمها إليها:
- تفضلي، خذي واحدة.
- شكرا، لا أريد.
- تصمت.
- تمنيت لو اخترت أنت حبة، وقسمتها نصفين، وأطعمتني بيدك أحد النصفين.
- يمسك حبة، ويهم بقسمها بيده:
- لا، لا تقسمها.
- ماذا أفعل؟ فكرت في قسمها بأسناني، لكن خشيت عدم قبولك لها، خوفاً من الكورونا.
- الكورونا راحت، خببت توقعي للمرة العاشرة.
- تصمت، يحس بانكسار، يروح ويعي في مكانه.
- سأتركك وأمضي، لكن، عندي سؤال.
- تفضلي.
- عندي بكره حفلة، قلت لك، وكنت واعدة صديقتي رُبي نطلع أنا وهي غداً في الصباح إلى حماه، نشترى حلاوة الجبن، وسمنة حديدية، حماه مشهورة بسمنة الغنم الحديدية، تصنعها عشيرة الحدادين، مشهورة بالسمن من زمان، ونشترى جبنة مشللة من محل الدريعي، وجبنة القشقوان، عنده أفخر أنواع الجبن، ما رأيك نطلع الآن أنا وأنت إلى حماه؟ الساعة الآن العاشرة والنصف، نتناول الغداء في مطعم

العروس، وهو مطل على نهر العاصي مباشرة، وأمامنا الناعورة، وتناول
السختورة، هل تعرف السختورة؟

- أعرف السختورة، هي سفينة صغيرة، هكذا اسمها في اللادقية.
تضحك، تعلق:

- السختورة، صينية مدورة، مملوءة بالرز، وفوقها رأس خروف،
مسلوق، نحن نسميه في حلب قشة، وحواله القباوات، مثلما هي عندنا
في حلب، والرز مغرق بمرق القشة، هذه هي السختورة في حماه.
- رأس الخروف يشبه السختورة، ولذلك أظن سموها سختورة.

- المهم، نتناول السختورة، نمضي النهار، ومن ناحية البززين لا
تقلق، نعم، البززين مفقود في البلد، لكن أنا أعطيت السائق السيارة
أمس في الليل، ملأ لي الخزان بالكامل، خمسة أضعاف السعر الرسمي، لما
يوجد المال يوجد كل شيء، سيارتي أوقفتها هناك، قبل المحل، بعشرة
أمتار، بصعوبة حتى وجدت هذا المكان، وما رأيك عندي صديقة في
حماه، ندعوها لتتناول الغداء معنا، صبية، أرملة، ننام الليلة عندها،
ننام أنا وأنت في سرير واحد.

يضحك، يعلق:

- مستحيل.

- ما من مشكلة، نضع السيف والمصحف بيني وبينك، إذا اقتربت
أنا منك، أمسك أنت بالمصحف، وإذا أنت حاولت الاقتراب مني، أحمل
السيف وأضرب به عنقك.

يضحك، يعلق:

- لا، السيف لي، والمصحف لك.
- وهل عندك استعداد لضربي بالسيف؟
- أحاول.
- الضربة لا تحتاج إلى محاولة، إما، وإما، على كل حال، هي مجرد حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة، ونعود إلى قصة السفر، على شرط، أنا أسوق في الذهاب، وأنت تسوق في العودة.
- ما عندي رخصة سواقة.
- انتهت صلاحيتها؟
- لا، ما عندي شهادة سواقة على الإطلاق.
- وسيارتك، عندك سائق؟
- لا سيارة ولا سائق.
- لا تمزح.
- والله.
- الوكيل الحصري لعطور شانيل الباريسية والوكيل الحصري لنظارات راي بان، وما عندك سيارة؟ تحب رياضة المشي.
- أنا بائع في المحل، ما أنا الوكيل وما أنا صاحب المحل.
- تصمت، تدهش، تخلع معطفها، تضعه على الجام الزجاجي.
- فعلا محلك ضيق، وأنت رفعت حرارتي، لا أعرف.
- أنا أستاذ متقاعد، اقترح عليّ الأستاذ غسان العمل في المحل، الأستاذ غسان هو الوكيل الحصري.
- متقاعد.

- نعم
- ماذا درست؟
- الجغرافيا.
- هنيئاً لك، عرفت العالم كله.
- عرفت العالم كله، ولكن لم أغادر مدينتي، عرفت العالم على الخرائط، أنهار بلا مياه، ومدن بلا سكان، وجبال بلا تراب، عرفت كل شيء، ولم أعرف أي شيء.
- تعال سافر معي، بعد أسبوع أنا مسافرة إلى كندا، أبي وأمي وإخوتي كلهم في كندا، أبي باع كل شيء، وسافر مع العائلة إلى كندا، وأنا سافرت معهم، أيام الحرب، الناس كلها هاجرت، لكن أنا رجعت من أجل زوجي، لكن بعد ما أخذت الجنسية، ابني تركته في كندا، لكن فور عودتي، بعد سنة، توفي زوجي.
- قلت لي هو ضابط، استشهد؟
- لا، توفي، بسرطان الحنجرة، من فرط التدخين.
- يرحمه الله.
- الآن عرفت، لا شك، صوتك مبحوح من التدريس وغبار الطباشير، كنت أظن من رائحة العطور، أحببت الآن هذه البحة أكثر، هو يشبه صوت زوجي.
- يرحمه الله.
- كنت أسأل نفسي لماذا هذه الكتب وراءك، والكرة الأرضية إلى جوارك، والخرائط المدلاة من السقيفة، كنت أظن الخرائط دعاية

لشركة راي بان، وفسرت وجود الكتب بهوايتك المطالعة، وجودها في الحقيقة غريب، لكن الآن عرفت، هذه الخرائط كانت مساعدة لك على التدريس، وهذه كتب تدريسية.

- لا، هذه الخرائط من رسمي أنا، وهي مطبوعة في لبنان وموزعة في الوطن العربي كله، واسمي أسفل كل خريطة، هنا في الزاوية. تقترب، تقترب أكثر، تنظر في الخرائط.

- وحيد، نعم، هذا اسمك، والكتب؟ هي من تأليفك؟
- بعض كتب الجغرافيا المدرسية من تألّفي بالمشاركة مع زملاء آخرين، باقي الكتب روايات، كنت أهوى قراءة الروايات، هذا قسم بسيط من مكتبي.

- متقاعد، وقاعد في المحل، تشتغل لحساب غيرك، وراضي، ومبسوط، هل هذه معيشة؟ وغلاء، وخراب، ودمار؟ ومعلق فوق رأسك خرائط، تفتخر برسمها، وما عاد لها قيمة، الحاسوب يرسم أدق منها، والأقمار الصناعية تصور، الطفل الصغير اليوم يفتح على غوغل ماب وخرائط العالم كلها أمامه، تعال، سافر معي إلى كندا، قلت لك أنا عندي جنسية كندية، بعد بكرة نذهب إلى المحكمة، نعقد القران، وتسافر معي فوراً، ماذا تنتظر؟

يصمت.

- أعرف جوابك، السلام عليكم.

تمشي، تصل إلى قرب الباب.

يناديه:

- السيدة نوال، السيدة جلنار.
- تتوقف عند الباب، تلبث بضع ثوان، ثم تلتفت فجأة.
- نعم.
- نسيت معطفك.
- تضحك، تقهقه.
- والله، أنت أنسيتي كل شيء، فعلا، أنت وحيد.
- السيدة نوال، كل واحد منا له قصة، ولا تظني الهجرة سهلة.
- كل شيء سهل، بالمال، وكل شيء صعب، بلا مال.
- أحيانا أفكر مثل تفكيرك.
- أنت تفكر ولا تفعل، وأنا أفعل ولا أفكر، التفكير جنون، بالله عليك، قل لي، من ربط لك هذه الكرافات؟
- أنا.
- هذه عقدة صغيرة ناعمة، مشدودة، أظنها زوجتك ربطتها، تريد خنقك بها.
- لا والله، أنا.
- هات، فكها، لأربطها لك في عقدة سهلة مناسبة، كلما وضعتها تفكها وتعيد عقدها، تتذكرني.
- شكرا، لا أحب فكها وربطها في كل مرة، أرتاح إليها وهي هكذا جاهزة.
- آه، فهمت، تريد كل شيء وهو جاهز، لا تريد إزعاج نفسك، فهمت.

- أنا لم أفهم قصدك.

- طيب، اسمع مني، نصيحتي، اخلعها، وافتح أزرار قميصك،
ليظهر شعر صدرك، هل تعرف؟ المرأة تحب ظهور شعر الصدر من
القميص.

- شكرًا.

- أوف، شكرًا، شكرًا، شكرًا، كل كلمة شكرًا، وأنت لا تريد تنفيذ ما أقول،
ما معنى شكرًا؟

- أنا معتاد عليها.

- معتاد على شكرًا.

- لا، معتاد على ربطة العنق.

- هل تعرف؟ في محل الشيكولاته، شاب، حلو، أسمر طويل،
شعره مثل هرم خوفو، ولحيته مثل لحية الكهنة الهنود، سوداء طويلة،
وفاتح قميصه عن شعر صدره، هل تعرف، حاول مغالتي، والله، كنت
سأحمل حقيبتك هذه وأضرب بها وجهه.
- وما علاقتي بهذه القصة؟

- اصبر حتى أكملها، أنا دائما أحمل معي مسدس زوجي في هذه
الحقيقية، لكن اليوم ما حملته، من حسن حظك، لو كان معي الآن، لكنك
أخرجته، وأطلقت عليك تسع رصاصات، لا رصاصة واحدة، لا تسافر إلى
كندا، ابق هنا.

تتناول معطفها، تحمله على يدها، وتهتم بالمغادرة.

*

قبل وصولها إلى الباب يظهر الرجل صاحب الجلابية الصيفية
البيضاء، يدخل، يتوجه إلى الأستاذ وحيد، يوجه مسدسه الوهبي إليه،
ويصيح:

- طاخ، طاخ.

ثم يخرج.

تضحك، تعلق:

- للأسف، سبقني هذا الأبله إلى قتلك، ولكن ما زال عندي أمل.

- في أي شيء؟

- طبعاً، في قتلك مرة ثانية، بتسع رصاصات، لا في السفرمعي، ولا

حتى إلى حماه، أنت قتلتني عشر مرات.

*

أفكر في اصطحاب هذا الأحمق معي، بدلاً منك، هو على الأقل يملك
مسدساً وهمياً، ويفكر في القتل، وعنده صوت، يصبح طاخ، طاخ، وأنت لا
صوت ولا تفكير في القتل، ولا مسدس حتى ولو وهمي. أحمق وحمقاء هو ما
يحتاجه هذا العالم. لا مثلك، رسام خرائط، على ورق.

*

- أرغب في إعطائك هدية.

- شكراً، سلفاً، لا أريد.

- لم تعرفي ما هي.

- حتى لو كانت قبلة، فأنا لا أريدها، شكراً، كما تقول أنت.

- سأعطيك خريطة من رسمي وبتوقيعي.

- لا أريدها، خرائط العالم كلها عندي.

تقف، تصمت قليلا، ثم تلتفت:

- أستاذ وحيد، سامحني، أثقلت عليك بالمزاح، مثلما رأيت أنا
مرحة، وأحب الحياة، ولكن آه، لو تعرف ما في القلب من آلام وجراح، أنا
عرفت طيبة قلبك، لذلك بالغت في المزاح معك، حكيت لك عن الشاب
بائع الشيكولاته، أراد مغالتي، فتركت المحل ومشيت، مرة أخيرة،
سامحني، أثقلت عليك.

يبتسم:

- أعرف، عرفت هذا كله، واعدريني، أنا أيضًا كانت عندي
استجابات لا إرادية.

تضحك تعلق:

- لا تخجل، هذا طبيعي، وأنا كان عندي أكثر منها، المهم عرفنا
بعضنا، سلام.

*

تخرج، من غير حتى إشارة وداع.

تدخل سيارتها.

يسمع هدير محركها، وصوت العجلات وهي تسحج الإسفلت.

*

يمضي إلى رفوف الكتب.

يستل منها عشرة كتب، يتأملها.

يضع حبات الشيكولاته الخمس في درج المكتب أمامه.

ينقر بإصبعه على الكرة البلاستيكية، فتدور، وتدور معها القارات والبلاد.

*

من البدء أنا عرفت، هي شخصية مرحلة، وكانت تمزح، لكن مع ذلك، أحس كأني كنت في حلم، غير معقول كل ما حصل، لن يصدقني أحد إذا حكيت له، ولئن سأحكي، الحقيقة وقعت في حيرة، هل أكون معها جافاً، أو أتجاوب معها، حاولت أن أكون بين بين، نموذج لا يتكرر.

*

تدخل نهى، مشرقة الوجه، والضحكة تملأ وجهها.
- احزر، أستاذ، ماذا اشتريت للبنات هدايا؟
- لا أعرف.
- واشتريت واحدة لك.
عيناها السوداوان تتألقان فرحاً، ضحكة طفولية تملأ وجهها.
- مقبولة، سلفاً، ولولم أعرف ما هي.
- طبعاً، أنا عرفت، لن تردني خائبة، تفضل.
وتناولته كيساً ورقياً صغيراً، يفتحه، وإذا فيه زوجان من الكفوف الصوفية.
- محلك واسع وبارد، وأحسست بالبرد في يديك، ولولم ألدسهما، أنت أبي وأستاذي، فاشتريت لك هذين الزوجين من الكفوف لتدفأ بهما.
- شكراً، أجمل هدية، أعتز بها، ولكن ليس عندي ما أهديك بدلاً منها.

- أنا أهديتك بدافع محبة البنت لأبيها، لا لكي تهديني بدلاً من هديتي.

- أنت صاحبة الذوق.

- وهذه خمسة أزواج من الكفوف الصوفية أيضاً لطالباتي المتفوقات، كنت أتمنى لو اشتريت لكل طالبات الصف، مساكين، البرد يقتلنا جميعاً، أعطي الدرس ولا تدفئة، وبعض الطالبات ليس عندهن معطف شتوي، الشهر القادم، سأشتري خمسة أزواج أخرى من الكفوف، راتي لا يحتمل شراء عشرة.

- وهذه عشروايات اخترتها هدايا لطالباتك، هل يمكنك حملها؟
- سأحملها، ما من مشكلة، ولكن لا أريدها هدايا، أريدها إعارة، سأعطي كل طالبة رواية إعارة، لكي تقرأها، وتلخصها، وتعيدها، إذا أعطيتها الرواية هدية، فلن تقرأها.

- على كل حال الروايات هدية لك، تصرفي بها كما شئت، وفي زيارة قادمة سأهديك عشروايات أخرى.

- هذا نبل منك وكرم.

- تفضلي، هذه رواية الفضيلة، وهذه روبنسون كروزو، وهذه جزيرة الكنز، وهذه حي بن يقظان، وهذه رواية دون كيشوت، لا، هذه سأحتفظ بها لنفسني، أحب قراءتها، قرأتها مرات كثيرة، وسأعيد قراءتها، سأعطيك بدلاً منها...

- شكراً أستاذ.

- والان، ماذا أقدم لك؟

- أرجوك، لا تقدم لي أي شيء، أنا رجعت فقط لأسلم عليك،
وأهديك هذين الزوجين من الكفوف.
- أتمنى لو أهديك زجاجة عطر، ولكن، ليست الزجاجات ملكي،
آه، لو عرفت ثمن الواحدة منها.
- أعرف، لا أريد أي هدية، وأنا ابنة ريف، ولا أعرف العطور، ولا
أتعامل معها.

*

أعرف، أنت أجمل من كل العطور، كلمة أقولها لك في تفسي، براءتك
هي عطرك.

*

- اسمحي لي سأقدم لك خريطة من رسمي.
- هذه الخرائط من رسمك أستاذ؟
- نعم، عندي أكثر من خمسين خريطة للدول العربية وللعالم، كلها
من رسمي، ومطبوعة في بيروت، وتحمل اسمي وتوقيعي، اختاري أي
خريطة، أمامك الآن خمس خرائط.
- طبعاً، فوراً سأختار خريطة سورية.
يفتح الدرج، يتأمل حبات الشيكولاته الخمس، يفكر، ثم يغلق
الدرج.

تشير إليه بيدها مودعة وهي تحمل الكتب والخريطة، وتخرج.

*

تظهر في الباب امرأة عجوز، في معطف بني فاتح، قصيرة، ممتلئة نسبياً، تحمل بكلتا يديها أكياسا بلاستيكية سوداء.

- يا بني الله يرضى عليك، ناولني أي كرسي كان، أقعد عليه، ظهري انكسر، وحيلي انقطع.

يسرع إليها، يضع لها كرسيًا في الداخل قرب الباب، تلقي بنفسها في الكرسي، تضع الأكياس على الأرض بجوارها، من أحد الأكياس تتدحرج بضع حبات من البطاطا.

وجه متعب، في الخمسين، صوت لاهث، الأنفاس متقطعة، تضع يدها على صدرها، ينتابها سعال جاف.

- الله يرضى عليك يا بني، كأس ماء.

ويمضي إلى الداخل، يحضر كأس ماء.

تلتقط أنفاسها، عيناها تطوفان على الرفوف.

- مبارك المحل، الله يرزقك، كل يوم أنا أمرهنا أمام المحل، اليوم

رأيت أنه وهو مفتوح، الله يوفقك، ويبعث رزقك ورزق العيال، الدنيا متعبة، ماذا نفعل؟

وتنتابها مرة أخرى نوبة السعال، تتناول جرعة من الكأس وتضعها على الجام الزجاجي إلى جوارها.

تتسلل قطة إلى المحل، تدنو من أحد الأكياس.

المرأة تصيح بها:

- بست، روجي، الله يبعث لك رزقك.

تلتفت إليه وتقول:

- من سوق الخالدية من منتصف شارع النيل، هذه القطة تلحق بي، شممت رائحة اللحم في الكيس، والله لو كان لي كنت أعطيها قطعة لحم، مسكينة لحم على عظم، قطة غبية، لحقتني، كأنها ما شافت محل القصاب، ولا عرفت شقق الأغنياء، أنا حالي أبشع من حالك.

يسألها:

- عائلتك كبيرة؟

- عائلة واحدة؟ عندي أربع عائلات، الحمد لله.

- ما شاء الله، العبء كله واقع عليك.

- ماذا أفعل؟ رزق عيال، واحد طبيب، وزوجته طبيبة، تخرج معه

في الصباح، ولا ترجع حتى بعد العصر، وهو يذهب إلى المستشفى، الثاني تاجر أقمشة، ما شاء الله، كلامه كله بالمليارات، والثالث صاحب معمل أكياس بلاستيك، معمله في المنطقة الصناعية، الشيخ نجار، كلها هناك معامل، معمله أكبر معمل، والرابع هو القاضي الأول، ما شاء الله، أخلاق وذوق وعقل، شريف، نظيف، لا يقبل رشوة، يدخل إلى البيت، ويغلق هاتفه، لا يرد على أحد، لا يقبل مراجعات، وكل واحد سيارته أكبر من سيارة الثاني، لا أحفظ أسماءها، أعرف سيارة واحدة، اسمها مرسيديس، ولا بد من شراء كل شيء من سوق الخالدية، الكوسا محفور، البقدونس مغسول ومفروم، البطاطا مقشرة ومقطعة، الله يهنهم، ويسعدهم، ويزيدهم.

- ما شاء الله، ربيت، فأحسننت التربية.

- والله من حوالى عشر سنين، وأنا أخدمهم، من يوم الأزمة، من عام ٢٠١٢.

- لكن من حقل القعود في البيت والراحة.

- لا سمح الله، يا ابني، كيف أقعد في البيت، الله يمدني بالصحة والعافية، إذا قعدت في البيت كيف سيعيش أولادي؟
- أولادك أطباء وتجار.

تضحك، تقهقه، تمسح الدموع من عينها.

- الله يسامحك، أنت فهمتني خطأ، أنا أخدم أربع عائلات، أنا شرّاية، أشتري لهم كل يوم كل ما يلزمهم من خبز ولحم وخضروفواكه، أشتريها من سوق الخالدية، وأحملها إلى بيوتهم، هنا بيوتهم، قريبة من محلك، من دوار الدلة إلى محل سلاف، قبل جامع الرحمن.
- لو أخذت سيارة تكسي.

- يا ابني، الله يحن عليك، إذا أخذت سيارة تكسي لن يبقى لي من أجرتي أي شيء، سائق لن يقبل بأقل من سبعة آلاف، وأنا في اليوم الواحد أروح إلى السوق وأرجع مرتين وثلاث مرات، ولا تقل لي خذي السيرفيس، السيرفيس زحام، ويضيع النهار في انتظاره.
- وعائلتك، زوجك، أولادك؟

- زوجي يعمل في غسل السيارات، كنا نعيش في منطقة بستان القصر، وآه من بستان القصر، من يسمع اسمها يظنها حقاً بستان القصر، شوارع ضيقة، وأكوام قمامة، وعمارات متلاصقة، وشقق علب كبريت.

يقاطعها الأستاذ وحيد:

- هذه المنطقة كان فيها قصر سيف الدولة الحمداني، وأمام القصر بستان، ويمر فيه نهر قويق، لذلك سمو المنطقة، بستان القصر. المهم، زوجي كان عنده محل لبيع الخضرة، راحت الشقة، والدكان، العمارة كلها نزلت على الأرض، قذيفة واحدة صارت العمارة كلها على الأرض، لا محل ولا شقة، نزحنا، الحاج عمر صاحب معمل أكياس البلاستيك أعطانا القبو في العمارة، ونحن نعيش فيها من عشر سنين، من عام ٢٠١٢ مثلما قلت لك، أو عام ٢٠١٣.

- وزوجك؟

- زوجي اشترى عربية، صار يبيع عليها الخضروات والفواكه، لكن عام ٢٠١٦ نزلت قذيفة عند دوار الدلة، هنا قرب محلك، راحت رجله، لحق بنا سوء الحظ إلى هنا، صار يضع في العربة برميل ماء، وكل صباح يغسل السيارات من محل سلاف إلى دوار الدلة، عنده ١٢ سيارة، يغسلها كل صباح، في عز البرد والحر، في الصيف والشتاء، ويأخذ على كل سيارة في الشهر خمسة آلاف، والله في بعض الأيام، أنزل أنا معه، أساعده في مسح السيارات، ماذا أفعل؟

- وأولادك؟

- عندي ثلاثة أولاد، الأول محمد كان عمره عشرين سنة، لما راحت الدار و راحت الدكان راح هو إلى ألمانيا، لا أعرف كيف راح، هرب إلى لبنان، ومن هناك راح إلى ألمانيا، كان في السنة الثانية بكلية الحقوق، ترك الجامعة وراح، والثاني خالد عسكري، ما تابع دراسته، مر عليه حتى

اليوم خمس سنين وهو في الخدمة العسكرية، لا نعرف متى تسريحه،
والثالث مطيع عنده هذه السنة امتحان البكالوريا، يحلم بدراسة
الحقوق، مثل محمد.

- كان الله في عونك، إذن، أنت أم محمد.

- نعم، أنا أم محمد، والكل يناديني أم محمد، وكل ما نادوني بأم
محمد، أتذكر ابني محمد، الله يحن عليه، وأنا كل أسبوع أغسل أذراج
أربع عمارات، الحمد لله، مستورة، نحن في نعمة وبألف خير، الحمد لله
ما هاجرنا، يكفي نحن في الوطن، وتحت سقف، وبين أربعة جدران، ولو
كان في قبو، هو أفضل من العيش في خيمة، والناس هنا في الحي قليم
طيب، لا ينسوننا في كل مناسبة، عدا أيام العيد، وأنا آخذ زوجي كل
يومين أو ثلاثة عند العصر، ونقعد في حديقة السبيل، أجمل نزهة،
حديقة في العالم كله لا يوجد مثلها، الحمد لله، نحن في ألف نعمة، "وإن
تعدوا نعمة الله لا تحصوها".

تصمت ثم تضيف:

- والله، أحياناً، ونحن في حديقة السبيل، يمر شخص، فيرى زوجي
وهو يمشي على عكاز، برجل واحدة، فيمد له الشخص يده بمبلغ،
فيرفض، ويقول له: الحمد لله، أنا غير محتاج، لكن أنا أنزعج منه، أحياناً
يذهب ليمسح السيارات أمام محل سلاف، ويأخذ إكراميات لا بأس بها،
لكن صاحب محل سلاف يخرج، ويلحق به المسبات، ويطرده، وأحياناً
يعطيه صندويشة فلافل، وكم ليرة، ويقول له: لا ترجع مرة ثانية،

بصراحة، العتب على زوجي، لكنه يمل فيذهب ليتسلى ويسترزق، دنيا،
كلها تعب.

ويرن هاتفها الجوال.

- الحمد لله هذا الهاتف باب رزق، القاضي الله يرزقه أعطاني هذا
الهاتف، اتصلوا بي، تأخرت عليهم.

ترفع الهاتف إلى أذنها وتتكلم:

- حاضر، حاضر، سأحضر معي صندوق مناديل ورقية، ومناديل
نسائية، أوه، عرفت، ما حفظت الاسم، أعرف، نفس النوع، لون الكيس
بنفسجي، أعرف، أعرف، سألت عنه الأسبوع الماضي، قالوا مفقود،
المعمل متوقف، لا يوجد مواد أولية.

وينتابها السعال، تأخذ جرعة من كأس الماء.

تنهض

- سامحني يا ابني، أثقلت عليك.

*

لو كان معي الظرف كنت أعطيتها الخمسين ألف ليرة. ولا أستطيع
إعطاءها الآن من ثمن ما بعت، هل أعطيها دولارات؟ غداً، عند نزولي إلى
المحل، أنزل معي الظرف.

*

صوت أجش عريض خشن يدهمني، مثل صوت منشار كهربائي:
- صباح الخير، جاري.

*

أرفع رأسي، كأنه الحلاق الذي كان يجز شعر رأسي وأنا في السابعة من عمري، يمسك برأسي بكلتا يديه الخشنتين، ويضغط، وجه عريض، ذقن عريضة، لحية سوداء خشنة، حاجبان أسودان، وشاربان أسودان، حتى قميصه أسود وبنطاله أسود، كأنه هو نفسه الحلاق. رأيته قبل ساعتين وهو يروح ويجيء أمام المحل، كأنه يهيم بالدخول، هو نفسه، كنت أحسبه زبونا، لكنه انتظر حتى أصبحت وحدي في المحل، ماذا يريد مني؟

*

يتقدم إلى منتصف المحل، قصير، بدين، مدور، كأنه كرة.
- أنا جارك عدنان، محلي في المحل الثاني بعد محلك، أردت السلام عليك، لا أكثر، سأرجع إلى المحل، أنا تاجر أحذية، أبيع بالمفرق والجملة، إذا مللت، تفضل بزيارتي.
- وأنا اسمي وحيد، شكراً، لا أستطيع ترك المحل.
- مبارك عملك في محل جاري الأستاذ غسان، هل دخلت معه في شراكة، أم تعمل براتب شهري، مع نسبة في المبيعات؟ الأستاذ غسان رجل طيب، ولكنه يظل تاجر سوق، همه الربح، تمر بنا ساعات ولا أحد يدخل المحل، لا نبيع ولا نشترى، نمل ونضجر، نضطر إلى هذه الزيارات الخاطفة، قبل ساعة مررت أمام محلك، وأنا عازم على زيارتك، لكن كانت عندك تلك العجوز السلحفاة، انتظرت حتى راحت، الله يقصف عمرها، ويبلأها بالقتل.
- امرأة مسكينة، تعمل في خدمة العائلات.

- لا تشفق عليها، سأعود إليك، تركت المحل للأجير، لا أطمئن إليه، ولا أثق به، أخشى ينهبني، يبيع ويضع في جيبه، سأعود إلى زيارتك، لكن قبل خروجي، أريد تحذيرك منها، قَدَمُها تقطع الرزق، مرة دخلت عليَّ في الصباح، ما وقفتُ ولا قعدتُ، خرجتُ، وطوال النهار بعد خروجها ما بعث ولا اشتريت، قَدَمُها قَدَمٌ نحس، والله أحياناً تدخل زبونة، وفوراً يمتلئ المحل بالزبونات، بعض النساء أقدامها تجر الرزق.

- هل تصدق هذا؟ توكل على الله، يا رجل، الرزق على الله.
- أنت لا تعرف، لا تسمح لها بالدخول إلى المحل، عينا صيابة، مرة دخلت إلى المحل، وأنا أتكلم بهاتفي الجوال، قالت: جوالك جديد، ورقيق، بالهنا، لم تقل ما شاء الله، والله يا أخي، فجأة وقع الهاتف من يدي، العين حق، قلت لها: لا تدخلي بعد اليوم، لكنها ثقيلة، بعد يومين دخلت، ثقيلة، وغليلة، يبلاها بالقتل.

- وقوع الهاتف من يدك لا علاقة له بعينها.

- أنت لا تؤمن بالعين؟

- أنا أؤمن بالله.

- انظر، تركتُ حاجاتها عندك، قلت لك هي ثقيلة وغليلة، ولا تضع لها هذا الكرسي، إذا قعدت فلن تنهض إلى المغرب، اسمح لي سأرمي حاجاتها، حتى لا ترجع مرة ثانية إلى زيارتك.

- لا، أرجوك، هذه الحاجات أمانة، وليست لها، المسكينة.

- السلام عليكم، سأرجع إليك.

- ويصل إلى باب المحل، ثم يرجع:

- نسيت، عندي سؤال: هل وقعت على عقد مع الأستاذ غسان؟ وهل قام بجرد البضاعة قبل تسليمك المحل؟ أو هل جردت أنت الموجودات؟ الأستاذ غسان حريص ودقيق، طبعًا الحق معه، بضاعته كلها أجنبية، وغالية، ثمنها مليارات.

- لا والله، استلمت المحل هكذا، من غير أي ورقة، ولا عقد، ولا جرد، حتى الرجل ما شفت وجهه ولا أعرفه، أنا حاليًا أعتبر نفسي في مرحلة تجريب، يومين أو ثلاثة، لا أكثر. يفتح فمه.

- أرجوك، لا تمزح معي، والله لا أصدق، هكذا فتحت المحل ودخلت، ومن أعطاك المفاتيح؟ وكيف تجريب؟ غير معقول هذا الكلام. صدقي يا أخي، يوجد صديق، واسطة بيبي وبين الأستاذ غسان، هو أعطاني المفاتيح.

- والله، هذه قصة غريبة، واضح أنت ابن حلال، وطيب، وأكد هو سمع عنك هذا، لذلك عاملك هذه المعاملة، لولا ثقته فيك، ما أعطاك المفاتيح، هل تعرف؟ المحل مغلق من ثلاثة أشهر، ما تعاقد مع أي شخص، أنا فوجئت اليوم لما نزل الخبر في الفيس عن إعادة افتتاح محل "أبيض وأسود" للنظارات والعطور، والله أنا أخي ابن أمي وأبي ما عندي ثقة فيه، سأرجع إليك، لأسمع منك أكثر، السلام عليكم.

*

لا أعرف لماذا ذكرني بذلك الحلاق، حتى صوته كأنه هو، يريد هو الآخر أن يلعب برأسي، مثل الحلاق، المرأة عجوز شقية متعبة، الصديق

واضح في كلامها، على كل حال، في قناعتى لم يقل ما يسيء إليها، خشيت أن يتهمها في عرضها، كان الله في عون زوجته.

*

ينفحه عبق قهوة، يطغى على روائح العطور، وتظهر في الباب العجوز، في يدها اليسرى فنجان قهوة ورقى، وفي اليد الأخرى تحمل ثلاثة أكياس.

*

حقًا هي قصيرة، بدينة، مثل برميل، لكنها والله رشيقة، بالنسبة إلى عمرها وجسمها الممتلئ، ليست سلحفاة، أنا سأصيدها بالعين، لا، هي، ما شاء الله، تحمل ثلاثة أكياس، بيد، وفنجان قهوة بيد، وإن كنت لا أؤمن بالعين ولا بالقدم.

*

تضع الأكياس على الأرض، تقترب منه:

- تفضل يا بني، هذا فنجان قدمه لي ضيافة محل بن العلي، اتصلت بي زوجة التاجر، وطلبت مني شراء ربع كيلو من البنّ، ربع كيلو البن العادي بعشرة آلاف، قهوتها خاصة، أنا اشتري لها ربع الكيلو بعشرين ألف ليرة، قدّم لي هذا صاحب المحل هذا الفنجان ضيافة، الرجل كريم، الله يرزقه، كلما اشتريت من محله، قدّم لي فنجان قهوة، تفضّل، يا بني، هولاك.

- شكرًا لك، يا أختي، هولاك، اشربه بالهنا.

- أقسم بالله، ما ذقته، وما قرّبت فيّ منه، أعرف، الدنيا مليانة كوليرا وكورونا، أول ما ناولني الفنجان، قلت هو لك، اقبله من يدي، الله يرضى عليك، وإذا أردت اقبله في فنجان عندك من المحل، صدقني، هو فنجان قهوة حلال.

- أرجوك، هولك.

- هل أشرب منه، لتطمئن، والله، ما وضعت فيه السم، ولا قرأت عليه السحر، أنت والله مثل ابني.

تضعه على الجام أمامه، وترجع إلى أكياسها، تحملها وتلتفت إليه.
- هل تعرف؟ رحت في شارع النيل ورجعت مرتين، وأنا أسأل عن المناديل النسائية، أوصتني على نوع مفقود، وصلت إلى سوق الخالدية حتى حصلت على هذا النوع، ولا أعرف اسمه، أعرف لونه، وفي أعلى السوق اتصلت بي زوجة القاضي، وطلبت مني ثلاث كيلوات من الجزر الأصفر، آه، يا ربي، ظهري انكسر، الحمد لله، لقمي بإذن الله حلال، سامحني يا بني، أكثرت عليك من الكلام، سامحني، السلام عليكم.
توليه ظهرها، وتمضي.

*

سأشتري ربع كيلو من البن، وأضعه في المحل، لا بد من تقديم ضيافة، لكن لمن؟ للعجوز الشراية، أم لجاري تاجر الأحذية؟ هنا في المطبخ الصغير غلاية قهوة اسبرسو، تصب فنجانين في وقت واحد، لكن لا توجد كهرباء، من الواجب تقديم ضيافة للزبائن.

وهل أترك الزبون، وأذهب إلى المطبخ لصنع قهوة؟

*

غيمة سوداء تسد باب المحل، هو الحلاق، بائع الأحذية، لماذا
أسميه الحلاق.

- السلام عليكم، الحمد لله، انصرفت السلحفاة، ما طالعت قعدتها
عندك.

- لم تقعد أبداً، حملت حاجاتها ومشيت.

- أوه، ما هذه القهوة الفاخرة، فور دخولي ملأت أنفي رائحتها.

ويتقدم، يمد يده يتناول الفنجان، يرفعه إلى فمه.

- اسمح لي برشفة واحدة.

- هولك، خذه كله.

- لكن، يا خسارة، بارد.

- العجوز قدمته لي، هو ضيافة لها من محل العلي، لكن قدمته

لي.

يضعه على الجام من غير أن يتذوقه.

- لا، أرجوك، خذه، لا أشربه، والله، مادام من يدها، ولو كان

سيعيد إلي الحياة، ولا تشربه أنت، الله أعلم ماذا وضعت فيه، ربما فيه

سحر أو مخدر، الله يبلاها بالقتل، هذه جنية، ساحرة، هذا أسلوب منها،

تريد الإيقاع بك، الله أعلم، لا نعرف ماذا تنوي.

الأستاذ وحيد يضحك، يحمل الفنجان، يرفعه إلى فمه.

- لا، لا تشربه، الله يرضى عليك، والقهوة بردت، ولا طعم لها ولا

مذاق إذا بردت.

*

لا أعرف ما سر هذا العداء لهذه المرأة المسكينة؟ ولماذا يدعو عليها بالقتل؟ ربما لا يقصد الدعاء حقيقة، هو أسلوب بعض الأشخاص في الكلام، سامحه الله، هذه المرأة جديرة بالشفقة والعطف.

*

ويصك سمعهما زعيق سيارة، وسحج عجلات.
- يا لطيف، حادث، أظنه عند دوار الدلة، قليلة الحوادث في منطقتنا، الحمد لله، لكن لا أعرف لماذا الحوادث كثيرة هذه الأيام؟ سأخرج، لأرى.

ويلوزعيق سيارة إسعاف.
ويرجع الحلاق ذو الشعر الأسود، ولا أعرف، لماذا لا أرى فيه إلا ذلك الحلاق الذي أكرهه.

- سامحني يا رب، أنا دعوت عليها، أظنها هي.
- العجوز؟

- أظنها هي، السلحفاة، عفوك يا رب، أنا ما رأيتهما، ولكن قالوا امرأة كانت تقطع الشارع عند الدوار، وصدمتها سيارة، وكانت راجعة من السوق، ومعها حاجات كثيرة، تناثرت على أرض الشارع.
- حسبي الله، ونعم الوكيل.

- هذا التقاطع يعبره كثير من الناس، وخاصة النسوان، في طريق العودة من السوق، يا رب، سامحني يا رب.

- أنت ما أسأت إليهما، أكثر ما قلت هو وصفها بالساحفة، ثم دعوت عليها.

- أرجو لها الصحة والسلامة، والله إذا رأيتمها بكره بصحة وسلامة، سأعتذر إليهما، وأطلب منها العفو والسماح.

تدحرج دمعة من عينه، يدير ظهره، يلتفت فجأة.

- سأعترف لك، مرة قلت لها: عندي زوج أحمية من موديل قديم، سأعطيه لك، قالت: الله يرزقك، أنا نمرة رجلي ٣٧، قلت لها: نجريه، وقعت هي على كرسي، وقالت هات أجريه، قلت لها: لا، مدي رجلك، أنا سأساعدك، وقعت أنا أمامها، على كرسي واطئ، وفجأة وسوس لي الشيطان، هممت بمداعبة أصابع قدمها، نفس أمارة بالسوء، نفس دنية، وانتفضت وخرجت من المحل، صحت لنفسي، وندمت، وخشيت، ماذا لورفستي بقدمها في وجهي، حقيقة هي امرأة طيبة، رحمها الله. ويغادر المحل.

*

الله يلعن حظي السيئ، من الثريات الفاخرة المعلقة في السماء، إلى الأحذية السوداء في الأرض، كنت أرى الأعناق والنهود، صرت ألعق السيقان والأقدام، كانت المرأة تقف أمامي في المحل، وهي ترفع رأسها إلى الثريات، وأرى عنقها ونهديها، صرت أقعد أمام المرأة وأنا أضع الحذاء في قدمها، لأرى ساقها وقدميها، رحمتك يا رب، أبو سليم، ابن عمي، هو ورطني، قال لي: الإنسان يشترى في العمر ثريا واحدة، عند الزواج، أو عند شراء شقة جديدة، ولكن كل سنة يشترى حذاءين، حذاء للصيف وحذاء للشتاء، وقد

يشتري ثلاثة، وأنا صدقت، قلبت محلي من بيع الثريات إلى بيع الأحذية، حقيقة، صدق ابن عبي أبو سليم، تغير كل شيء، مصابيح توفير الطاقة غزت الأسواق، والإضاءة المخفية أصبحت هي الرائجة، وما عاد أحد يشتري الثريات، وبعد الحرب انعدمت الكهرباء، تأتينا في اليوم ساعتين، مرة أو مرتين، وصار الاعتماد كله على المولدات، ملأت الأرزقة والحارات والشوارع والأرصفة بالمازوت والسخام والروائح، ومن سيشترك بعشرة أمبيرات ليضيء ثريا، أكثر الاشتراكات بأمبير واحد، أو أمبيرين، ولا يضيء غير لمبتين، نحن هنا في المحلات نضطر للاشتراك بخمسة أمبيرات، للإضاءة، حتى الأحذية، ما عاد الإنسان يشتري في السنة حذاءين، كان ربنا من أحذية الأطفال، طفل كبرت رجله، ضاق على رجله الحذاء، جاء العيد، جاء موسم افتتاح المدارس، ولا بد من حذاء جديد، لكن صار الأب يقول لابنه: أخوك أكبر منك، وحذاؤه يناسب رجلك، في العيد القادم، أي بعد سنة، سأشتري لك الحذاء الجديد، الدنيا كلها اختلفت، من السماء إلى الأرض، ومن العجين إلى الطين، الله يرحمك يا جدي، سأرجع إلى جاري الطبيب، واضح عليه الطبيب، يستمع إلي ويصغي إلى حديثي، لكن الآن خرجت من محله، وهذا زبون جاءه، وهو يتجه إلى المحل مباشرة، واضح عليه، زبون دسم، الله يرزقه.

*

ويظهر في الباب رجل معتدل القوام، يضع نظارة بنية قاتمة، مشدود القامة، يمشي بثقة، يرتدي بدلة كحلية من الجوخ الإنكليزي

الفاخر، ويضع ربطة عنق أنيقة، يمشي بهدوء، تتدلى من يده اليمى حقيبة يد جلدية بنية صغيرة فاخرة.

لدى توسُّطه المحل يرفع النظارة عن عينيه، يتكلّم بثبات وثقة.
- مبارك افتتاح المحل، بعد إغلاقه ثلاثة أشهر، أين الأستاذ غسان؟ صاحب المحل.

- تفضل أستاذ، أي مساعدة؟
- أريد نظارة راي بان أفياتور، وبولا رايدز.
- حاضر، عندي كل أنواع نظارات راي بان.

*

لا أعرف أفياتور ولا النوع الثاني، لا أعرف أين هي؟ جلنار وصفت لي هذه الأنواع، لكن، سأنزل له أربعة أنواع، وهو سيختار النوع، وما يريحي هو وجود سعر كل نظارة في لاصق على جانب منها.

*

يصعد على سلم من خمس درجات، ينزل أربعة صناديق.
- هل أنت جديد هنا؟

- نعم.

- أنا عرفت فوراً أنت جديد في المحل، وما عندك خبرة في النظارات، لأنني طلبت منك نظارة أفياتور ونظارة بولا رايدز ونزلت لي أربعة أنواع، على كل حال، عليك معرفة بعض الحقائق عن نظارات راي بان، أولاً هي بالأصل شركة أمريكية، لكن اشترتها إيطاليا، وأشهر أنواعها وايفيرير، وهي تقليدية ومشهورة جداً، و أفياتور، ويستعملها أكثر ممثلي هوليوود،

وكلوب ماستر للأغنياء، وهي كبيرة، وتحمي كامل الوجه، هل تعرف كم ثمن نظارة أنجيلينا جولي؟
- ألف دولار.

يضحك، ويعلق:

- نظارتها دولتشني أند جابانا، عزيزي، ثمنها حوالى أربعمئة ألف دولار، أسعار نظارات راي بان الإيطالية الأصلية تبدأ بـ ٢٠٠ دولار وأنت طالع إلى أربعة آلاف دولار، نظارة راي بان تحمي من أشعة الشمس فوق البنفسجية الضارة، للأسف، نحن عند الصبايا والشباب يتباهون بنظارة يشترونها من بائع على الرصيف بخمسة آلاف ليرة، تضرولا تنفع، والأسوأ من ذلك، نفرح بأولادنا، فنشتري لهم في العيد نظارة بلاستيكية، تعمي العينين، على كل حال، البضاعة عندك صينية، انظر إلى يد النظارة، مكتوب عليها: مِيد إن شاينا، نظارة راي بان الأصلية مكتوب عليها: مِيد إن إيتالي، وكل نظارة لها رقم متسلسل، مثل الموبايل، وعلى اليد ثلاثة أرقام، وهي ٥٠ لعرض العدسة، و ٢٠ للجزء الفاصل بين العدستين، و ١٥٠ لطول الذراع، طبعاً المسافات بالملي متر، وتختلف من نوع إلى نوع، ومن حجم إلى حجم، لارج، وميديوم، وسمول، وطبعاً كل نظارة معها حقيبة جلدية لها نفس الرقم المتسلسل للنظارة، وقطعة قماش لمسح العدسات، وعلى الحقيبة وقطعة القماش شعار: راي بان، هل مع هذه النظارات حقيبة جلدية، خاصة؟

- للأسف، لا.

ويتكلم الزبون:

- بالمناسبة، أناقتك أعجبتني، وذوقك رفيع، لاحظت أنك لم تدري لي
ظهرك عندما صعدت هذا السلم، صعدت ووجهك نحوي، أقدر هذا
فيك.

- هذا واجب.

- أنا اخترت أفياتور، لها التمتع، وتعكس الضوء، وهي مناسبة
للاستعمال اليومي، وخاصة الآن في الشتاء، الشمس تسطع مائلة،
وشعاعها ينصب على الوجه مباشرة، الناس تظن النظارة للصيف، وهي
ضرورية للشتاء والصيف، واخترت الكلوب ماستر لأنها عريضة وتحمي
الوجه، أنا مسافر غداً بسيارتي إلى دمشق، وهي ضرورية للسفر، كم
الحساب الآن؟

- صار حسابك مئتين وأربعين دولاراً، كل نظارة بمئة وعشرين.

- هل تعرف، هذه أسعار قديمة، معلمك الأستاذ غسان رجل
شريف، الآن صار ثمن النظارة الصينية في السوق الحرة مئتين، تفضل،
هذا ثمن النظارتين.

- سأهديك علبتين.

- أوه، تذكرت، أريد علبتين ممتازتين، لا، لا أريد من علب الهدايا،
أعرفها.

يشترى علبتين فاخرتين، كل علبة بخمسة دولارات.

يمضي نحو الباب.

يصل إلى باب المحل، ويرجع.

- لك عندي نصيحة، هل تتقبلها؟

- بكل سرور.

- أنت رجل طيب، نصيحتي لك، أنت تضع نظارة طبية رخيصة، صناعة الصين، أنا أعرف، أنت اشتريتها من الرصيف بأربعة آلاف ليرة، لكن هذا غير مناسب، أنت في محل لبيع نظارات راي بان، من الضروري، وضع نظارة فخمة.

- النظارات في المحل شمسية، لا توجد نظارات طبية.

- أعرف، أنا زبون هذا المحل من عشرينين، أنا سأهديك نظارة طبية، عندي نظارة طبية فاخرة، كلوب ماستر، من خمس سنين ما استخدمتها، هي لك، هدية، هي في السيارة، سأحضرها لك فوراً، ولكن كم نمرة العدسات عندك؟

- واحد.

- للبعيد.

- نعم.

- رائع، مصادفة رائعة، نظارتي مثلها تماماً، هي لك، سأحضرها. يلقي نفسه في الكرسي وراء صندوق المحاسبة، يحس بالضيق والاختناق.

*

ما أحوذجني الآن إلى الحلاق. الزعيم يدفع مئتين وأربعين دولاراً ثمن نظارتين، ومن غير مجادلة، ولا مساومة، ويشتري علبتين كل واحدة بخمسة دولارات، وأنا لا أستطيع شراء نظارة بعشرة آلاف ليرة سورية. وسوف يتصدق عليّ بنظارة طبية مستعملة، ما عاد بحاجة إليها.

ولا أعرف لماذا هكذا يفخم لفظه عندما ينطق أسماء النظارات wayfarer و aviator و Ray Ban و clubmaster وغيرها، ولماذا يصب في أذني كل هذه المعلومات عن نظارات راي بان؟ طلعت روحي، مللت، وما الفائدة من هذا الكلام؟ ولماذا يحكي لي عن إنجيلينا جولي، وأنا لا أصدق، هل حقا ثمن نظارتها حوالى أربعمئة ألف دولار؟ وإذا ضاعت النظارة؟ أو وقعت وانكسرت؟ يريد التعالم علي، والتفاخر، وما معنى قعودي في هذا المحل؟ هل جئت لأتسول؟ أو تمزح معي جلنار وغير جلنار؟ سأترك المحل.

*

الحلاق يدخل، مسرعًا، ليسأل:

- هل اشترى هذا الزعيم؟ واضح عليه الزعامة.
- نعم، اشترى.
- ماذا اشترى؟
- اشترى ما هو بحاجة إليه.
- لا تؤاخذني في السؤال، والله لا أحسد أي إنسان، وعيني غير صيابة مثل العجوز السلحفاة، الله يرحمها، نحن نتسلى.
- مصمم على معرفة ماذا اشترى؟
- نعم، والله، ممازحة وتسلية.
- اشترى نظارتين.
- ما شاء الله، ومعه نظارة على عينيه، ما هذا البطر!
- أرزاق من الله.
- وكم سعر النظارتين؟

- دفع مئتين وأربعين دولارًا، وكأنه يدفع مئتين وخمسين ليرة.
- وما رأسمال كل نظارة؟
- والله، لا أعرف.
- وما نسبته أنت من المبيعات؟
- حسبي الله ونعم الوكيل.
- أرجوك، لا تتضايق مني، نحن نتسلى بالكلام، إذا شئت لن أسألك، السلام عليكم، أنا رايح، لن أرجع إليك اليوم.

*

حسبي الله ونعم الوكيل، لا أعرف، فور دخوله أول مرة، نفرت نفسي منه، ولكن قلت لا بأس نتسلى، ونتعلم، نتعرف على الناس، ما توقعت عنده كل هذا الفضول، يريد معرفة كل شيء.

*

يقف أمام الكرة الأرضية، ينقر عليها، تدور، تدور، ثم تتوقف.
 أه، أنا مثل هذه الكرة الأرضية، على سطحها كل القارات وكل المحيطات وكل دول العالم وكل العواصم والمدن، ولكن ليس عليها أي شيء، جوفاء، فارغة، لا أرض ولا تراب ولا ماء ولا بشر، وأنا مثلها، الآن عرفت نفسي، كنت أظن نفسي أعرف كل شيء، كنت أظن نفسي أعرف كل العواصم وكل المدن وكل الأنهار وكل الجبال، عندما أرسم للطلاب خريطة أوربة على اللوح، كنت أرى نفسي في أوربة، وكنت أعتقد أنني أعطيهم أوربة كلها، لكن الآن عرفت، كنت أحشو عقولهم بمعلومات، سرعان ما ينسونها فور خروجهم من الامتحان، وربما قبل دخولهم إليه، ولو حفظوها وظلوا

يذكرونها، في أي شيء تفيدهم معرفة الجغرافيا؟ وهم لن يصنعوا الجغرافيا ولا التاريخ؟ ثقب واحد، وتنفجر الكرة البلاستيكية، وقنبلة واحدة وتنفجر الكرة الأرضية، يكفي أن ينفجر دماغ واحد في تلك الرؤوس، وهل فيها حقا دماغ؟ أم هي مثل هذه الكرة البلاستيكية؟ هنيئًا لجاري الحلاق، لا يفكر إلا في الأحذية والأقدام، لكن والله أحبته، وأحس معه بالتسلية، لا أعرف، ماذا أقول، والزعيم، حقا زعيم، كما سماه الحلاق، هو صاحب ذوق، ونظر، أقصد الزعيم، والحلاق أيضًا صاحب ذوق ونظر، إلا أنا، للأسف، الآن عرفت نفسي.

*

ويظهر في الباب الزعيم.

- حذك ممتاز، النظارة هي في السيارة، أحضرتها لك، تفضل هذه نظارتي الطبية، من خمس سنين لم أستعملها.

- كم ثمنها؟

- لا تسأل، هي هدية لك.

- لكن

- من غير لكن، اقبلها مني، ما عدت بحاجة إليها، هل تعرف كم ثمنها؟ أنا اشتريتها قبل خمس سنين من هذا المحل، بخمسين دولارًا، تفضل، هي هدية لك.

يحبس بالاحمرار في وجهه وفي أذنيه، يتلعثم.

- شكرًا.

- باللهنا، ضعها على عينيك.

- سأضعها.
- لا، لا، ضعها الآن، لأطمئن، أخشى تبيعها.
- لا، الهدية لا تباع.
- كنت أمازحك، ضعها.
- يضعها.
- والآن ستجلب الزبائن، وسوف تغري الحسناوات.
- بالمناسبة، هل أحضر الأستاذ غسان عطورات فرنسية جديدة.
- نعم، عندي هنا عطر رجالي ممتاز، أحدث نوع، بلاك جاكوار.

*

الفضل لجلنار، ما كنت أعرف بلاك جاكوار، هي عرفتني عليه، وحفظت اسمه، الفضل لها، وللصورة، صورة النمر الأسود، جاكوار، اسم حلو، والآن تذكرت، أفلام النمر الوردي، كم كنت أحبها، أيام كان عندنا كهرباء، ونتابع التلفزيون، حاليا الأخبار لا نكاد نتابعها، والأمير الواحد بثلاثين ألف ليرة، تقول لي زوجتي: "عليك بالنسيان"، كيف أنسى؟ هذه هي حكايتنا، وهذه هي حياتنا.

*

- أوه، أعرفه، بلاك جاكوار، العام الماضي في السوق الحرة في مطار باريس اشتريت زجاجة، فعلا كانت حديثة، أول نزولها إلى السوق، هل تعرف كم كان ثمنها؟
- ثمنها الآن مئة دولار.

- هات ناولني واحدة، هل تعرف؟ كان ثمنها في السوق الحرة مئة وخمسين دولارًا، هات ناولني واحدة.
- ينقده ثمنها، ويتجه نحو الباب، ولكن سرعان ما يرجع.
- عندي سؤال؟
- تفضل؟
- هل ترى من المناسب فتح قميصك هكذا مثل الشباب ليبرز شعر صدرك، وأنت في الستين أو أكثر من العمر، وأنت تعمل في محل من أفخم المحلات في حلب كلها؟ هل تريد إغواء الصبايا؟ هل تعلم: بهذا القميص المفتوح تنفر منك الزبائن، ولا صبية تدخل إلى المحل؟ إذا ما عندك كرافات أنا سأحضر لك عشرة، الأستاذ غسان صديقي، وسمعة المحل غالية.
- عفوا أستاذ، عندي كرافات.
- هاتها.
- يحضر الكرافات.
- ضعها هنا على الجام أمامي، كرافات قديمة، عمرها ١٢ سنة، موديل قديم، والعقدة ثابتة، أنت لا تفكها في كل مرة، ولا تعيد عقدها، لذلك، سطح العقدة متأثر بالغبار والهواء والشمس، الأفضل فكها في كل مرة، وإعادة ربطها.
- صدقت، هذا بسبب السرعة.
- السرعة مطلوبة، أحسنت، ولكن الأناقة مطلوبة، على كل حال، في زيارة قادمة سأحضر لك خمس كرافيات.

- شكرا، عندي في البيت حوالى عشر كر افيتات.

يضحك الزعيم:

- أوه، عشرة، أنا عندي أكثر من مئة وعشرين كر افات، وفي كل
سفرة، أشتري أربعة أو خمسة، من باريس من لندن، وعندي سؤال آخر؟
- تفضل؟

- ما هذه الكتب على الرفوف في عمق المحل؟ لم تكن موجودة من
قبل؟ وما هذه الخرائط المدلاة من السقيفة؟ ولماذا هذه الكرة الأرضية
هنا إلى جوار صندوق المحاسبة؟ هل تريد القول: البضاعة عالمية.

*

آه، خاب ظنك أيها الزعيم، حسبتك أذكى من ذلك، ما من إنسان
كامل، كل إنسان فيه نقطة ضعف، كنت أتوقع أن تحسن الفهم والتقدير.

*

- أنا أستاذ جغرافيا متقاعد.

- ولماذا جلبت معك هذه البقايا؟ الزمن تجاوزها، الآن كل
الخرائط موجودة في هاتفك الجوال وفي هاتفي، حتى أولاد المدارس ما
عاد أحد منهم يرسم خريطة، في الامتحان تأتيم خريطة مرسومة في ورقة
السؤال، وعليهم وضع اسم عاصمة أو عاصمتين.

ثم ينطق بجدة، مثل أمر فوج:

- أنت شوهت المحل، ارفعها، ارفعها، ومنظر هذه الكتب غير
مناسب، أبداً، أبداً، ارفعها في الحال.

الأستاذ وحيد يرفع النظارة عن عينيه، يضعها على الجام، أمامه.

*

وأنت شوهت وجهي بهذه النظارة.

*

- حاضر، أمرك، سأرفعها كلها.

- ارفعها في الحال، أي زبون يدخل إلى المحل، سينفر منها، في زيارة

قادمة لا أريد رؤيتها.

يتوقف، يتردد، يتكلم:

- اسمع، سأعطيك معلومة عن النظارات، هل سمعت بنظارة راي

بان ستوريز، طبعاً لم تسمع، هذه نظارة مزودة بكاميرتين أماميتين،

طبعاً، لا يلحظهما الإنسان، تلتقط الكاميرتان ثلاثين مقطع فيديو كل

مقطع في ثلاثين ثانية، بمجرد لمسة من يدك على جانب الإطار، وفيها

مكبرات صوت، على جانبي الإطار، ويلمسة على الإطار يتم الاتصال فوراً

بالبلوث في هاتفك الجوال، وتتكلم مع العالم كله، طبعاً النظارة لها

بطارية، يستمر شحنها ست ساعات، وهي مزودة بحقيبة جلدية فاخرة

فيها شاحن.

- كم ثمنها؟

- لا تسأل، وهل تعرف؟ كلمة راي معناها أشعة، وهي في الأصل

كلمة رع، وهي اسم إله الشمس في الحضارة المصرية القديمة، كان

المفترض معرفتك هذا، وأنت أستاذ الجغرافيا، وكلمة بان مختصرة عن

كلمة بانربالإنكليزية ومعناها مانع، أو مستبعد، أي النظارة المانعة

للضوء، أو المستبعدة للضوء، هل رأيت؟ النور يسطع من الشرق، وطبعاً

نحن علمنا الباريسيين استعمال العطور، ليغطوا روائح أجسامهم،
لأنهم كانوا لا يستحمون، ونحن الآن نفاخر باستعمال العطور الباريسية،
والسلام عليكم.

ويمضي، موليا ظهره للمحل، والحقيبة الجلدية الفاخرة تتدلى
من يده.

ومرة أخرى يصل إلى الباب، ويرجع:

- وهل عندك فكرة عن العطور الباريسية؟ إذا أردت حدثتك عنها
بالتفصيل.

- شكرا، سبقتك سيدة، اشترت نوعين، وحدثني عن كل الأنواع
الرجالية والنسائية، ولذلك ذكرت لك فوراً بلاك جاكوار.
- أحسنت.
ويغادر المحل.

*

الأستاذ وحيد يسرع في الدخول على جاره في المحل.
يحدثه عن الزعيم وعن أنجيلينا جولي وعن النظارات وعن
العطور.

- وما عمل هذا الزعيم؟

- والله لا أعرف؟

- وما اسمه؟

- لم أسأله، أنت سميت الزعيم.

- ما عدت أقدر على البقاء في المحل، زهقت، أغلقت، ورايح إلى البيت.

*

الأستاذ وحيد يدخل إلى البيت في التاسعة والنصف.

تسرع إليه زوجته، ترحب به.

- هل وصلك السائق؟

- لا.

- وكيف جئت؟

- ماشيًا، هل توقعت أخذ سيارة؟ الحمد لله، أنا بقوتي وصحتي.

- لكن، أنت متقاعد.

- التقاعد، يا أم أحمد، لا يعني الشيخوخة والعجز، ولا المرض

والموت، الحمد لله، أنا بكامل قوتي.

ويتناول العشاء.

يحدثها عن عمل اليوم.

يحكي لها عن نهى وجلنار وعدنان وعن دخول ملك الموت عليه.

- ورهف؟ هل زارتك؟

- أتوقع زيارتها مع حواس.

ويناولها حبات الشكولاته والكفوف.

- خذي الكفوف لك.

- لا، هي لك، المحل، مثلما قلت، بارد.

- تعالي نأكل الشيكولاته معًا.

- لا، ارجع بها إلى المحل، تناولها أنت وجلنار.

- لا تسخري مني.

- والله لا أسخر، ثقتي بك كبيرة، وزاد من ثقتي صدقك،

وصراحتك، ما كان المطلوب منك مصارحتي بالكلام على نهى وجلنار، ولا
إطلاعي على حبات الشيكولاته، ولا الكفوف، لكن قلبي غير مطمئن إلى
جلنار.

- لماذا؟

- هي تريد التغلغل إلى داخلك من خلال حبات الشيكولاته،

وبالعكس، نهى بريئة، تهديك الكفوف، تريد لك الدفء، هي تقف على
السطح، ولا تغوص في العمق.

*

يتناولان العشاء.

وهما يشربان الشاي معًا، يقول لها:

- لن أستمري في العمل في المحل.

- لماذا؟

- لا أصبر على البقاء في المحل من العاشرة إلى العاشرة، أنا انتظرت

التقاعد، حتى أحس بالحرية.

- يا أبو أحمد، يأتيك الزبائن وتسلمي، أول يوم جاءتك نهى وجلنار،

وبكرة تأتيك أليسا ونانسي وأحلام.

- نسيت أحكي لك عن الزعيم.

ويحكي لها عن الزعيم والدولارات والنظارات وأنجيلينا جولي،
ويناولها الدولارات.

- تفضلي، افرجي على الدولارات.

ثم يحدثها عن النظارة الهدية من الزعيم، ويناولها النظارة، ويقول
لها:

- تفضلي، أم أحمد، خذي النظارة لك.

- لا، هي لك، ضعها، لماذا لا تضعها؟

- لا أريد تذكر ذلك الزعيم، أرجوك، خذيها لك، ضعها أنت.

- وهل هو زعيم؟

يضحك:

- لا، جاري سماه الزعيم.

- يا أبو أحمد، سوف تمر بك نماذج ونماذج، هكذا البشر.

- لذلك، سأترك المحل.

- يا أبو أحمد، أنت كنت في صومعة، في جنة الفردوس، كنت

تتعامل مع طلاب وأساتذة، مهما اختلفوا، فهم من مستوى ثقافي

متقارب، في حياة السوق سوف تتعرف على مستويات ومستويات.

- أنا غير قادر على التأقلم، لا أستطيع التعامل مع شخصيات مثل

الزعيم أو جلنار، أو حتى نهى وعدنان، سأترك العمل، ونسيت أحكي لك

عن أم محمد.

- ما هذا؟ أنت معشوق في التربية، ومعشوق في محل النظارات

والعطور.

- انتظري، أم محمد سيدة عجوز، في عمري، لكنها تقول لي: يا بني.
- وهل أنت عجوز؟
- لا، لكن المرأة في الستين تكون عجزت وهرمت.
- تعلق ساخرة:
- والرجل في الستين يزداد شبابًا.
- على كل حال، الأهم من هذا، أنا عرفت زوجها.
- من زوجها؟
- الرجل صاحب الرجل المقطوعة، مسكينة تعمل في شراء
- الحاجات للناس حتى تساعد زوجها.
- ممتاز، غداً، خذ معك الخمسين ألف ليرة، وأعطيها لزوجته.
- لكن، وقع حادث، سيارة عفت امرأة، وتناثرت الأكياس السود
- وما فيها من فاكهة وخضروات، وأظن هي نفسها، وأسأل الله ما تكون هي.
- لا بأس، خذ معك بكره الخمسين ألف ليرة.

فراشنا وغطاؤنا

- الأستاذ وحيد يشرب قهوة الصباح مع زوجته.
- اليوم لن أنزل إلى المحل.
- ما عملت غير يوم واحد؟!
- ضجرت، قلت لك، هذا العمل ليس من طبيعتي، لا أستطيع التعامل مع الناس.
- يا أبو أحمد، كثير من الأساتذة عندهم محلات ويعملون فيها، وبعضهم يعمل في التجارة، العمل ما فيه عيب.
- صدقت، لكن أنا لا أستطيع.
- وماذا ستعمل؟
- لا شيء، سأمضي اليوم هكذا، في كسل، استرخاء، نوم، أمس رأيت قطعة تقعد في الشمس، مسترخية، شبه نائمة، وأنا سوف أقعد في الشمس أسترخي مثلها.
- وإذا لم تعمل، كيف سنوفر ثمن الأمير؟
- أوف، مللت من قصة الأمير، سألغي الاشتراك في المولدة.
- وهل نقعد في العتمة؟
- نوقد شمعة.
- يصمت، ثم يتكلم:
- كفاية أم أحمد، لا أريد النقاش، قلت لك
- والله ما تكلمت وما قلت أي شيء.

تصمت، ثم تتكلم:

- احكي عن حلم الليلة الماضية.

- نسيت، ما رأيت أي حلم.

- تذكر.

- رأيت نفسي وأنا خارج من الدار، دار قديمة، لا أعرف أين،
ووجدت أمامي محل الحلاقة، دخلت، وجاء الحلاق، رتب لي السوالف
ورتب الشعر حول الأذنين، وحلق شعر القفا، عند الرقبة. ومسح ذقي
بالعطر، ومشيت، لا أعرف إلى أين، كأني ذهبت إلى حفل زفاف شاب من
أقاربنا، نسيت، ما عدت أتذكر، ما تفسرك لهذا الحلم؟
- لا يخطر على بالي الآن أي شيء، تعال، ننزل معًا إلى حديقة
السبيل.

- لا أشتي.

- انزل وحدك.

- أم أحمد، اتركني، كرهت الأشرفية، وحديقة السبيل، ودوار
الدلة، كرهت حالي، كرهت حلب.

- أنا أعرف، هذه جلنار، سلبت عقلك، سافر معها إلى كندا.

- وكيف عرفت قصة سفرها؟

- أنت حكيت لي.

يتركها ويخرج إلى الشرفة الصغيرة.

تسمعه أول مرة يدندن:

سيبوني ياناس في حالي في حالي

أروح مطح ما اروح

*

يفتح الباب، ويخرج.

*

ماذا أفعل؟ والله ما قلت له أي شيء، ولا أزعجته، والله أبو أحمد شقيق روعي، ليتنا نساfer، ولكن إلى أين؟ وكيف سنعيش؟ لا راتبه يكفيننا، ولا راتبي؟ ما الحل؟ ندور في حلقة مفرغة.

*

يرجع بعد ربع ساعة.

- تعالي يا أم أحمد، اشتريت لك حلاوة الجبن، من زمان ما اشتريناها، أنت وأنا نحبيها.
يتناولان معا حلاوة الجبن.
أم أحمد صامتة.

- يا أم أحمد، والله لا جلنار ولا غيرها، أنت الأصل، لكن تذكرت الأولاد، ضاقت بي الدنيا، ماذا أفعل، لا أريد فتح السيرة، هذه هي قصتنا، وبعدها جاء الغلاء، لا أعرف ماذا أقول.
- يا أبو أحمد، ما هي قصتنا وحدثنا، أنت وأنا، هي قصة كل البلد، كل الناس.

- لا يا أم أحمد، هي قصة ناس وناس، ناس تشتري النظارة بمئة وعشرين من الدولارات، وناس راتبها لا يعادل العشرين دولارًا، هذا هو قهري.

- والحل؟

- لا تسأليني.

يتركها ويمضي إلى الفراش، ينام.

*

يستيقظ بعد الظهر، وثيابه مغسولة بالعرق.

- يا أم أحمد، حرارتي مرتفعة، والعرق يغسلني، هل عندك حبة

سيتامول؟

ويتناول حبة سيتامول.

يرتدي ثيابه، وهمم بالخروج.

أم أحمد تسأله:

- إلى أين؟

يخرج من غير أن يرد.

*

يرجع قبيل المغرب.

- والله شغلت بالي؟ أين ذهبت؟

- لا تسأليني.

تلمس جبينه.

- طبخت شوربة العدس، واشترت نصف كيلو ليمون، وعندنا

خبز يابس، أنت تحب شوربة العدس، وسأعصر عليها نصف ليمونة، حتى

تنكسر حرارتك.

- سلمت يداك.

- واشترت نصف كيلو بصل يابس، البصل مع شوربة العدس شهى، هل تعرف بكم البصل اليابس؟
- لا والله.

- الكيلو بأربعة آلاف وخمسمئة، أغلى من التفاح، التفاح بألف وخمسمئة.

يضحك، ويسألها:
- بالليرة أم بالدولار؟
- بالليرة، لكن كل شيء محسوب على الدولار.
*

وهما يتناولان طعام العشاء يسألها:
- من أين اشتريت البصل والليمون والعدس؟
- لا تسألني.
- عرفت، نزلت إلى باب الجنين، وسوق الأشرافية بجوارنا، بالله عليك، هل يوجد فرق في الأسعار؟
- والله يا أبو أحمد، أنا نزلت إلى باب الجنين حتى أتسلى، وأضيع الوقت، وبصراحة، يوجد فرق، وفرت ألف ليرة.
- وأجرة الباص؟
- وفرت ألف ليرة، مع أجرة الباص.

- وضيعت ساعة في الذهاب وساعة في العودة!
- أه، يا أبو أحمد لو ترى باب الجنين، فرجة وتسلية، ومناظريكي لها القلب، لو ترى، بسطات على الأرصفة، بائع يبيع ساعات يد قديمة

مكسورة، وبائع أمامه على الأرض أذية للكبار والصغار مستهلكة، أظن يشترىها من يشترىها ليحرقها، وامرأة نشرت على الأرض كاسيتات قديمة، ما عاد أحد يشترى كاسيتات، وبسطة على الأرض فيها مسامير صدئة ومفكات ونصلات سكاكين، والله اشتريت لو كنت معي لتتفرج، الحمد لله، كانت السماء صافية، والشمس ساطعة، وكان كل أهل حلب نزلوا للشراء من باب الجنين، حتى الأغنياء أصحاب السيارات، وأكثر ما لفت نظري بيع لحمه على عربة، علق شقة خروف، كأنها شقة قطعة، والبقدونس والفجل والنعنع والجرجير على الأرض أكوام أكوام، والسلق والسبانخ، خيرات كثيرة، لكن لا توجد نظافة، خسارة يا حلب، كان بإمكان البلدية وضع مصاطب حجرية منظمة، ومظلات، وتأجيرها للباعة، حقيقة، منطقة باب الجنين مسلية، فيها صخب وأصوات ونداء باعة وضجيج وفوضى وزحام وأولاد ونساء ورجال وعجائز، حياة حقيقية، ولكن تحتاج إلى تنظيم ورعاية، وأظن، كل مدن العالم فيها مثل هذا السوق الشعبي، لكن على الأقل فيه نظافة وتنظيم.

- عندي سؤال؟

- هل كان بين الباعة على الرصيف، بائع يعرض الكتب والمجلات والجراند القديمة؟

- لا، ما رأيت.

- سأفكر في البحث لي عن موضع بين الباعة في باب الجنين لعرض كتي والخرائط على الرصيف للبيع.

- لا يا أبو أحمد، أنت الله أكرمك بمحل لبيع العطور والنظارات،
محل نظافة ورقي وحضارة، لكن، ما قلت لي: أين ذهبت؟
- وأنا مثلك، كنت في حياة حقيقية، سماء صافية، شمس
ساطعة، زحام، زحام، شديد، فوضى، فوضى، لكن هدوء، وأمان،
وسلام، لا صوت، ولا حركة، عشب أخضر يزدهي تحت الشمس
الساطعة، وحجارة بيض، وعصفور يحط بأمان على حجر.
- ما هذا يا أبو أحمد؟ حلم؟
- لا والله، حقيقة، كنت هناك، وتمنيت لو أبقى، لو أنام هناك،
لكنهم منعوا النوم فيها، أصبحت مدينة قديمة مغلقة، افتتحوا مدينة
حديثة.
- كنت في المقبرة؟
- نعم، زرت قبر جدي، في المقبرة القديمة.
- وما وجدت غير المقبرة تذهب إليها؟
- لو كان عندنا مركز بحوث مستقبلية كنت ذهبت إليه.
- سأحكي لك يا أبو أحمد، في السنة الرابعة في قسم اللغة العربية
درسنا مسرحية للكاتب السوري معروف الأرناؤوط، عنوانها: أبو عبد الله
الصغير، وأنت تعرف، هو آخر حكام الأندلس، وفيها مشهد، يلجأ فيه إلى
قبر أبيه ويبكي عنده.
- المؤلف ذكي، هذه هي عصور الانحدار، ما عندنا غير الماضي نلجأ
إليه.

*

- يا أم أحمد، ما فسّرتِ لي الحلم؟ حكيت لك عنه في الصباح.
- تذكرت، تفسيره واضح، الحلم يفسر أحياناً بعكسه.
- لم أفهم؟
- أنت في الحلم ذهبت إلى حفل زفاف شاب من أقاربك، وفي الحقيقة والواقع ذهبت إلى المقبرة وزرت قبر جدك.
- لم أقتنع.

*

- وفجأة تنهض أم أحمد فرحة:
- أبو أحمد، جاءت الكهرباء.
- وما الفائدة؟ تأتي لساعة، أو لساعة ونصف في الأربع والعشرين ساعة.

- على الأقل تتفرج أنت على التلفزيون.
- كرهت التلفزيون، ما فيه غير أخبار الحرب في أوكرانيا واللاجئين السوريين في ألمانيا وتركيا، والنازحين تحت الخيام، والأمطار تغرق خيامهم والموافقة أو عدم الموافقة على إدخال المساعدات الإنسانية إلى سورية.

- يا أبو أحمد، عندك مئات القنوات الفضائية، ومئات المسلسلات، لا تكدر نفسك، الله يرضى عليك، أنا رايحة إلى المطبخ، سأجهز الشاي على السخانة الكهربائية، حتى نوفر الغاز، وهذه عندك المدفأة الكهربائية.

*

أبو أحمد وأم أحمد بجوار المدفأة الكهربائية، يشربان الشاي بالليمون.

وينقطع التيار الكهربائي.

*

تمر ساعة، وهما ينتظران الكهرباء من المولدة.

أبو أحمد يوقد شمعة.

- يا أم أحمد، كان عندنا لمبة كاز، أين هي؟

- آه يا أبو أحمد، ذكرتني، حتى لما كان بيتنا في سيف الدولة، قبل

الحرب، عانينا من مشكلة الكهرباء، تذكر معي، أنت اشتريت بطارية

سيارة، وكان معها شاحن، ومددنا في الشقة كلها الأسلاك على الحيطان،

وثبتنا عليها لمبات صغيرة، مثل لمبات السيارة، وبعدها اشتريت رافع

جهد، أو ما يسمى المنظم، الكهرباء كانت تأتي ضعيفة.

- نعم، ولما انتقلنا إلى الأشرفية في عز الحرب صرنا نستعمل

الشموع ولمبة الكاز، وأنت جرت إصبعك في مسح بلورتها من الشحوار،

تنظيفها صعب.

- آه، يا أبو أحمد، واشتريت مولدة صينية صغيرة، وأتعبتنا بشد

الحبل حتى تقلع، ولا بد من تزويدها كل أسبوع بالزيت، وعانينا من توفير

البترين لها، وبعدها بعناها بخسارة.

- أنت نسيت، يا أم أحمد، صلحناها ثلاث مرات، دفعنا أجور

تصليحها بقدر ثمنها، اشتريناها بسبعة عشر ألف ليرة، وبعناها بعشرة،

ثمنها اليوم سبعمئة ألف.

- أه يا أبو أحمد، والمولدة اليوم كسرت ظهرنا، القصة نعيدها كل يوم، وكل كلامنا على الأمبير، صار بعشرين، صار بثلاثين، وبعدها؟
- عدا تلوث البيئة، الله يحمينا من الدخان، بالتأكيد ستظهر الأمراض بعد كم سنة.

*

أبو أحمد يتصل بصاحب المولدة، يسأله، فيأتي الجواب:
- يا أبو أحمد، من شهر وأنا أشتري مازوت من النوع الرديء، من السوق السوداء، وأستعمله في المولدة، للأسف، المولدة تعطلت.
- والحل؟
- نمضي الليلة كلها على ضوء الشموع.
- وتصلحها؟
- نأمل في تصلحها، بكره، ومن الآن، كل مشترك يهني لي عشرين ألف ليرة من أجل تصلحها.
يلتفت إلى أم أحمد ويسألها:
- ماذا سنفعل؟
- ننام.
- والله صدقت، النوم هو الحل.
ويتجه إلى الغرفة حيث صناديق الكتب.
- إلى أين؟
- إلى صناديق الكتب أدفن نفسي فيها، أضع بعض الكتب تحتي،
وأتغطى بالخرائط.

- يا أبو أحمد، من تاريخ تقاعدك، وانت توليني ظهرك وتنأم.

- هذا هو قانون التقاعد.

تعلق:

- والله هذا قانون القهر والعذاب.

وتصمت، وقبل أن يدخل إلى غرفة الكتب، تستوقفه:

- يا أبو أحمد، أرجوك، أتمنى عليك اختيار أحب كتب الجفرافيا

إليك، رتبها بشكل مريح، وضَعُ بجانبها كتب اللغة العربية، كتي، وليكن الفراش عريضًا، ولعلك تختار دواوين الغزل من امرئ القيس إلى نزار قباني، رتبها جيّدًا، ولعلك تختار الخرائط الكبيرة للوطن العربي، وخرائط كل الدول العربية، واحدة، واحدة، هذه الكتب والخرائط يا أبو أحمد كانت خبزنا ومأنا، وفيها كان وما يزال معاشنا، علمنا عشنا، ولتكن الكتب والخرائط هذه الليلة فراشنا وغطاءنا، وسوف آتيك، لن أتركك وحدا.

*

كانت ليلة مميزة.

خرقًا فيها قوانين التقاعد والقهر والعجز والألم.

تدفقت المياه في الأنهار، وماجت البحار، وهطلت الأمطار، وتفجرت الينابيع، وازدادت الجبال ارتفاعًا حتى بلغت أعالي السماء، ثارت فيها البراكين، وتدفقت الحمم، وازدادت الأغوار عمقًا، والسهول اتساعًا، تغيرت كل التضاريس، وازدحمت المدن بالسكان، وتسابقت العربات والحافلات والقطارات، وحلقت الطائرات، تجولًا طويلًا في شوارع القاهرة

ومراكش وبغداد وعدن، وطافا معًا في ساحاتها وأسواقها، وغردت
قصائد الغزل في دواوين نزار، واخضرت الحروف ورقصت، وامّحت كل
الفواصل وعلامات التعجب والاستفهام، وتلاشت مساحات الفراغ
والبياض.

كلُّ منا يعرف مصر على طريقته

يستيقظ وصدره ضائق، عضلات جسمه كلها متشنجة، يرتعش
من البرد.

يوقظ زوجته.

- أم أحمد، انهضي أرجوك.

- سمعتك تتأوه.

- اسمعي، كابوس كاد يقتلني.

- سأذهب إلى المطبخ، أحضر لك كأس شاي.

- لا، لا تتركيني وحدي، اسمعي سأحكي لك عن الكابوس.

- تفضل.

- أحط فوق جدار، أنا فوق حافته، المدينة كلها أبنية وعمارات
شاهقة، ولكنها غير مكتملة، أوقديمة، مهدمة، أسوار وجدران عالية،
وشوارع ضيقة، أنا على حافة جدار، وتحتي هوة، كأني في الطابق العاشر،
أقفز إلى جدار أدنى، أحط على حافته، أترجح، أكاد أسقط، أقفز إلى
سطح بناء، أطل من حافته على الشارع، الشارع في الأسفل بعيد،

الجدران بنية، سوداء، ثمة قتامة، أسير على حافة الجدار، ثمة بحرواسع بعيد، المدينة خالية، كيف سأقفز، وإلى أين؟ في الحلم أحس هو حلم، أحاول فتح عيني، أحاول الاستيقاظ لأتخلص من هذا الجدار، ثقل شديد على صدري، أكاد أختنق، أحاول النهوض، أخشى يعاودني النوم، أخشى يعاودني الكابوس، أصبح، أنادي سعاد، سعاد، أصرخ، وأنهض.

- سمعتك تتأوه، صوتك مخنوق.

- ما تفسرك للحلم؟

- هذا من البرد، سأحضر لك كأس شاي.

ترجع تحمل الشاي، وهي تقول:

- فكرت في هذا الحلم، الكابوس، وأنا أجهز الشاي، سأفسره لك،

انتقالك من مكان إلى مكان، ومن حافة إلى حافة، هو دليل قلق، وتوتر، لا

تعرف كيف تستقر، وهذه حال المتقاعد.

- تفسير مقبول، لكن غير مقنع.

- الآن عرفت، الجدران والمنحدرات والجبال، الأمكنة الكثيرة

تفسيرها هو نهى وجلنار وأم محمد والزعيم وعدنان، أنت تتعرف عليهم،

وتقفز من مكان إلى مكان، وأنا أخشى عليك من الوقوع.

- لم أقتنع.

*

يودعها وينزل إلى المحل ماشياً.

الجو غائم، لا شمس، هواء جاف، وبارد.

برد، ورطوبة، وجومعتم، والحاوية أمام المحل تتناثر حولها أكياس القمامة.

ينظر في الساعة؟ أصبحت العاشرة والنصف، ولا أحد يمر أمام المحل، حتى ولا ملك الموت.

ما الفائدة من هذا الدوام؟ الحياة الحق كانت هناك، في مديرية التربية، صخب وضجيج وأصوات وحركة.

تدخل إلى المحل صبية في الخامسة والعشرين، تضع نظارة شمسية كبيرة، شفافة، شعرها الأشقر الطويل مرسل على كتفها، تحمل كاميرة، تدخل بكل رشاقة وحيوية واندفاع.
- صباح الخير أستاذ.

تتدلى على صدرها فوق القميص بطاقة الصحافة، قميصها ضيق مشدود على صدرها الناهد، ترتدي بنطلون جينز، فيه تمزق عند الركبتين.

*

أشفق على ركبتيهما من البرد.

*

- أنا مندوبة جريدة التسوق، أنت مثقف، وذكي، ولبق، أثنى عليك الأستاذ حواس، وذكرك بالخير، يسرني إجراء مقابلة بمناسبة إعادة افتتاح محل "أبيض وأسود"، وكيل نظارات راي بان، الوكيل الوحيد في سورية كلها، والوكيل الحصري للعطور الباريسية، وهذا فخر لنا، وبالمناسبة، الإعلان في جريدتنا مأجور، السطر الواحد بخمسة آلاف ليرة،

ولكن نحن بالعكس، سننزل صورتك، وندفع لك، هذه توصية من الأستاذ حواس.

- آنسة، أشكرك، وأرجوك.

- طبعاً اليوم لن أصور، ولن أجري المقابلة، فقط، جئت لأدرس المكان، كل ما أتمناه إزالة هذه الخرائط المدلاة من السقيفة، ولا أعرف سبب وجودها في محل لبيع العطور الباريسية ونظارات راي بان الفاخرة، وأيضاً أتمنى تغطية رفوف الكتب في عمق المحل بستارة حمراء، رفوف الكتب غير مناسبة، واسمح لي، عندنا في الأرشييف صور فنانات يمكن وضعها، ولو بشكل مؤقت، نغطي بها رفوف الكتب.

- لكن، اسمحي لي، سأقول لك...

- لا، لا، أرجوك انتظر، دعني أوضح لك، أولاً، سوف ننزل الإعلان على شكل ريبورتاج أسبوعي يتكرر على مدى شهرين، وبالمناسبة جاكيتك فيه عدة ألوان لا يناسب التصوير، أتمنى ارتداء غيره، والأفضل خمري اللون، قميصك الأصفر هذا مناسب، لكن ياقته قديمة، متهترئة، الأفضل شراء قميص جديد، طبعاً، لا ضرورة لربطة العنق، ولا ضرورة للنظارة الطبية، حتى تظهر أكثر شباباً.

- سيدتي...

- عفوا أنا آنسة

- أنستي، اسمحي لي...

- انتظر، دعني أكمل، وما هذه الحاوية أمام المحل؟ والقمامة متناثرة حولها؟ كيف سنصور مدخل المحل؟ فوراً، اليوم، اتصل

بالبلدية، واطلب رفع الحاوية من أمام المحل؟ غير معقول ظهور الحاوية في الكادر...

- آنسة، أرجوك، اسمعيني...

- وللأسف، فور دخولي المحل ملأت أنفي راحة المازوت من المولدة القريبة، توقعت أشم روائح العطور، كيف تقعد ولا تطلب من صاحب المولدة نقلها إلى مكان آخر.

وتقترب من الزنيق، تشير إلى قضيب الزنيق باشمزاز، ترفعه ثم تضعه في الكأس:

- وما وجدت غير هذا القضيب من الزنيق تضعه هنا أمامك في الكأس، كأنه رمح يقطع العين، أو قلم رصاص بيد ولد صغير، أعرف، أنت قطفته من الزنايق المغروسة في دوار الدلة، بكره تضع مكانه باقة ورد...
- يا آنسة، أرجوك، مرة واحدة اسمعيني.

- تفضل، ماذا عندك؟

- أنا أعتذر عن المقابلة والدعاية والتصوير، بلغي الأستاذ حواس اعتذاري، رجاء.

- هل تطردني من المحل؟

- عفوا، لا أطردك، تفضلي استريحي، هناك كرسي، المحل محلك.

- لا، أنت تطردني، وتشير بيدك نحو الباب، أنت لم تنتبه لنفسك.

- أنا أشرت إلى الكرسي لتقعدي عليه.

- وهل تظن من المناسب قعودي هناك عند الباب؟ وعلى هذا الكرسي المتواضع؟ هكذا تتعامل مع صحفية شابة دخلت محلك جاءت

للتفق معك على موعد لإجراء مقابلة، هل تعرف؟ المقابلة هي فخر،
وتكريم لك.

- أشكرك، ماذا أفعل؟

- وهل تسخر مني؟

- سيدتي، آنستي، أنا لا أقصد...

- ولماذا أنت متوتر ومنفعل؟

- عفوا، أنا غير منفعل، ولا متوتر.

- هل ألتقط لك الآن صورة لترى مدى انفعالك.

يلقي نفسه فوق الكرسي، يرخي جسمه، يمسح وجهه بيديه، يرفع
النظارة، يضعها جانبًا.

- سامحيني، أنا آسف، اقبلي اعتذاري.

*

ليت الحلاق يدخل الآن، أين أنت لتنقذني، ماذا أفعل؟ يا إلهي، أي
كلمة أقولها تسجل ضدي. ليت الرجل صاحب الجلابية الصيفية البيضاء
يحضر الآن، ملك الموت، ليطلق عليّ رصاصة الرحمة، أين أنت يا جلنار؟
لماذا ما سافرتُ معك إلى حماه؟ إلى كندا؟

*

- اعتذارك غير مقبول، هذه أول مرة أجد نفسي في مثل هذا
الموقف، خسارة، قال لي عنك حواس: أستاذ، ومثقف، أين الثقافة؟
توليه ظهرها وتخرج.

*

يدخل الحلاق.

- رأيت شقراء خرجت من محلك؟ مَنْ هي؟

- آه، لبيتك جئت قبل خمس دقائق.

- رأيتها داخلة إلى محلك، كنت سأدخل، لكن قلت أتركها لك، كي

تنفرد بها، أهنئك، لبيتها كانت في زيارتي.

ينفجر ضاحكًا.

- من الآن فصاعدًا، كلما رأيت شقراء فادخل مباشرة.

- ولماذا؟

- لنتقذني منها.

- وهل كانت تريد اغتصابك؟

ينفجر مرة أخرى بالضحك، يقهقه، ويروي له ما حدث.

*

- أمس الأربعاء ما نزلت إلى المحل، شغلت بالي، وما عندي رقم

هاتفك، والله لو أعرف البيت كنت جئت وسألت عنك، ما المانع؟

- لا شيء.

- احكي لي، أخاف أكون أنا السبب، ضجرت مني، أعرف، أنا كثير

الحكي والكلام.

- لا، معاذ الله، أنا ارتحت إليك.

- ولماذا لم تنزل إلى المحل؟

- لا أعرف.

- لا أريد إحراجك بالسؤال، إذا كنت لا تريد الكلام، ولكن اسمح لي، والله، فكرت من قبل، وكنت سأسألك، ما قصة هذه الخرائط، لماذا علقتها هنا؟

- أنا كنت أستاذ جغرافيا، ولكني الآن متقاعد، وهذه الخرائط من رسمي، أحببت وضعها هنا للذكرى.

- سامحني أستاذ، والله ما كنت أعرف أنك أستاذ، كنت أقول لنفسي، هذا الرجل مهذب، وطيب، وأنيق في ثيابه، لكن ما خطري بالي أنت أستاذ، بصراحة حسبتك في البداية صاحب محل نوفوتيه للسيدات، أصحاب محلات النوفوتيه دائماً فيهم أناقة ووسامة ولطف.

- أشكرك، هكذا هي الأيام، اضطررتي للعمل في محل، كنت أنتظر التقاعد، وأقول لنفسني راتب التقاعد يكفي.

- وسامحني إذا قلت لك، كنت أقول لنفسني: لماذا هذه الكتب؟ وهذه الخرائط؟ وهي في غير محلها، وغير مناسبة.

- من حقك، هذا الكلام قاله لي أكثر من شخص، وأعرف من البداية، هي في غير محلها، لا في البيت ولا في المحل ولا في الدنيا كلها.

- لا، يا أستاذ، والله أنا حسرة في قلبي، تركت المدرسة من الصف التاسع، ثلاث مرات ما نجحت في امتحان الكفاءة، وأتمنى لو عندي مكتبة، الكتب هي العلم والمعرفة، بالمناسبة، ابني في الصف التاسع، وطلب منه الأستاذ تلخيص رواية، هل عندك روايات، كل الكتب عندك في الجغرافيا؟

- عندي روايات.

- أتمنى لو أعرتني رو اية لابني، لكن أريد رو اية ما فيها حب وعشق،
أريد رو اية فيها بطولة وشجاعة.

- تكرم.

وينهض، يقف أمام المكتبة قليلاً، ثم يستل كتاباً يناوله إياه.

- هذه رو اية الشيخ والبحر، وكلها بطولة وشجاعة.

- حول أي شيء هي.

- حول صياد عجوز، حظه سيئ، أيام كثيرة ما اصطاد أي سمكة،

وذات يوم أبجرو حده في زورق صغير، ودخل في عرض البحر، ظل ثلاثة
أيام وحده، ليل وبرد وجوع، بعدها اصطاد سمكة كبيرة، ربطها إلى جانب
الزورق، وفي طريق العودة هاجمته أسماك القرش، ونهشت السمكة، لما
وصل إلى الشاطئ كان ما بقي منها غير العظم.

- الله يصلحه، لو اشترى علبة سردين أو طون، وما غامروما أتعب

نفسه، لا، لا، ابحث لي عن قصة غيرها.

- هذه رو اية تعلم الشاب حب المغامرة والتحدي.

- أنا أخاف على ابني من المغامرة والتحدي، وبالنسبة إلى السمك،

اسمح لي أحكي لك عن السمك، كنا أنا وأصحابي، في أيام العز، خسارة
راحت، قبل الحرب، وقبل هذا الغلاء، والله، كنا كل يوم خميس، وخاصة
في الصيف، نغلق المحل الساعة الحادية عشرة، نركب السيارة، بساعتين
ونصف نصير في اللاذقية، فوراً إلى مطعم العصافيري، مطعم مطل على
البحر، وما نتناول إلا سمك السلطان إبراهيم، الكيلو حالياً بمئة ألف،
سمك ذهبي، مقرمش، طازج، ونسهر حتى الساعة الثالثة، نرجع إلى حلب

مع الفجر، أيام حلوة عشناها، الله يلعن الحرب، وكل مَنْ أشعل نار الحرب، ويلعن هذا الغلاء.

ويتكلم الأستاذ وحيد:

- وأنا أقول لك: حتى في أيام العز، الفقير يزيد فقره، والغني يزيد غناه.

- لا، لا، مثل هذه الأيام، ما مرّ علينا، على كل حال، أنا طلبت من الولد حسون عندي في المحل إحضار ثلاثة صحون فول وصحن حمص، حتى نتغدى مع بعض، لما يوصل أناديك، وعلّق على باب المحل من الداخل لوحة: سأرجع بعد قليل.
- أشكرك.

- لا داعي للشكر، هي دعوة بسيطة، هل ترفض الدعوة؟ ادعيني بكره إلى مثلها.

*

يطل من باب المحل شخص، جهم، طويل، بدين.
يأتيه صوته:

- هذا أنت، هنا؟ الأستاذ وحيد؟ ماذا تفعل؟ ما هذه المصادفة؟

- تفضل، تفضل، أستاذ عامر.

- ما هذا يا أستاذ وحيد؟ قاعد هنا؟ هذا محلّك؟

- لا، المحل لصديق، أنا هنا أبيع النظارات والعطور.

- هل هذا مصير الأستاذ وحيد؟ أستاذ الجغرافيا العلامة؟ رسام

الخرائط؟ وخرائطه تملأ العالم؟ ما هذه المهانة؟ وكيف رضيت تقعد

للبيع، وتنتظر من هب ودب ليدخل المحل ويساومك، واشترى وما اشترى؟
يا أخي أنت أستاذ، أنت عالم جغرافيا.

- ماذا أفعل؟ قل لي.

- ماذا تفعل؟ لا أعرف، اسأل روحك، أنا شخصيًا لا أرضى لك
هذا العمل، هذه إهانة لكل المدرسين، هذا ذل.

- يا أخي، يا أستاذ عامر، كثير من الأطباء، والقضاة، والمحامين،
عندهم محلات بوتيك ونوفوتيه وأحذية ومطاعم، وأنا أعرف أكثر من
أستاذ يعمل سائق سيارة تكسي، العمل شرف؟

- أعرف، أعرف، لا تعلمني، لكن الواحد منهم لا يقعد لبيع
ويشتري، يوظف عنده أجراء، مثلك، أنت أجبر كل معنى الكلمة.

- لا، الرجل منحني الثقة.

- أي ثقة، أنت في النهاية أجبر، انهض، فكّر، لا تقعد، هكذا مثل
الحجر، اذهب إلى المحافظ، إلى الوزير، الحمد لله مدير التربية استلم
منصب وزارة التربية، الرجل صديق الجميع، سافر فورًا إلى العاصمة،
قم بزيارة الوزير، وعلى الأقل اذهب إلى رئيس البلدية، قل له أنا فلان.

- وماذا سأطلب منهم؟

- لا تطلب، افرض عليهم، أنت عالم، واجبه تكريمك، لا أعرف،
هم عندهم أبواب للتكريم.

وينظر في الخرائط.

- إيه، ولماذا علقت هذه الخرائط؟ هل هي معروضة للبيع؟ والله
هذا كله عيب، اذهب إلى مكتب المحافظ، اذهب إلى رئيس البلدية، هذه

الخرائط يجب تعليقها في ممرات القصر البلدي، وفي قصر المحافظة، هذه الخرائط ثمنها ملايين، يجب منحك مكافأة شهرية فوق راتبك التقاعدي، أنت مقصر في حق نفسك، اسمع مني، اسمع، سافر إلى بيروت، وهناك المكتبات مفتوحة والطباعة...

- يا أخي، يا أستاذ عامر...

- أرجوك، وضعك هذا لا يسرني، محل ورطوبة وزبونات، وبيع وشراء، وأمضيت عمرك في تدريس الأولاد، حتى يُخِّ صوتك، انهض، أنت الآن حر، وقتك ملكك، أنا بدلا منك، أزور أقاربي، أعيش حياتي، أسافر، وإذا ما أردت السفر، عندك هنا حديقة السبيل، والله، القعدة فيها ولا أحلى منها.

- حاضر، أنا مو افق، لكن عندي سؤال.

- لا تسألني، أنا عارف سؤالك سلفاً، ستقول راتبي لا يكفي، هذا هو سؤالك.

- نعم.

- يا أستاذ وحيد، أبواب الرزق كثيرة، المولى عز وجل قال: "فامشوا في مناكبها"، ما قال: واقعدوا في زواياها المعتمدة، والله أنا مشفق عليك، من قاعة الصف الرطبة المعتمدة إلى محل ضيق خانق رطب، أنا نصحتك، والسلام عليكم.

ويوليه ظهره، وقبل وصوله إلى الباب، يلتفت ليقول:

- رجاء، لا تغلط في فهمي، كلامي معك كله من باب المحبة والحرص عليك، والسلام عليكم.

ويفتح الباب ويخرج.

*

يعلق لوحة على الباب الزجاجي من الداخل، مكتوبًا عليها: سأرجع بعد قليل.

يدخل إلى محل عدنان.

- أهلا، أهلا، بالأستاذ وحيد، أحلى طلة، خطوة عزيزة، تفضل.

ويأبى إلا أن يقعده في مكانه وراء الطاولة.

- هذه جريدة وضعتها على الطاولة، وعندي في المحل زيت وزعتر،

هيأت الصحنون، وعندي مخللات، وزيتون، وإبريق الشاي على النار،

الولد تأخر، أنا أرسلته إلى محل سُلّاف.

- شكرًا، شكرًا.

- خير، أستاذ وحيد، وجهك متغير، مزعوج، عندي حب سيتامول،

آه، وعندي ليمونات، نسيت سأحضرها، عندي هنا مطبخ صغير، والله

شغلت بالي، وجهك غير طبيعي.

ويحكي له عن زيارة الأستاذ عامر.

ثم يضيف:

- كنت سأسأله: وأنت تقاعدت قبلي بخمس سنين، كيف دبرت

أمورك؟ لكن ما ترك لي فرصة للكلام، والله رفع لي ضغطي، وأحس بالأم في

أسفل بطني، تهيج الكولون.

- أستاذ وحيد، لا يرتفع ضغطك ولا تهتم، بالله عليك، هو أستاذ

أي مادة؟

- هو أستاذ التاريخ.

- والله، لا تزعل مني، وحاشاك، هذا لا هو أستاذ تاريخ ولا جغرافيا، هذا لا يفهم في أي شيء، لا في السياسة ولا في الدين، ولا حتى في الأخلاق ولا علم السلوك، أنا لو كنت عندك في المحل كنت ضربته كفين وطرده من المحل.

- أنت لو رأيت، طول وعرض وبدانة، والله، ما كان من قبل بهذا الشكل، ولا بهذا السلوك ولا بهذه الأخلاق، صار مثل البغل، لا تؤاخذني، والله، هذه أول مرة ينطق لساني بمثل هذا الكلام.
عدنان يضحك.

- عرفت، أنت رجل طيب ومهذب، أنا مع كل كلمة أقول هذا بغل، وهذا تيس، وهذه سلحفاة، نسيت السلحفاة، ماتت، الحمد لله، استراحت، وأراحت، طبعًا، بعض الناس مثل الحيوانات، وبعض الناس مثل الفراشات والحمامات، المجتمع مثل الغابة، عدا بعض الناس.

*

ويدخل الأجير، يحمل صينية، فيها ثلاثة صحون فول، وصحن حمص، مع ربطة خبز أبيض سياحي.
- هات يا حسون، تعال، حط الصينية كلها هنا، على الطاولة، وتفضل، اقعد معنا، هذا عمك الأستاذ وحيد، أستاذ الجغرافيا، صديق جارنا الأستاذ غسان، هو استلم المحل.
ويقعد حسون بجوار عدنان.

وينهض عدنان، يضع في المسجل شريط أغنية محمد عبد الوهاب
النهر الخالد.

- تفضل أستاذ، تفضل، لا تخجل أرجوك، الصبحون الأربعة
سترجع فارغة ونظيفة، أستاذ وحيد، ستأكل الحمص والفل، أنت الآن
في شارع النيل، لكن تخيل نفسك على نهر النيل، وتأكل الطعمية أو
الكشري، تفضل، بالهناء والصحة والعافية، واستمتع بالطعام وأنت
تسمع محمد عبد الوهاب، وهو يغني أغنيته العظيمة، النهر الخالد:

مسافر زاده الخيال
والسحر والعطر والظلال
ظمان والكأس في يديه
والحب والفن والجمال

شابت على أرضه الليالي
وضيعت عمرها الجبال
ولم يزل ينشد الديار
ويسأل الليل والنهار
والناس في حبه سكارى
هاموا على شطه الرحيب
أأأأأأأأه على شرك الرهيب
وموجك التائه الغريب
يا نيل يا ساحر الغيوم

- سأحكي لك، أستاذ وحيد عن رحلتي إلى مصر، ونحن نتناول الطعام، ونستمع إلى عبد الوهاب، تناول طعامك، واسمعي، وأنا أحكي وأتناول الطعام، يحلولي الحديث وأنا على المائدة، لكن قبل ما أحكي عن مصر، سأقول لك كلمة.
- تفضل.

- هذا زميلك، الأستاذ عامر، ولا يستحق كلمة أستاذ، شافك في أفخم محل في شارع النيل، محل نظافة وترتيب، محل نظارات وعطور، غارمنك، كلامه دليل حسد وغيرة وقهر، ونحن نقول: ضيقة عين، أو عينه ضيقة، لذلك، لا تهتم، نسيناه، وما عدنا نذكره، الله يبعث له سيارة تعفسه، مثلما عفست المرأة.

- لا يا أخي، الله يحميه ويحمينا، الرجل، والله طيب، وهو صديق عزيز، وعنده أولاد، وكان بيبي وبينه زيارات، الله يسامحه.
- نسيناه، سأحكي لك عن مصر.

*

مصر، وما أدراك ما مصر، مصرياً أخي أم الدنيا، أنا رحت إليها بصفة تاجر، انقلبت هناك إلى سائح، ورجعت كأني عاشق، نعم، أنا عاشق مصر، رحت ومعى أربعة آلاف دولار، لأشتري أحذية وبضعة أمتار من الجلود، مصر مشهورة بالجلود، صرفت الأربعة آلاف كلها، رجعت ما معى غير هدايا لزوجتي والأولاد، مانطو جلد لزوجتي، ومانطو جلد لحماتي، وجاكت لي، وأحذية لي ولأولاد، الأحذية في مصر، الحقيقة هي

الأحذية، اتركنا من قصة الأحذية والجلد، ماذا أحكي لك، عن النيل،
أحلى شيء الوقوف على جسر عباس والإطالة على النيل والموج يجري
تحتك، والنسيم يداعبك، والصبايا والشباب حوالك، زحام شديد،
عشرين مليون نسمة، القاهرة لا تنام، وما أحلى الزوارق الصغيرة
والكبيرة وهي رايحة وجاية، خيال، وهناك حديقة، نسيت الآن اسمها،
الدخول إليها بجنهمين، والله قليل ولو كان بعشرة، نظافة وترتيب، تنزل
إليها بأدراج واسعة وعريضة، وتقع على مقعد حجري والنيل أمامك،
وتغط يدك فيه، آه، انتهيت لو كانت زوجتي معي، انتظر، سوف أسمعك
أغنية عبد الوهاب، امتي الزمان يسمح يا جميل، أنا سأغنيها لك:

إمتي الزمان يسمح يا جميل
وأسهر معاك على شط النيل

الجو كله سكون والورد نام عالغصون
والقمر طال علينا والعزول غاب عن عينينا
وأنا والجميل قاعدين سوا قاعدين سوا
قاعدين سوا على شط النيل

من قبل كنت أحب عبد الوهاب، في مصر صرت أعشقه، لا تسمع
عبد الوهاب وإلا أنت قاعد على النيل، كليوبترا أين من عيني هاتيك
المجالي، يا عروس البحر يا حلم الخيال، صوتي خشن، سامحي، اسمعها

هناك، وأمامك سفينة تروح وترجع اسمها كليوبترة، يا أخي مصر جنة، ميدان رمسيس، في الوسط يقف تمثال رمسيس، لكن بعد سنتين سمعت أنهم شالوه، ونقلوه إلى مكان آخر، لا أعرف لماذا؟ نحن بصراحة لا نعيش حياتنا، اسمح لي لأقول لك، هناك الأجانب من السواح، الواحد منهم عجوز عمره أكثر من ثمانين سنة، معه زوجته جاؤوا ليتفرجوا على آثار مصر، نحن الواحد فينا يصير عمره ستين سنة يتقاعد، يحمل مسبحته ويذهب إلى الجامع، أو المقبرة، ينتظر الموت، لا يعرف ماذا يصنع، ماذا أحكي لك، أنا كنت أحب الأهرامات، وشفتها في الأفلام المصرية، لكن لما تشوف الأهرامات على حقيقتها وفي أرض الواقع، كل شيء يختلف، أبو الهول، حقيقة أبو الهول، أحلى شيء، ماذا أحكي لك، أحلى شيء هو عصير قصب السكر، عسل، الكاسة الكبيرة بجنيه، يعني عشر ليرات، أو عشرين، ما عدت أتذكر، هذا كان عام ٢٠١٠، طبعا مصر زحام، لكن أنا حبيت الزحام، لي صديق حدثته عن القاهرة، راح، رجع قال ما أحبها، تحس هناك بالحياة، بالحركة، التماثيل ما أكثرها، في كل ساحة تمثال، في ميدان التحرير تمثال عبد المنعم رياض، وفي ساحة طلعت حرب تمثال طلعت حرب، وعند أحد الجسور يقف على كل طرف منه تمثال أسد، روعة، نسيت اسم الجسر، وهناك منطقة اسمها العتبة، يا إلهي، سرافيس وتوك توك، التوك توك كثير حلو، مثل سوزوكي، ثلاث عجلات، عن أي شيء أحكي لك، عن الكشري، أكلة شهية، رز ومعكرونة وعدس وحمص وبصل مقلي وصلصة، تقعد في المحل، يأتيك صحن ساخن، تصب عليه الخل، الكشري تسلية وشبع وغذاء،

رخيص، صديقي ما أحب الكشري، أفخم صحن بخمس جنيهات،
والطعمية، أرجوك، لا تتضايق من كلامي.
*

ويدخل عليهما الرجل صاحب الجلابية الصيفية البيضاء ويوجه
إليهم واحدًا واحدًا مسدسه الوهي ويصيح:
- طاخ، طاخ، طاخ، طاخ، طاخ، طاخ.
ويضحك، ثم يغادر.
ويتكلم الأستاذ وحيد:
- تسمح لي، أدهن الرغيف بملعقة حمص، وحسون يأخذه له.
ويتكلم حسون:

- أستاذ، لا يأكله، سيرميه في الحاوية، جربنا أكثر من مرة، هو
يلتقط الطعام من الحديقة، ومن الحاوية.
ويتابع عدنان كلامه على مصر.
- سأحكي لك عن حديقة الحيوان، لم تعجبني، سمعت عنها
وشاهدتها من قبل في أفلام كثيرة، لكن وجدتها مهملة، وأشجارها لا تلقى
العناية، وخسرت لأنني دفعت خمسة جنيهات أجرة الدخول، استأنت
وانزعجت...

*

وأنا أعرف مصر، مثلك وأكثر، أعرف مصر، درس حفظته، وخريطة
أستطيع رسمها بدقة عالية، وأنا مغمض العينين، يحدها من الشرق البحر
الأحمر، ومن الغرب ليبيا، ومن الجنوب السودان، ومن الشمال بحر

المتوسط، ويخترقها من الجنوب إلى الشمال نهر النيل، أطول نهر في العالم، وهناك من يقول نهر الأمازون هو الأطول، هل تعرف نهر الأمازون، أنا أعرف كل أنهار العالم، وفي الشمال يتفرع نهر النيل إلى فرعين، دمياط والثاني نسييت اسمه مثلك، وعاصمتها القاهرة، وعدد سكانها ٢٢ مليون، الفرع الثاني اسمه رشيد، الآن تذكرت، درس حفظته، وكل سنة أعيده على الطلاب، جغرافيا، نعم، جغرافيا، جغرافيا، ما الفائدة، بعد ثلاثين سنة جغرافيا، ما الفائدة؟

*

- أين شردت، أستاذ وحيد، اسمع مني، أرجوك، أكمل صحنك، سنعيد الصحنون إلى مطعم سلاف نظيفة، تفضل، واسمعي أرجوك، المصري يدفع ربع جنيهه للدخول إلى حديقة الحيوان، والأجنبي يدفع خمس جنيهات، لكن تسليت أمضيت فيها نصف النهار، الذي سلاني العائلات، كان يوم جمعة، وفي كل زاوية ترى أسرة من عشرة أشخاص أو عشرين، الأم وبناتها وأخواتها ومعهم الطعام والشراب، يقعدون على العشب أو حتى على الأرض، المصري ما عنده هم، همه أن يفرش ويعيش، طولت عليك في الحديث، يا أخي أنا عاشق مصر، للأسف، كان بإمكانك الحجز بالطائرة والسفر فوراً، لا فيزا ولا تأشيرة، الآن السفر من رابع المستحيلات، فيزا وتأشيرة، ولقاح كورونا، سامحني، رجعنا من مصر، ولن نحكي أكثر، فقط اسمح لي أحكي لك عن المولات، مول سراج، ومول العقاد، ومول سיתי ستار، هذه لا أنسى أسماءها، سיתי ستار عالم، كل شيء تطلبه موجود فيه، الخلاصة، مصر أم الدنيا، والسلام

عليكم، أنت نعست، واشتقت لمحلّك، لكن آه، لو أحكي لك عن قلعة صلاح الدين والأزهر، ومسجد الحسين، اسمعني أرجوك، قبل ما تروح إلى المحل، أكمل تناول صحنك، سأحكي لك عن الفراخ المحشية، أو الحمام، أطيب أكلة ذقتها في حياتي، في منطقة قريبة من شارع اللقاني، نسيت اسم المنطقة واسم المطعم، طبعًا شارع اللقاني لا أنساه، اشتريت منه لزوجتي حقيبة يد، وبلوزة فستقية اللون، حتى الآن تلبسها، أجمل شارع في العالم، قناطر، وأعمدة، وزخارف، ومحلات على الجانبين. ويهم الأستاذ وحيد بالnehوض، فيضع عدنان يده على كتفه: - أقسمت عليك بالله، ستكمل صحنك.

ويتابع عدنان كلامه

- ونسيت أحكي لك عن الترمواي، في القاهرة أكثر من خط، ركبت في خط الميرغني من ميدان رمسيس إلى الميرغني، ساعة وربع والترام تعبر فيك شوارع القاهرة، وتتفرج من نوافذها المفتوحة، وهي تتبختر وتتمايل، أنا شفت القاهرة كلها في الأفلام في السينما، لكن شفتها في القاهرة على الحقيقة، كأني شفت حلم وتحقق الحلم في الواقع، مصر أم الدنيا، هل أحكي لك عن الكباري، فيها شبكة كباري تغطي القاهرة كلها، وفيها كوبري طوله ستة كيلومتر، والمترو، أعجوبة الدنيا، أنت أستاذ أظنك زرت مصر، وأظنك رحت إلى باريس وأوربة، وشفت المترو في باريس، أنا سمعت أن أقدم مترو هو مترو باريس، لا، مترو لندن، تذكرت، لا تؤاخذني، أثقلت عليك.

*

أنا ما رحّلت إلى محل، أنا العالم كله جاء إليّ، أنا العالم كله بين يدي،
الكرة الأرضية كلها عندي في المحل.

*

ويرفع حسون الصحون، ويصبب الشاي في الكؤوس.
- يا حسون، خذ الصحون، واغسلها في المطبخ، ونشفها، ورّجّعها
إلى المطعم، صاحب مطعم سُلّاف رجل محترم وكريم.
ويلتفت إلى الأستاذ وحيد:
- تفضل أستاذ، كاسة الشاي.
ويرشف الشاي، ويتكلم:

- وأهم شيء في مصر الخبز، أنا بقيت في القاهرة ثلاثة أسابيع، ما
نزلت في فندق، استأجرت شقة مفروشة، وكنت أطبخ وأكل في الشقة،
المهم، الخبز متوفر في كل ساعة، أنزل إلى الفرن عند كل وجبة أشتري
رغيفين، حتى بعد منتصف الليل، أرجع إلى الشقة، أمر بالفرن، واشتري
أربعة أرغفة، أنا هنا في حلب، تذهب زوجتي إلى الفرن لتشتري الخبز،
تقف في الدور ساعتين أو ساعتين ونصف الساعة حتى ترجع بربطة خبز،
سأحكي لك يا أستاذ عن حلب، بلدي وأحبها، مرة كنت في باب الفرج، هنا
في حلب، وشاهدت بأم عيني اثنين من السواح، كان مع واحد منهم كاميرة،
ومرت عربة يجرها حمار، أسرع وصورها، اشتيت لو أضربه على قفاه
وأخذ منه الكاميرة، كان بجواري شاب، سألته: لماذا يأتي السواح إلى بلادنا
ليتفرجوا عليها وعلينا، ولماذا لا نذهب نحن إلى بلادهم ونتفرج عليهم وعلى

بلادهم، أجابني: بلادنا بالنسبة إليهم شيء قديم، متحف حي، صدقي، ضاقت بي الدنيا، وتأملت، هل نحن دقة قديمة، وما تطورنا؟
- كلام الشاب صحيح، صدِّقْه، وللأسف نفتخر بأننا ما زلنا دقة قديمة، ولا نريد التطور.

ويتكلم عدنان:

- خسارة يا أستاذ، الشعب السوري أرقى الشعوب العربية، نحن الآن رجعنا إلى الوراء مئة سنة، والله لما نزلت في مطار القاهرة، ضرب لي الضابط تحية، لما عرف أنا سوري، وقال: شعب سورية أجده ناس، الآن خسارة، تغيرت المعاملة، ماذا أحكي لك، صار اسم السوري في القائمة السوداء.

- شكرًا للغداء، شكرًا للشاي، وشكرًا لحديثك عن القاهرة.

*

ويهم الأستاذ وحيد بالنهوض.

- إلى أين؟

- إلى المحل.

ينظر إلى ساعة يده.

- هل تعرف، ساعة كاملة، وأنا عندك في المحل.

- والله لوبقيت ثلاث ساعات، لما مللت من الحكي عن القاهرة،

لكن قبل ما تروح، عندي كلمتين.

- تفضل.

- كل هذا السرور، راح، كله راح في خمس دقائق، في عام ٢٠١٥
نزلت على بيتي في حي الزهراء، بيت يشتهي قلبك، كأنه قصر، صرفت
عليه تعب العمر، نزلت عليه قذيفة، راح البيت كله، على الأرض، الحمد
لله، زوجتي كانت عند أهلها في حي حلب الجديدة، هي والأولاد، رحت
لعندها، سهرنا، قالت لي: صاروقت عودتنا إلى البيت.
يمسح دموعه.

- قلت لها: أي بيت؟ قالت: بيتنا في الزهراء، قلت لها: ما بقي لنا
بيت، بيتنا صار على الأرض، ما عشنا فيه غير ثلاث سنين.
- الحمد لله على سلامتك.

- الحكاية ما خلصت، بعد ثلاثة أيام، نزلت قذيفة، هنا، على
سيارتي، أمام المحل، راحت السيارة، احترقت، ما بقي منها غير الحديد.

*

يرجع إلى المحل، يأخذ مكانه بين صندوق المحاسبة، والكرة
الأرضية، ينقر على الكرة بإصبعه، فتأخذ بالدوران، من اليمين إلى
الشمال، ينقر عليها مرة أخرى، فتبدأ بالدوران من الشمال إلى اليمين،
يضحك.

الأرض تدور، لماذا نحن لا ندور؟
يضع رأسه بين يديه.

*

يسرع إلى المطبخ الصغير في المحل، يستل السكين، ويهجم، يبدأ
بالطعن، هنا وهنا وهناك، يبدأ بالتمزيق، العالم بين يديه يتمزق، تتناثر

الكرة الأرضية إلى قطع بلاستيك مرمية على الأرض، مترو باريس ومترو لندن ومترو موسكو، أنا أعرف كل أنهار العالم وكل العواصم، كلها عرفتها وكلها زرتها، على الورق، وأنا رسمت خرائطها، ومحوت الخرائط، يجذب الخرائط، يمزقها، قطعًا قطعًا.

*

يفتح عينيه، يرفع رأسه، الكرة الأرضية الصغيرة أمامه ما تزال تدور.

*

وَهُمْ، أوهم، ظننت نفسي أقف حقيقة أمام العالم، ولكني الآن أراها كرة جوفاء، وهي حقيقة كرة جوفاء، ما أزال أذكر، في المرحلة الثانوية قرأت دون كيشوت، وقرأتها وأنا في الجامعة، وقبل يومين قرأتها، لا أنسى موقفه من طاسة الحلاق، عثر على طاسة حلاق صدئة، مما كان الحلاقون يضعونها تحت ذقن الزبون ليغسلوا الصابون عن ذقنه، فظنها خوزة قائد روماني، فحملها وأخذ يمجدها، وأنا أيضا حسبتك الكرة الأرضية حقيقة، وإذا أنت مجرد كرة بلاستيكية جوفاء.

*

الحلاق يدخل عليه.

- السلحفاة العجوز، هي التي داستها السيارة، يسلم الدين والإيمان، والبقية في حياتك، المسكينة ماتت واستراحت، يرحمها الله.
- وكيف عرفت؟

- صليت صلاة العصر في الجامع، قرأت نعيها على باب الجامع،
المرحومة الحاجة خديجة زوجة المرحوم أحمد، توفيت في حادث سيارة.
- ما ماتت، هذه امرأة أخرى، السلحفاة، مثلما أنت تسميها، على
قيد الحياة.

- كيف عرفت؟

- المسكينة فقيرة، ما حجت، ولا هي حاجة، وزوجها رجله
مقطوعة، وعلى قيد الحياة، في المثل: عمر الشقي بقي، أمامها عمر من
الشفاء.

- حسبي الله ونعم الوكيل، خاب ظني، قلت لنفسي ماتت واسترحنا
منها، بكره تقعد عندك في المحل أربع ساعات، نصيحتي لا تضع هذا
الكرسي، هنا أمامك، حتى لا تقعد، مثل الهم على القلب.
- سامحك الله، هي مثل أختنا، والله، إذا زارتنا، سأدعوك، لتعتذر
إليها.

- لا، أرجوك، أنا اعتذرت إليها بيني وبين نفسي، لا أريد الحديث
معهما عن الموضوع، والله، بصراحة، أحس بالخجل منها.

*

يرجع إلى المحل.

يدخل رجل وامرأة.

الرجل يتكلم.

- أريد نظارة شمسية واحدة لي، وواحدة لزوجتي، أريدها عاكسة
لأشعة الشمس، ومن النوع الخاص بالبحر.

وتتكلم الزوجة:

- سنسافر غداً إلى الغردقة، لتمضية إجازة رأس السنة.

ويتكلم الزوج:

- أنت تعرف، الشمس عند البحر تؤذي العيون، وبحسب خبرتك،

نريد نظارتين خاصتين بالبحر.

*

الحمد لله، صار عندي خبرة، سأعطيهِ نظارتين من نوع أوفياتور،

العاكسة للضوء، وهي في الرف الثاني.

*

- تفضل، هذه من نوع أوفياتور، وهي عاكسة للضوء، وهي على

نوعين: الأول العدسات فيها واسعة وعريضة، تغطي الوجه، وتحجب

الشمس، والنوع الثاني ضيقة، ورفيعة، تغطي العينين، والعدسات

البنية القائمة أفضل.

وتتكلم الزوجة:

- أنا أختار نظارة من النوع العدسات الواسعة والقائمة.

ويتكلم الزوج:

- أحسنت دكتورة إيمان، وأنا سأختار مثلك.

وهما يدفعان الثمن، مئتين وعشرين دولاراً للنظارتين، مع ثمن

العلبتين، يتكلم الرجل:

- أستاذ، أنا طبيب مختص بالمسالك البولية، تفضل هذه بطاقة باسمي، أتمنى ألا تحتاج إلى مراجعتي، لكن الرجل بعد الستين يضطر، وتسرنى منك زيارة ودية، تفضل.
ويناوله بطاقة باسمه.

وتتکلم الزوجة:

- تفضل، وهذه بطاقة باسمي، أنا طبيبة نسائية، زوجتك لا شك لن تحتاج إليّ، إلا إذا كانت أصغر منك بعشرين سنة.
يضحك:

- لا، هي أصغر مني بخمس سنين فقط.

وتضيف الطيبة:

- لا شك عندك بنات، وزوجات لأولادك الشباب، يسرنى تقديم الخدمة المطلوبة.
- شكرا، هذا لطف منكم.

*

آه، بناتي خارج الوطن، وابني لاجئ في ألمانيا.

*

يصلان إلى الباب، فيرجع الزوج:

- أستاذ أين ستمضي إجازة رأس السنة؟ على كل حال إذا كنت ستمضيها في الغردقة، فسوف نلتقي هناك، اسأل عني في فندق هيلتون، كل إجازاتي أمضيها فيه، هو أفضل فندق في الغردقة.
الزوجة تشير إليه بيدها مودعة:

- عسى نلتقي هناك، أنت والمدام.

*

يسرع إلى جاره عدنان.

- سامحني، ما عدت أستطيع الاستغناء عنك، كل دقيقة سأدخل

عليك.

- أهلاً، وسهلاً، بأروع جار.

- لك عندي مفاجأة.

- تفضل.

- سأمضي إجازة رأس السنة في الغردقة، أين ستمضيها أنت؟

*

ما إن يرجع إلى المحل حتى تدخل عليه العجوز، وهي تندرج في

مشيتها، وتميل إلى اليمين والشمال، حاملة بكل يد عدة أكياس.

- تفضلي أختي، أم محمد، تفضلي، أهلاً وسهلاً، الحمد لله على

السلامة.

تضحك، تعلق:

- الله يسلمك، كل المحلات في الخالدية وشارع النيل يقول لي

أصحابها: الحمد لله على السلامة أم محمد، وألقى منهم هذا الاستقبال

الجار.

- والله شغلتي بالنا.

- عرفت، الناس ظنوا عfstني السيارة، لا، السيارة عfst امرأة

في عمري، تشبني، مسكينة، حسبي الله ونعم الوكيل، والله كانت أمامي،

هي رمت نفسها أمام السيارة. استعجلت، أنا تعقدت من دوار الدلة. ما
عدت أحب هذه المنطقة.

ويسرع يقدم لها كرسيًا لتقعد عليه.

- الله يرضى عليك يا بني.

ويتكلم الأستاذ وحيد:

- يا خالتي، أم محمد، أنت ناديتني يا بني، أنت أصغر مني.

- لا يا بني، أنا عجوز، عمري فوق الخمسين.

يضحك، يعلق:

- وأنا في الستين.

- لا، لا، ما شاء الله، أنت ما وصلت للخمسين.

*

ويدخل عليهما ملك الموت ويسدد إليهما مسدسه الوهمي، ويصيح:

- طاخ، طاخ، طاخ، طاخ.

ثم يخرج.

- هل تعرف قصته؟

- لا، والله، يا خالتي.

- أنا سأحكي لك.

ويطل عليهما عدنان، مهم بالرجوع، ولكن الأستاذ وحيد يناديه:

- تفضل، تفضل، هذه أختنا، أم محمد.

ويدخل:

- مرحبا بأختي أم محمد، سامحيني، والحمد لله على سلامتك،
أنت غالية علينا، وعزيزة.
وتتكلم:

- الله يغفر لنا، ويسامحنا جميعًا، كنت سأحكي للأستاذ عن قصة
هذا الأبله؟ هل تعرفها؟
ويتكلم عدنان:
- سمعت عنه حكايات كثيرة.

- أنا سأحكي لك الحقيقة، هو شاب مثل الورد، كان عند دوار
الدلة، قرب الحاجز الأمني، ونزلت قذيفة، وانفجرت بجواره، وحملوه إلى
المستشفى، زوجي بعينه شاف الحادثة، وبعد خمس دقائق نزلت قذيفة
ثانية، وانفجرت قرب زوجي، وحملوه في سيارة ثانية، هذا الشاب
المسكين، امتلأ جسمه بالشظايا، وأنتم، الله يحميكم، مثل أولادي،
عضوه الذكري انقطع، الأطباء استخرجوا كل الشظايا من جسمه، لكن
كان في رأسه شظية، حاولوا استخراج الشظية ما قدروا، وصار معه شلل
نصفي، وفقد ذاكرته، وصار على هذه الحالة، الشظية حتى الآن في رأسه،
كيف عايش، لا أعرف، وزوجي، الحمد لله، رجله وحدها راحت، كان في
جسمه شظايا كثيرة، استخرجوها، وعضوه الذكري، أهم شيء، الحمد
لله، سليم، هذه قصته، الله يحن عليه.

عدنان يخرج وهو لا يكاد يتمالك نفسه من الضحك.
الأستاذ وحيد يقول لها:

- يا أختي، أم محمد، لك عندي أمانة.

ويستل من درج المكتب الظرف، ويتقدم، يناولها.
- تفضلي، هذا مبلغ خمسين ألف ليرة، لزوجك.
- من أين؟ ومن أعطاك المبلغ؟
- هو رزق من الله.
- أعرف، كلها أرزاق من الله، لكن زوجي عنيد، وإذا ما عرف
مصدره، لا يقبله.
- هو مني أنا.
- خائفة يكون من جارك عدنان، حتى يكفر عن ذنبه، والله إذا كان
المبلغ منه فلا أخذه.
- أي ذنب؟
- أظنه حكى لك.
- نعم، حكى.
- لذلك طلب مني السماح.
- سامحيه، واطمئني، المبلغ مني أنا.
- الله يرزقك ويعوض عليك، سأعطيه لزوجي، وإذا ما قبله؟ ماذا
أفعل؟ زوجي عنيد، ونفسه عفيفة.
- أنت وزوجك واحد، خذيه لك.
- تأخذه، وتخرج حاملة أكياسها السود.

*

يدخل إلى المحل رجل بدين، في نحو الخمسين، يضع نظارة طبية
سمكية، لحيته طويلة، يرافقه شاب في الثلاثين.

- صباح الخير.

- أهلاً وسهلاً.

- أنا المخرج علاء، وهذا الشاب الأستاذ نزار، مساعدتي، نريد أربع نظارات تعطي الوجه ملامح القوة، تناسب المرافقين لكبار المسؤولين، وكما نسهمم بدي غارد، أصحاب الأجسام القوية، والوجوه العريضة، عندي تصوير فيلم، له طابع بوليسي.

*

ذكر لي الزعيم اسم نوع فاخر، لكن نسيت اسمه، ولا أريد توريط نفسي، ولا أريد الظهور بمظهر الجاهل، هو مُخرج، وعليه اختيار ما يناسب شخصيات مسلسله، سأعرض عليه عدة أشكال.

*

- سأعرض عليك خمسة أشكال ولك اختيار ما يناسب.
المخرج يضع على عينيه النظارات، واحدة بعد الأخرى، ينرفي المرأة المدورة، يتشاور مع مساعده.
ويدخل ملك الموت، ينظر في الرجلين، يوجه إليهما مسدسه،
ويصيح:

- طاخ، طاخ، طاخ، طاخ.

يصقّ له المخرج.

يضحك، ويخرج.

المخرج يلتفت إلى مساعده، ويقول له:

- هل حفظت حركاته؟

- نعم.

- تذكرها جيداً.

ويلتفت إلى الأستاذ وحيد، ويقول له:

- شكراً أستاذ، نحن سعداء بالتعرف عليك، وسرّنا دخول هذا

الأبلة، عندي في المسلسل شخصية تشبهه، استفدنا كثيراً من حركاته

العفوية، لكن، هل تعرف قصته؟ قد نستفيد منها في بناء المسلسل.

ويروي له قصته كما حكته أم محمد.

- رائع، شكراً لك، سوف نستفيد منها.

يشترى أربع نظارات، يدفع ثمنها ستمئة دولار، ويهمهم بالمضي، لكنه

يلتفت ليقول للأستاذ وحيد:

- أستاذ، هل عملت في التمثيل من قبل؟

- لا، أبداً.

- وجهك، له طابع خاص، عندك كراكت، وتملك جاذبية، حتماً

أنت محبوب من النساء.

- لا أعرف، ربما.

- لا، أنت تعرف.

ويلتفت المخرج إلى مساعده، ويقول له:

- ما رأيك؟

المساعد يهز رأسه بالموافقة.

المخرج يتكلم:

- أستاذ، فكر، سوف أمربك مطلع الأسبوع القادم، هي مجرد فكرة، سأعرض عليك القيام بدور بسيط، لكنه لطيف ومحترم، اسمح لي بسؤال، ما هو عملك في الأساس؟

- أستاذ لمادة الجغرافيا، ومتقاعد.

- أوه، هذا هو المطلوب، احترامي لك أستاذ، أنت رببت الأجيال، ولا شك عندك قوة شخصية، وحضور متميز، وعندك فصاحة، لمستها الآن، وقدرة على الإلقاء، نطقتك للحروف سليم وجميل، وصوتك فيه بحة وخشونة، أنا متأكد، عندك عشيقات، المرأة تحب الرجل صاحب هذا النوع من الصوت.

ويلتفت إلى مساعده:

- ما رأيك؟

ويرد المساعد:

- تمام، أستاذ، نظرتك في محلها.

ويلتفت إلى الأستاذ وحيد:

- الاسم الكريم؟ إذا سمحت؟

- وحيد.

- يا أستاذ وحيد، ساعة التصوير بخمسة وعشرين ألف ليرة، على

كل حال، فكر، وسوف نزورك الأسبوع القادم.

يصافحانه بحرارة، ويخرجان.

*

يغلق الباب الزجاجي، يعلق عليه اللوحة: سأرجع بعد قليل. يسرع إلى جاره، يحكي له، يعانقه، ويمهنته.

- أستاذ، أنت والله شخصية محترمة، ما شاء الله، وجهك خير.

- هل تعرف كم نظارة اشترى؟

- كم نظارة؟

- أربع نظارات.

- أستاذ، لا يهمني كم نظارة اشترى، يهمني أنت، هل وافقت؟

- كلامه عرض أولي.

- نصيحتي لك، أستاذ، وافق، هذه بداية، وجهك حقيقة منور

ومشرق، تصبح من المشهورين وأصحاب المليارات، أستاذ، عصرنا عصر تلفزيون ومسلسلات، في أقل من سنة تصبح من المشهورين، وتفتح أمامك أبواب وأبواب، لا تؤاخذني، ما بقي قيمة للأستاذ، كل الدول العربية تصرف على المسلسلات والتلفزيون أكثر مما تنفق على المدارس والجامعات.

- التمثيل صعب.

- أستاذ، نحن كلنا نمثل، سمعت قول أحد الفلاسفة، ولا أتذكر

اسمه، قال الدنيا مسرح، وكلنا نمثل فيه، أنا إذا ما مثلت على الزبون، فلن يشترى، أقول له: هذا الحذاء مناسب، وهو موديل هذا الموسم، وجلده جيد، أحاول إقناعه، تخيل لوقلت له: إذا ما عجبك مع السلامة، هل يصح هذا؟ وفي كثير من الحالات أخرج من البيت وأنا مستاء من الزوجة والأولاد، هل من الضروري إظهار استيائي وانزعاجي أمام الزبون؟

تذكرت الآن، هو شكسبير، قال الدنيا مسرح، نعم، كلامه صحيح، الحياة تمثيل، أستاذ، لا بد من ديباجة، لا بد من كلمات حلوة، أكرّرها أمام الزبائن، والزيون يعرف: هذا تمثيل، لكنه يشتري وهو مسرور، تمامًا مثلنا، نحن نشاهد المسلسل، ونعرف، هو تمثيل، ولكن نتابعه، ونحن في غاية السرور، أستاذ، هل أنا غلطان؟

- والله، ما عدت أعرف الصبح من الخطأ.

- لا يا أستاذ، أنت سيد العارفين، أنت على سبيل المثال، إذا كان عندك تلميذ غبي، تنزعج منه، هل تظهر انزعاجك وتقول له: أنت غبي؟ أم هل تبسم له، وتقول له أنت شاطر وناجح، لكن عليك بذل جهد أكبر؟ هذا تمثيل، وإلا كيف نجحت في حياتك؟ وصرت مثلما قلت لي الموجه الاختصاصي للتاريخ، عفواً، للجغرافيا.

ويطل من الباب حواس ورهف.

يلتفت إلى عدنان ويقول له:

- أستاذن، جاءني ضيوف.

*

يرحب بحواس ورهف.

وتتكلم رهف:

- هل نالت لوحتي رضاك؟

- أوه، رضاي، ورضا زوجتي، وهي علقته في غرفة الجلوس فوق

التلفزيون.

ويتكلم حواس:

- أستاذ وحيد، الأنسة رHF عاتبة عليك.

- ولماذا؟

- مرسمها قريب من بيتك، وأعطتك رقم هاتفها الجوال، ودعتك هي إلى زيارتها في مرسمها، ووعدتها أنت بالمبادرة إلى الاتصال بها، وما اتصلت.

- سوف أأصل، الأيام طويلة.

ويتكلم حواس:

- أستاذ وحيد، عندي شخص حدثته عن رغبتك في بيع مكتبتك، ووصفها له، عرض شراءها بخمسة ملايين، حتى من غير ما يعرف ما فيها.

- هل هو أستاذ جفرافيا؟

- لا، يريد شراء المكتبة، بصراحة، للزينة، عنده صالون واسع، سيقوم بتجليد الكتب كلها، أفخم تجليد، ويضعها على رفوف من خشب موبيليا، الرجل مترف، ويحب الجمال.

- أأأأأ.

يلتفت حواس إلى رHF:

- أنا أأأ، قلت لك سيعأأ.

- هل من الممكن معرفة هذا الرجل؟

- غير ضروري، ما دمت غير راغب في بيعها.

- أرغب في معرفته، ربما إذا عرفته، أهديته المكتبة، ما دام سيعأأ

بها هذه العناية.

ويلق حواس:

- ما أروعك، والله، أنت شهيم ونبيل.

- من هو؟

- لن أقول، إذا عرفته، حتمًا سوف تهديه المكتبة، وأنا أريد لك بيعها، خمسة ملايين غير قليلة، وقد يدفع لك سبعة، إذا علم برغبتك في إهدائه المكتبة.

- من هو؟

حواس يتردد، ثم يتكلم:

- الأستاذ غسان.

- والله عرفت، كتبي كلها مع الخرائط، هدية له، طبعًا، عدا كتب زوجتي، لا ولاية لي عليها.

- سأبلغه هذا اليوم، ولكن أظنه سيضع لك في ظرف حوالة.

- لا أقبل.

*

ويدخل حسون يحمل صينية فيها ثلاثة فناجين، وهو يقول:

- أستاذ وحيد، هذه من المعلم، لضيوفك.

ويوزع عليهم القهوة.

ويدخل ملك الموت، ويوجه إليهم مسدسه الوهمي، وهو يصيح:

- طاخ، طاخ، طاخ،

يضحك حواس، ويعلق:

- مسكين هذا الرجل، أعرفه، هذه منطقته، من أول شارع النيل

إلى آخره، وأحيانًا يدخل إلى حديقة السبيل، ينام هنا في حديقة صغيرة،

خلف شارع النيل، يقال أصيب بشلل نصفي، وأجريت له عملية، وفقد ذاكرته، وصار إلى هذه الحال، كلما رأى أي رجل، أطلق عليه رصاصاته. ويضيف الأستاذ وحيد:

- مسكين، لا يأكل إلا بقايا الطعام من الحاوية.

ويتكلم حواس:

- أستاذ وحيد، في زاوية الشارع، بعد خمسمئة متر، بائع قهوة اسبريسو، تفضل هذا رقم هاتفه، اتصل به، هو يحضر لك القهوة فوراً، لك ولضيوفك، ولجارك، ولا تحاسبه، آخر الأسبوع، الأستاذ غسان يدفع له.

- أمس دعاني جارنا الأخ عدنان إلى الغداء وأوصى على فول وحمص.

- أعرفه، الرجل طيب، لكنه ثرثار، تتسلى بحديثه، وجّه له دعوة، مثلما دعاك، على الرصيف المقابل تمامًا، بائع صندويش، شاورما وفلافل، وهذا رقم هاتفه، اطلب لك ولجارك، ولكل من تحب، ولا تدفع، سجل على الدفتر، أنا آتي آخر الأسبوع لأحاسبه.

وتتكلم رهف:

- أنا لاحظت الإضاءة ضعيفة.

ويتكلم حواس:

- صدقت، أنا سجلت للمحل خمسة أمبيرات، الآن سأمر بصاحب المولدة وأجعل الاشتراك عشرة أمبيرات. ويتكلم الأستاذ وحيد:

- لكن هذا مصروف كبير، الأمير بثلاثين ألف.

ويلق حواس:

- أستاذ وحيد، الأمير عندك في الأشرفية للمنزل بثلاثين ألف ليرة،
ومن المحتمل يزيد، كهرباء المولدة تأتي عندكم من الخامسة إلى الثانية
عشرة، لكن هنا في شارع النيل الأمير بخمسين ألف ليرة، كهرباء المولدة
تأتي من العاشرة إلى العاشرة.

*

وتتكلم رهف:

- أستاذ وحيد، نحن جنناك في موضوع خاص.

- تفضلي.

- سِفْتَح لي معرض في صالة تشرين فوق مطعم سَلاف بموافقة
مدير الثقافة وبرعاية من وزيرة الثقافة، وقد يحضر حفل الافتتاح
السيد وزير التربية.

ويتكلم الأستاذ وحيد:

- نسيت أهنئكم بتسلم السيد مدير التربية وزارة التربية.

ويتكلم حواس:

- نحن رفعنا إلى السيد الوزير برقية تهنئة، وذكرناك فيها بالاسم.

- شكرًا.

وتتكلم رهف:

- نعود إلى موضوع المعرض، أنا عندي سبعين لوحة فنية، كلها
بورتريه لوجوه من حلب، سأعتمد على ذوقك في اختيار ثلاثين لوحة

للمعرض، أنت تعرف، الاختيار صعب، وقد يختار الفنان لوحة يظهرها
أفضل لوحاته، وتكون في الحقيقة غير ذلك.

ويتكلم حواس:

- لذلك، سنمر اليوم بك الساعة الثامنة، ونذهب إلى مرسوم

الآنسة رفف.

ويسأل:

- والمحل؟

ويرد حواس:

- ما من مشكلة، نغلق المحل.

ويسأل الأستاذ وحيد:

- ونرجع بعد اختيار اللوحات إلى المحل؟

ويتكلم حواس:

- لا، أستاذ وحيد.

ويسأل:

- وهل يو افق الأستاذ غسان صاحب المحل على إغلاق المحل في

الثامنة.

يضحك حواس ويتكلم:

- أستاذ وحيد، من صاحب المحل؟ أنت صاحب المحل، هل تظن

نفسك هنا مثل بائع أو أجير، لا سمح الله، أنت، أنت صاحب المحل.

*

يحس بالدموع تملأ عينيه، بطرف إصبعه يمسح الدمعة.

آه لو كان هنا زميلي الأستاذ عامر، قال عني: أجير، ولا يليق بي العمل في هذا المحل.

*

ويتكلم الأستاذ وحيد:

- ولكن أنا رسام خرائط، ما أنا بالفنان.

وتعلق رهف:

- أستاذ وحيد، أنت فنان، ونظرتك إلى اللوحة نظرة فنان.

ويتكلم الأستاذ وحيد:

- رسم الخرائط شيء، ورسم الوجه شيء آخر.

وتكلم رهف:

- أستاذ وحيد، هل تتذكر ماذا كنت تقول لطلابك عن رسم

الخرائط؟

- لا أتذكر؟ ماذا كنت أقول لهم؟

- يوم التقيتك عند ماجد، قال، كنت تقول لطلابك: الخريطة مثل

الوجه، كل تفصيل له مكانه وقياسه وحجمه.

- تذكرت.

- وهل تذكر يوم ناولتك أنا الورقة وفيها التخطيط الأولي الذي

رسمته، هل تذكر ماذا فعلت؟

- لا أتذكر؟

- نظرتَ في الورقة، ثم قلبتها بالعكس، هذه نظرة الفنان، وحكى لنا
الزملاء في المطعم عن قيامك برسم تخطيط أولي لوجه الطفلة هدى بنت
السيدة سهيلة.

ويتكلم حواس:

- الآنسة رهدف أخرجتك، لا مهرب، سنمربك هنا في المحل الساعة
الثامنة تمامًا، ونذهب مباشرة إلى مرسوم رهدف.

الأستاذ وحيد يطرق، يصمت.

ويسأل حواس:

- عندك شيء تريد قوله؟

يتردد، ثم يقول بخجل:

- نعم.

- قل، نحن تحت أمرك.

- نمر بزواجتي نأخذها معنا، هي أيضًا صاحبة ذوق.

يودعانه ويخرجان.

*

يحمل الصينية والفناجين، يمضي إلى المطبخ الصغير، يغسل
الفناجين، ينشفها، ثم يحملها ويمضي إلى جاره عدنان.

عدنان ينهض يستقبله.

- يا أستاذ وحيد، ضيوفك هم ضيوفنا، وكيف كلفت نفسك عناء

غسل الفناجين؟ وحملت الصينية والفناجين وجئت بها؟ حسون هو
خادم عندك.

ويحدثه عن رهف وحواس، ويحدثه عن مساعي حواس لأجله،
فيقاطعه:

- كأني أعرفه، تذكرت، مرة، كان عندي أحذية أوروبية جديدة
مهربة، صادرتها دورية جمارك، هو خلصها لي، عرفته.
ثم يحكي له عن الأستاذ غسان، وكيف قرر أن يهديه مكتبته،
فيقاطعه:

- لا يا أستاذ، هذه النقطة، لا أتفق معك فيها، أنا أعرف، أنت من
عرق جيبينك، ومن لقمته ولقمة أولادك كوّنت هذه المكتبة، لماذا تهديها؟
الرجل يريد تكريمك، خذ ثمنها، الأمر عادي، وخمسة ملايين بالنسبة إليه
لا تساوي أي شيء.

*

أصبحت الخرائط مثل صحيفة الجرائم التي تعلق في صدر المحكوم
عليه بالإعدام شنعاً، والكتب كنت أظنها في ميزان الأعمال حسنة أدخل بها
الجنة، أصبحت ذنباً سأدخل بها النار، كل مَنْ يرى الكتب يستنكر، ماذا
أقول لهم؟ هل أحكي لكل واحد قصتي؟ ومن سيقدر؟ هذه الخرائط وغيرها،
هي من رسعي، وفي الزاوية اليسرى في الأسفل تحمل اسمي، أكثر من ستين
خريطة للعالم وللوطن العربي وللأقطار العربية، مطبوعة في أكبر المطابع
وأكثرها دقة في بيروت، كلها تحمل اسمي، وكلها بالمقياس الدقيق، ماذا أقول
لهم، نعم، ولو عرفوا ما جدوى ذلك، حقيقة، لم يعد للرسم قيمة،
الحاسوب الآن يعطيك رسماً أدق، وهذه المكتبة، ماذا أحكي لهم عنها؟

*

- أستاذ وحيد، أين شردت؟ هل أنت معي؟

- نعم، أنا معك، كنا نتكلم على المكتبة، ما نسيت، والحقيقة الرجل له فضل علي، ولو كنت لا أعرفه، ولا يعرفني، فسح لي فرصة العمل في المحل، ولو كنت غير مسرور، لكنه أعطاني الثقة، على كل حال لِمَنْ سأهديها إذا ما أهديتها له؟

- أستاذ وحيد، أنت أدرى مني، تبرع بها إلى مدرسة من المدارس، إلى الجامعة، إلى دار الكتب الوطنية، أنا لما كنت في الصف التاسع كنت أروح إلى دار الكتب الوطنية، وأقرأ فيها، خسارة، قلت لك من قبل، ما نجحت في الكفاءة.

- آه، سأحكي لك عن المكتبة بدأت في تكوينها وأنا طالب في الصف الثالث الإعدادي، كنت أهوى المطالعة، فيها أكثر من مئة وخمسين رواية، وفيها أكثر من عشرين موسوعة علمية وتاريخية وجغرافية، ومجموعة قواميس عربية وفرنسية وإنكليزية، وحوالي ألف وخمسمئة كتاب في الجغرافيا، وحوالي خمسمئة كتاب في الأدب العربي لزوجتي، كتب زوجتي لها رفوف خاصة، كانت المكتبة تملأ جدارين في غرفة مكتبي في شقتي في شارع سيف الدولة، كان عندي غرفة مكتب خاصة بي، ولكن حين نزحت إلى الأشرفية، حملتها معي، ملأت شاحنة بيك أب، شقتي في الأشرفية صغيرة، ما فيها غير ثلاث غرف، قررت بيع المكتبة، الأمر مضحك، أحد المشتريين من هواة جمع الكتب دفع لي ثلاثمئة ألف ليرة، ذات يوم سمعت صوت بائع متجول، كان ينادي في الحي، لشراء الأشياء القديمة، ناديته، رأى كراتين الكتب تملأ نصف الغرفة إلى السقف، قدّر

عدد الكراتين بخمسين من غير عديّ، وهي على الأقل مئة، قال كل صندوق بألف، وعرض عليّ خمسين ألف ليرة، أنا كنت دفعت خمسين ألف ليرة أجرة نقلها من شارع سيف الدولة إلى الأشرافية، قصدت دار الكتب الوطنية، لم أجد المدير، وجدت أحد الموظفين، وأظنه معاونه، رحب بي، قلت له سأهدي مكتبي إلى دار الكتب الوطنية، فرحب بالفكرة، وسأل: "هل عندك قائمة بعناوين الكتب، وأسماء المؤلفين، ودار النشر، وتاريخ الطبعة، مما هو معروف في التوثيق العلمي وفق الأصول؟" قلت له: "لا، وبعض الكتب مدرسية، ومن طباعة وزارة التربية، وهي من تأليفي بالمشاركة مع بعض الزملاء"، أضاف: "طبعا، اسمك معروف، ونحن نعزّز بك، وخرائطك موجودة الآن في المكتبات، ولكن، هذه هي الأصول المتبعة"، وصمت ثم أضاف: "وبصراحة، سنرفعها إلى الوزارة، وقد لا يوافق على بعضها، وبعضها الآخر تجاوزه الزمن، أنت تعرف، دول زالت من الخرائط ومن الكتب، وولدت دول، وكل شيء تغير، حتى بعض الجزر ابتلعها المحيط، وما عادت موجودة في الخرائط"، شكرته وخرجت، لا أعرف لماذا شكرته، ربما لحسن استقبالي، وربما للطفه الزائد، قصدت كلية الآداب، وزرت رئيس قسم الجغرافيا، رحب بي، وعرضت عليه إهداء كتب الجغرافيا للقسم مع الخرائط، فطلب قائمة مفصلة بالكتب، وقال لا بد من أخذ الموافقات، لم يكن من السهل إعداد تلك القوائم، وبصراحة، استأثرت وخرجت مزعوجًا، وقررت رميها في نهر قويق، وذات صباح ماطر، جن جنوني، نزلت إلى الشارع انتظرت ساعة، حتى مرت عربة سوزوكي، ناديت الجمال، حمل عشر صناديق من الكتب

والمجلات والجرائد، وركبت إلى جانبه، واتجهنا إلى نهر قويق، وكان الماء وقتها يسري في مجراه الضيق، وقفنا على جسر في حي العزيزية، أمام مقصف الشلال، فتحت أحد الصناديق، ورميت رزمة مجلات، فجأة أحسست بيد على كتفي، وإذ برجل يسألني: ماذا ترمي؟ فقلت له: مجلات قديمة مستهلكة، قال لي: أنا أنصح لك، ارجع بها إلى البيت، بسرعة، قبل ما تمر بك دورية للشرطة أو الأمن، وتتعرض للمساءلة، وقد تمر بك دورية من البلدية. فتوقع بحقك غرامة بحجة تلويث النهر"، ضحكت، وقلت له: "النهر ملوث، وما هو بنهر، هو..."، قاطعني وقال: "يا أخي، أنا مواطن مثلك، ولا نظن، ولكن رأيتك ترمي المجلات، فنصحت لك، والرأي رأيك، أنت صاحب المجلات"، وأولاني ظهره، ومضى، وكان المطر ينصب علينا، فقال لي الحمال: "يا أخي، الله يرضى عليك، لا أريد تحمل المسؤولية، سأعيدها إلى البيت، ولا آخذ منك أجره العودة بها"، وقلت له: "وما رأيك برميها في حاويات القمامة"، قال: "أنا لا أتحمل المسؤولية، سأعيدها إلى البيت"، ورجعنا إلى البيت، والمطر يغسلنا من فرقنا إلى قدمنا، وصناديق الكتب مبللة بالمطر، والرجل حملها إلى الشقة في الطابق الرابع، وكنت أساعده، ثم عرضت عليه مبلغ عشرين ألف ليرة، فرفض، وأقسم الأيمان المغلظة لن يأخذ أجره العودة بها، ولما ألححت عليه، أخذ فقط خمسة آلاف ليرة، ثمن البتزين، وقال لي: "والله لو كنت أعرف القراءة والكتابة لكنت أخذتها إلى البيت لأقرأ فيها"، دمعت عينا، ثم ودعني، وهو يقول: "الله يحميك"، وضعتهما في البلكونة، وانتظرت حتى مرت بعض الأيام كانت فيها الشمس مشرقة، ولما نشفت بدأت بإحراق الجرائد

والمجلات في موقد الحمام، بعدما نالت منها العفونة، وإذ بدقات متتابعة على الباب، وفتحت، وإذ بجاري يسألني: "جاري، الهباب الأسود ملأ الشرفة عندي، وروائح مزعجة، ماذا تحرق في المدفأة، هل تحرق أحذية بالية؟"، قلت له بعفوية: "عندي جرائد قديمة، أكلتها العفونة، أردت التخلص منها"، وسأل بصوت هامس وهو مرتبك: "وهل هي ممنوعة؟ أو فيها شيء يمس الدولة؟"، فوجئت بسؤاله وضحكت، قلت له: "لا، فقط، ضاق بها البيت، فأردت التخلص منها"، أجابني على الفور: "أنا صدقتك، وأنت رجل طيب، ولكن، نصيحتي لك، إذا أحس غيري من الجيران، فقد تتعرض للمساءلة، ولا يمكن إثبات براءتك بعد حرقها"، توقفت بعد ذلك عن إحراق قصاصة ورق، ماذا أفعل؟ بدأت برمي المجلات في الليل في حاوية بعيدة عن العمارة، أمشي ربع ساعة، حتى لا يراني أحد من الجيران، كنت أضعها في كيس أسود من أكياس القمامة، أما الكتب، فلم يطاوعني قلبي على رميها، تذكرت مكتبة الأصمعي، ذهبت لأعرضها عليه، كان صاحبها باعها، وتحولت إلى محل لبيع الهواتف الجواله، الأستاذ غسان رجل نبيل، سمح لي بنقل قسم منها إلى المحل، أشعر بمتعة في وضعها هنا في عمق المحل، أحس بدفئها، لكن، والله، كرهتها، لا أعرف لماذا؟ هل أضع بدلاً منها صور نساء عاريات؟

ويتكلم عدنان:

- إذا كان الأمر مثل ما حكيت لي، أنا رأيي هو أولى من غيره، قدمها له هدية، على الأقل سيقوم بتجليدها، ووضعها عل رفوف كما قلت

خشبية فاخرة، يا أخي المال صار كل شيء، للأسف، المال صار يشترى حتى الثقافة.

- صدقت، هذا هو الواقع.

*

- أستاذ وحيد، أنت رجعتني إلى أيام القاهرة، اسمح لي، لا أستطيع، ما بقي عندي صبر، سأحكي لك، ولو أثقلت عليك.
- تفضل.

- كنت في منطقة العتبة، حدثتك عنها، كلها حركة وزحام، لا أعرف كيف ساقنتي قدمي، دخلت في ساحة، أكبر من ساحة سعد الله الجابري، أو أكبر من سوق الإنتاج عندنا في حلب، أنا اندهشت، في الساحة أكثر من ألف دكان وبركة وكشك وبسطة، كلها لصق بعضها، زحام، زحام، كلها كتب قديمة، ومجلات، وجر ايد، حتى الجرايد القديمة مصورة من جديد ومعرضة للبيع، والله لو أنت في القاهرة، وعرضت مكتبتك للبيع، كنت بعتها بأعلى الأسعار، أمضيت أكثر من ساعة وأنا أطوف في الساحة، وأتفرج على الكتب، بعدها قرأت لوحة كتب عليها: "سور الأزيكية"، اشتيت شراء كتاب، لكن ما عندي هواية القراءة، ولا أعرف أي كتاب أشتري، خسارة، ضاع عمري، الحقيقة، والناس هناك تشتري، شعب مصر شعب يقرأ، الكتب والمجلات والجر ايد على الأرصفة فوق الأرض، في كل زاوية، في كل مكان، كل بسطة بحجم أرض هذه الدكان، وأكبر، وأظن البائع لا ينام، أو يتناوب على البسطة أكثر من بائع، حكو لي، قالوا: مصر فيها أكثر من خمسين جريدة مصرية، وبين الجرايد على الأرض كل جر ايد

العالم، وبينها جرايد أجنبية، فرنسية وإنكليزية، طبعاً جرايد البلاد العربية كلها موجودة، ولمحت بين الكتب على الرصيف فوق الأرض أكثر من كتاب عن حسني مبارك، كان هذا عام ٢٠١٠، قبل ما ينزاح، سامحي، أستاذ وحيد، أوجعت راسك، وأثقلت عليك، يا أخي، أنا أحب مصر، والله لو كنت اشتريت أي كتاب، كنت أهديتك، أنت تستحق.

- شكراً، يا أخي، حديثك ممتع، حديثك ثقافة.

- الله يكرمك، أنت أكرمتني، ولي عندك طلب.

- تفضل.

- هل عندك خرايط كثيرة؟

- نعم.

- سأطلب منك خرايط مصر وسورية والوطن العربي، سأعلقها

هنا في المحل، نكاية بكل من عاب عليك، سأعلق هنا خريطة سورية على اليمين، وخريطة الوطن العربي في المنتصف، وخريطة مصر على اليسار.

*

في الثامنة تماماً يمر حواس بالأستاذ وحيد، ويصطحبان أم أحمد

إلى مرسوم رهف.

أم أحمد والأستاذ وحيد يتجولان في بهو كبير، علقت على جدران

لوحات تجاوز عددها السبعين، وبصحبتهم رهف وحواس.

رهف تتكلم:

- أرجو بكل موضوعية اختيار ما هو صالح للعرض، أنا وحواس لن

نتكلم، المعرض هو هدية لكما، رمز الحب الزوجي العظيم.

وتعلق أم أحمد:

- والله كلها رائعة، وصالحة للعرض، والانتقاء مشكلة.

ويتكلم حواس:

- أنا ورهف سنذهب إلى المطبخ، لنعد القهوة، ونترك لكم الحرية

في الاختيار.

ويتفق الأستاذ وحيد مع زوجته على اختيار ثلاثين لوحة.

ويستعرض الجميع معًا اللوحات المختارة بعد احتساء القهوة،

وتؤكد رهف حسن اختيار الأستاذ وحيد وزوجته.

ويدخل حواس إلى غرفة أخرى، ثم يخرج وهو يحمل لوحة، ويتكلم:

- هذه لوحة فاجأتني بها اليوم رهف، ولها مكانة خاصة عندي،

رسمتها، ولا أعلم لي بها، تفضلُ أستاذ وحيد، والخالة أم أحمد، انظرا إلى

اللوحة.

ويضع اللوحة على حامل، بمواجهة الأستاذ وحيد وزوجته.

أم أحمد تتكلم:

- هذا أنت يا حواس.

- نعم.

الأستاذ وحيد يتكلم:

- الجرح الغائر في جبهتك يظهر في اللوحة واضحًا، وكأنني لم ألاحظه

من قبل في وجهك.

ويتكلم حواس:

- نعم، صدقت.

ويتكلم الأستاذ وحيد:

- وهذا أخوك التوأم، إياد، الشهيد، يرحمه الله.

حواس، ينهض، يعانق الأستاذ وحيد، يقبل جبينه، وهو يذرف الدموع.

- أستاذ وحيد، اسمح لي أقبل جبينك، ويديك، كيف عرفت؟ وأنا ما حدثتك عنه؟

ويتكلم الأستاذ وحيد:

- حكى لي القصة أحمد صاحب مكتبة الأصمعي.

ويتكلم حواس:

- وحكى لك عن ضربي زجاج محله برآسي في فورة الغضب؟
- نعم.

- هل تعرف؟ أستاذ وحيد، أنا رويت لرهب القصة من زمان،
ولكن فوجئت اليوم باللوحة، وما أعطيتها صورة لأخي إياد يرحمه الله،
رسمت صورته من خيالها.

ويستل من جيبه صورة يعرضها على الأستاذ وحيد وزوجته:

- أرجوك، أستاذ وحيد، انظر إلى أخي في الصورة، وإلى أخي في
اللوحة، هونفسه، انظري خالتي أم أحمد، وقارني، كأنه هو.

ويتكلم الأستاذ وحيد:

- أنت في اللوحة غاضب، وعنيد، وعيناك فيهما تصميم وإرادة،
ووجهك فيه حدة وعزم وقوة، كأنك بركان يتفجر، ووجه أخيك هادئ،

طيب، بريء، كالأطفال، فيه رضى وقبول وتسليم، كأنك أنت في الدنيا، وكأنه هو في الفردوس الأعلى.

وينهض حواس، يميل على الأستاذ وحيد يقبل رأسه ويديه.
- سأقبل رأسك ويديك ورجليك، أنت أبي وأخي وحببي، أستاذ
وحيد، أنا وجدت فيك أخي، أنت طيب، مثل أخي، ولذلك، أحببتك،
وخدمتك، وأحببت كل الناس، وخدمت كل الناس، لأجلك، لأجل أخي.
الأستاذ وحيد يمسخ دموعه ويتكلم:

- ولكنك، ضربت الزجاج برأسك، ووعدت بالانتقام.
- نعم، كنت أنوي الانتقام بأشد أشكال الانتقام، بالعنف، بالقوة،
بالأذى، بالتدمير، لكن لما تعرفت عليك، غيّرت كل منهجي أنا انتقمتم،
لكن بالحب والتسامح وخدمة كل الناس، وهل هناك أحلى من هذا النوع
من الانتقام؟

*

أنا لا أصدق هذا الكلام، غريب، طبعه ومزاجه وصوته وحركاته لا
تؤكد ذلك، زوجي طيب، يصدق، ويثق، وأنا أشك، حتى في رهف، ماذا أفعل؟
لا أريد لزوجي المزيد من التششت والضياع والقهر.
هذا كله كذب وتمثيل ودجل.

*

وتتكلم رهف:
- إذا سمحتم، سنضيف إلى المعرض لوحتين، في بداية المعرض
نضع لوحة التوءمين، تكون الأولى، يراها الداخل إلى المعرض أول ما يرى

من اللوحات، وفي نهاية المعرض نضع لوحة الأخ الكبير، الأستاذ وحيد،
وتكون لوحته آخر ما يراه الداخل إلى المعرض، تكون صورته، كما يقال:
مسك الختام.

ويتكلم حواس:

- أنا مو افق، بشرط مو افقة الأستاذ وحيد.

وتتكلم أم وحيد:

- يا حواس، اللوحة ملكي أنا، خذ المو افقة مني، أنا علقت اللوحة
في غرفة الجلوس.

وتعلق رهف:

- أفهم من هذا معنى آخر.

ويرد الأستاذ وحيد على الفور:

- أعجبتني، وأنا وافقت على تعليقها في غرفة الجلوس.

وتتكلم رهف:

- أعرف، أنا رسمتها بسرعة، وقدمتها لك، أستاذ وحيد، في صباح
الإفطار عند سلاف، وكنت صورتها في هاتفي الجوال، ولما رجعت إلى
الصورة، وجدت فيها أخطاء فنية، وأنا متأكدة، أنت اكتشفتها، الأذن
مثلاً مرتفعة فوق مستوى الحاجب، وهناك أخطاء أخرى.

ويتكلم الأستاذ وحيد:

- أرجوك، لا تتكلمي على لوحتك، أنا قبلتها، وأعجبتني.

ويسأل حواس:

- وهل أنت مو افق على وضعها في المعرض؟

ويرد الأستاذ وحيد:

- كما قالت أم أحمد، خذوا الموافقة منها.

*

ويتكلم حواس:

- أستاذ وحيد، لي رجاء عندك.

- تفضل.

- يوم افتتاح المعرض سيكون هناك صحافة وتلفزيون وإعلام

وتصوير، وستطلب منك إحدى الصحفيات إجراء مقابلة، رجائي، لا
تردها خائبة، مثلما رددت سميحة.

ويرد الأستاذ وحيد:

- هل كان اسمها سميحة؟

- نعم.

- وأنا لي رجاء، أتمنى المقابلة مع صحفية أخرى غير سميحة.

- أنا المرة الماضية اخترت لك صحفية شقراء، هذه المرة سأختار

صحفية سمراء، طبعاً، بالإذن من خالتي أم أحمد، أنا عرفت، الأستاذ
وحيد لا يحب الشقراوات.

وتعلق أم أحمد:

- أنا أعرف، ما عاد يحب لا الشقراء ولا السمراء، تقاعد.

ويضحك الجميع.

*

حواس ينظر في الساعة.

- الساعة الآن التاسعة والنصف.
ويتكلم الأستاذ وحيد:
- سعدنا بهذا اللقاء، وسوف نمشي إلى البيت.
ويتكلم حواس:
- الأستاذ وحيد أنت مدعو الآن مع زوجتك إلى العشاء في مطعم القمة.
- أشكرك.
- ونحن مدعوون بدعوتك أنت، ولو سألت من صاحب الدعوة ما كنت ترددت.
ويسأل الأستاذ وحيد:
- ومن صاحب الدعوة؟
وتتكلم رهف:
- السيد وزير التربية في حلب، تعرف، غدًا الجمعة، وبعده السبت، والأحد عطلة رأس السنة، سنة ٢٠٢٣، السيد الوزير سيمضي العطلة مع زوجته وأولاده، ما من عادته السهر في ليلة رأس السنة، ولذلك، دعاك الليلة، ومعه فقط زوجته وأولاده، ما رأيك؟ هل أبلغه اعتذارك عن الدعوة؟

الرصااص الءى

- يوم مشرق؁ الشمس ساطعة؁ ولكن فى الءولسعة برء.
- أبو أحمد مع زوجته يشربان القهوة.
- يا أم أحمد؁ أأمنى لو نزلت معى إلى المءل.
- وماذا سأفعل؟
- أستأنس بك؁ ولتتعرفى على المءل.
- وهل ستأتى ءلنار؁ أو نهى أو رءف أو ءواس.
- لا أعرف؁ قء ىءتمع الءوم كلهم عنءى؁ الءوم هو ىوم الءمعة؁
- ٣٠ كانون الأول؁ وءلنار ستسافر الءوم؁ طائرتها ستقلع الساعة
- الساءسة؁ أأوقع مءبها؁ لتوءعنى.
- والزعىم؟
- لا أعرف؁ ربما.
- تعرفت على رءف؁ لىلة أمس؁ ءقىقة فنانة؁ ووفىة لك؁ ونقىة؁
- أأمنى لو أأعرف على نهى وءلنار.
- قرببًا سأءمعك معهم؁ قءرت ترك المءل الءوم؁ وءدًا أقىم ءفل
- وءاع للءمىع؁ وإذا استطعت ءعوتهم الءوم؁ لأوءعهم.
- هل ءءنا إلى ...
- لا؁ هءه المرة قءار؁ لا نقاش.
- ما عملت فى المءل ءىر ىومىن.

- أحس كأني عملت في المحل قرنين، كل يوم بمئة عام، مرت بي حوادث سريعة ومكثفة، مثل فيلم سينما، لا تُصَدَّق إلا في الحكايات، في يومين تعرفت على شخصيات ما كنت أتوقع التعرف عليها، وعشت مواقف طوال حياتي ما فكرت فيها، الحقيقة أنا في التربية كنت في الفردوس، وقلت لك هذا من قبل.

- وهل المحل كان بالنسبة لك الجحيم؟

- العلاقة مع الناس هي الجحيم.

يصمت، ثم يضيف:

- أم أحمد، أنا والله لا أتكبر على البشر، ولا على العمل بصفة بائع

في محل، الشغل مهما كان الشغل هو عز ومفخرة، لكن أنا، بعد هذا العمر، ما تأقلمت، وكل إنسان مُيسَّر لما خلق له.

وتتكلم أم أحمد:

- وأنا، يا أبو أحمد، لما كنا في مطعم القمة، أحسست كأني في

جهنم.

- لا يا أم أحمد، المطعم فاخر، والعشاء ممتاز، والوزير كريم

ووجهه بشوش وأحاديثه فيها مرح، الوزارة ما غيرته.

أم أحمد تضحك وتعلق:

- طبعاً، الرجل كان في المطعم، وما كان في مكتبه في الوزارة، وكان

معه زوجته وأولاده، ونحن كنا معه، هل توقعت منه التصرف وكأنه في

الوزارة؟ وعلى كل حال، الرجل ما أمضى في الوزارة غير يومين، أمامه

وقت، لا بد سيتغير، طبيعة العمل تفرض عليه التغير.

وتصمت، ثم تضيف بصوت مجروح:

- أنا ما قصدت الوزير ولا الطعام ولا المطعم، أنا قصدت الناس في المطعم، نحن كل كلامنا على الفقر والغلاء والمازوت والأمبيرات، وناس كأنها من المريخ، ما عندها أي مشكلة، وناس تحت الخيام، تنتظر المساعدات، وما عندها تدفئة، الله يرحمنا ويتولانا بعنايته، الحكي لا ينفع، السكوت أفضل.

*

وتصمت، ويهم أبو أحمد بالنهوض، ولكنها تقول له:

- اقعد، أرجوك، ما دمت ستترك العمل، لماذا أنت مستعجل في النزول إلى المحل؟ اقعد، حتى نتكلم، أحياناً لا يستطيع الإنسان إلا الكلام.

ويلق أبو أحمد:

- تفضلي تكلمي، لا يوجد رقابة.

أم أحمد تضحك، وتتكلم:

- أنا لفت نظري العجوز، عازف العود، يعزف ويغني، مسكين،

جلد على عظم.

ويقاطعها أبو أحمد:

- أنا شهيته بمحمد القصبجي، عازف العود في فرقة أم كلثوم.

وتضع يدها على كتف زوجها:

- سبقتني، يا أبو أحمد، سرقت الفكرة مني، والله كنت سأقول

يشبهه محمد القصبجي، لكن، أين الثرى من الثريا؟ المهم، كان يطلع من

أغنية لأم كلثوم يدخل في أغنية لمحمد عبد الوهاب، وعيونه كأنه نائم،
والله أشفقت عليه، وصاحب المطعم ذكي، وزع مكبرات الصوت في أربعة
أطراف المطعم، ورفع الصوت إلى أعلى حد، حتى يغطي على صوت
المطرب المسكين.

ويعلق أبو أحمد:

- ورواد المطعم كانوا غارقين في الأكل، أصوات أضراسهم، وهي
تمضغ الطعام، تغطي على صوت المطرب، بالإضافة إلى أصوات الملاعق
والسكاكين والصحون، هذه موسيقى من نوع آخر.

وتضيف أم أحمد:

- وأكثر ما لفت نظري لما دخل الدرويش وبدأ الدوران، صار
العازف العجوز ينشد: "مَدِّدْ يا رسول الله مدد"، والله خفت عليه من
انفجار حنجرته، هذه المولوية ابتكرها مولانا جلال الدين الرومي، للتوجه
إلى الله في المساجد، لا للدوران بها في المطاعم، والصوفي يلبس هذا الثوب
الأبيض كأنه الكفن، دليل الاستعداد للخروج من الدنيا ولقاء الله، وهو
يعقد يديه على صدره، دليل حوزة الدنيا، ويبدأ الدوران، فيفرد يديه،
ويرفعهما إلى الأعلى، دليل تخلصه من الدنيا كلها، ويجعل راحة يمينه إلى
الأعلى، يطلب بها الخير والعطاء من الله، ويجعل راحة يده اليسرى إلى
الأرض، وكأنه يسكب على الأرض ما منحته السماء، ودورانه هو تعبير عن
التوحد مع حركة الكواكب والنجوم والأفلاك، ويحس بنفسه يغيب عن
الحس والمادة، ويتحول إلى روح خالص، ويكون هذا الدوران مع عزف
هادئ على الناي والدف، لا بالعزف على العود.

- وهل فهم رواد المطعم هذه المعاني، والله لا هذا الدرويش ولا واحد من رواد المطعم، هذه المولوية بالنسبة إليه حرفة وباب رزق، يخرج من هذا المطعم، ويذهب إلى غيره، في الليلة الواحدة يطوف على عشرة مطاعم.

تتكلم أم أحمد:

- نعم، صارت المولوية من التراث الشعبي، لكن أنا أقدر تعبته، وإخلاصه لفنه، لكن ما أضحكني غير حواس، لما قال: "قريبًا، سوف أستقيل، تعبت من الدوران حول الناس، سأدور حول نفسي".

ويضيف أبو أحمد:

- للأسف كل شيء في حياتنا زائف.

- يا أبو أحمد، شخصية حواس تلفت النظر، والمشكلة تجاوز الأربعين، وحتى الآن ما تزوج.

- ورهف تجاوزت الأربعين، وما تزوجت، هذا جيل ما بعد الحرب، لا شغل، لا عمل، لا مال، ولا طموح نحو المستقبل، أنفسهم ماتت.

- لا يا أبو أحمد، لا تبالغ، كل ليلة عرس، والله إذا أردت حجز صالة لا يمكنك الحصول على موعد إلا بعد شهر على أقل تقدير، وأرخص صالة أجرتها أكثر من مليونين، عدا الضيافة.

- لكن، يا حسرة، أكثر حالات الزواج، البنات ما تعرفت على خطيبها، ولا تعرف هو عليها، غير من خلال الفيس والواتس، والعروس في صالة العرس بحلب، والعريس في ألمانيا، وتلتحق به بعد سنة أو سنتين، أو في تركيا، وتذهب إليه بالتهريب عبر الحدود.

- يا أبو أحمد، هذا أفضل من بقاءها في بيت والدها، يصير عمرها خمسين سنة وتعيّس.

- لكن لا تنسي، يا أم أحمد، في بعض الحالات ما تمكنت البنت من السفر، وما تمكن زوجها من الحصول على فيزا لها، وبدأ أهلها في معاملة الطلاق.

- هذا هو حديث العشاق، مع قهوة الصباح، عن الناس وهمومهم.
- هموم الناس هي همومنا، لكن، أسألك، هل انتهت؟ الدعوة كانت من حواس، وهو ذهب إلى مدير المطعم، ودفع الحساب، وما كانت الدعوة من الوزير.

- نعم، انتهت.

- وما غايته من هذه الدعوة؟

- لا أعرف، لو كنت أعرف هو صاحب الدعوة، كنت اعتذرت، لكنه أخرجنا.

- صدقت، يا أبو أحمد، ما عدنا نعرف أي شيء.

*

عند الباب، يقف، ينظر في وجهها، أم أحمد تسأله:

- هل نسيت أي شيء؟

- لا.

- هل أنت متردد؟

- لا.

- تنظر إليّ، كأنك تريد قول شيء.

- نعم.

يضمها إليه بقوة، يشدُّها إليه بكلتا يديه، يخبئ رأسها في صدره، أنفاسها الدافئة تنساب في صدره، أصابعه تغلغل في شعرها، يحك رأسها بأنفه، يتحسس دغدغة شعرها، يتشمم رائحتها، يتلمس بأصابعه العشر وجهها، كالأعشى يتلمس أول مرة وجه من يحب، كأنه يعيش تضاريس الوجه، يكتشف أغواره، مرتفعاته، أعماقه، أنامله تتحسس الدفء والندوة في الشفتين، أنامله تتلمس العينين، يحس فيهما بالنبض والدفء الحنون، يتحسس الأهداب، يتذوق الدغدغة الناعمة الرقيقة في الرموش، يمسح بالأنامل الحاجبين، يسير فيهما مع الانعطاف الناعم، يشد وجهها إلى صدره أكثر، يريد أن يبكي، ثم يضع يده بحنان تحت ذقنها، يرفع وجهها إليه، يحدق في العينين، يغيب في الأسود، يهيم في عوالم و آفاق وأماد، يرى قارات ومدناً وعواصم، يرى أنهاراً وبحاراً ومحيطات، يتطلع إلى كامل وجهها، كله، كالأخرس، يشير بوجهه، حين لا يستطيع أن يقول ما يريد أن يقول، يهمس بصوت غير مسموع:

- أحب عيونك.

يلصق شفثيه على العينين، يلثمهما، يقبلهما، لا يريد لفمه أن يغادرهما، يود لهذه اللحظة لو تدوم.

يطلقها فجأة من بين يديه، كأنه يطلق عصفوراً، يدير ظهره، ويندفع خارجاً.

*

أنا في داخله، بين يديه، أحس دقات قلبه، كم هو قوي، يكاد يخنقني،
أود لو أموت بين يديه، لو أفنى، أذوب، غبت عن العالم كله، هو عالمي، كلي
له، رأيت في عينيه حياتي كلها، نسيت الأولاد والبيت والقهر.

*

تمضي إلى المطبخ، تغسل الفنجانين، ودلة القهوة، وملعقة البن،
تغسل أصابعها من بقايا الصابون.
أناملها ترتعش تحت الماء البارد، البرد يسري في سائر جسدها،
حتى أصابع القدمين.

*

لم أفهم، ما معنى هذا؟ هل يريد إقناعي بأنني الأحب إلى قلبه من
سهيلة وجلنار ونهى ومنى وجولييت ورهف؟ هل حدثني عن نهى وجلنار حتى
يجعلني أطمئن؟ أو أشك؟ ما عدت أعرف؟
هل عانقني وضممني إليه مثلما ضم واحدة من تلك الصبايا؟ هل كل رجل
تقاعد يبحث عما يملأ حياته؟ وهل المرأة هي وحدها التي يمكن أن تملأ حياة
المتقاعد؟ وما معنى القبلية في العينين؟ لماذا لم يقبل في؟ وحيد قلق، وأنا
قلقة عليه أكثر.

*

ينزل الأستاذ وحيد إلى المحل ماشياً.
حوالي الساعة الحادية عشرة يدخل عليه جاره عدنان.
- صباح الخير أستاذ وحيد.
- صباح الخير، أهلاً وسهلاً.

- متى فتحت المحل؟
- في العاشرة.
- وهل دخل عليك أحد؟
- ولا حتى قطعة، ولا حتى ملك الموت.
- أنا الآن فتحت المحل، قلت لك من قبل، أكثر المحلات لا تفتح إلا
بعد الصلاة، يوم الجمعة يوم عطلة، وشتاء، من سينزل إلى السوق في
الصباح الباكر؟
ويصمت، ثم يسأله:
- أستاذ وحيد، واضح عليك الكدر، وجهك متغير، وما حلقت
ذقتك.
- صدقني، أخي عدنان، نزلت إلى المحل، وأنا نسيت قراري بترك
العمل في المحل، لا أعرف، هذا نوع من الهرب.
- المهم أختنا أم أحمد، أرجو ما يكون بينك وبينها كدر.
- لا، لا، أم أحمد هي الحل والخلاص والراحة، هي الجنة، لكن
هموم البلد، هي همومنا.
- صدقت، والله ليلة أمس سهرت أنا وزوجتي أجمل سهرة، وما
رجعنا إلى البيت حتى الساعة الواحدة، وكان المفترض نكون في أحسن
حال، لكن، تكدرت حياتي كلها بسبب هذه السهرة.
- خيرًا، إن شاء الله.
- دعيت أنا وزوجتي إلى عرس قريب لي، هو ابن ابن عم والدي،
عرس مع عشاء، في فندق الشيراتون، كأني ما كنت في حلب، كأني كنت في

باريس، طبقًا العرس مختلط للرجال والنساء، هذه أول مرة في حياتي أحضر فيها مثل هذا العرس، عدد المدعوين أقل من مئة، لكن، ما هذا الترتيب، موائد مستديرة، عشاء فاخر، المقبلات في حياتي كلها ما ذقت مثلها، والعشاء صحن فريكة مع الرز، مغطى بلحم الغنم، واللوز المحمص والصنوبر والفسق الحلي، أتوقع كلفة وجبة كل شخص مع المقبلات أكثر من مئة ألف، إذا كان صحن الحمص عند سلاف بعشرين ألف ليرة، طبقًا عدا الفواكه، ماذا أحكي لك، كاميرات تصوير، عشر كاميرات، وكاميرة عامودية فوق رؤوسنا تدور وتصوّر، وكان في العرس مطربة ومعها جوقة كاملة، والله ما عرفتها، وما عرفت اسمها، والمشكلة مكبرات الصوت موزعة في كل قرنة في الصالة، والصوت على أعلى ما يمكن، أنا ما استمعت، بطاقة الدعوة وحدها أقدر ثمنها بخمسة آلاف، ليالي ألف ليلة وليلة، الصبايا والعجائز كل واحدة في ثوب قدرت ثمنه بمليون ليرة، قالت لي زوجتي: "أنت لا تعرف، هذا كل ثوب ثمنه على الأقل ثلاثة ملايين، المليون ما لها قيمة، قدّر ثمن الثوب بالدولار، لا بالليرة"، عن أي شيء أحكي لك، عن الأضواء، الثريات في الفندق أذهلتي، رجعتني إلى أيام عملي في الثريات، أحسست بالقهر، وفجأة توجهت كل الكاميرات إلى مدخل الصالة، ووقفت فرقة شعبية، أكثر من عشرة رجال، في صفين متقابلين، ودخلت العروس تحت حماية السيوف، تتقدمها فرقة موسيقية، والكاميرات تصوّر، ورقصت العروس والكل رقص، وعمها والد العريس وحماتها، وأمها وأبوها، كل واحد ألبسها بروشات الذهب...

*

هل أحدثه أنا عن دعوة الوزير؟ وما الفائدة، الكلام كله يشبه بعضه، لا فائدة.

*

ويقاطعه الأستاذ وحيد:

- والعريس؟

- سامحني، طوّلت عليك في الحديث، آه، يا أستاذ وحيد، هنا المصيبة، أنا تكدرت، رجعت إلى البيت وأنا مريض.

- خيرًا؟

- العريس في ألمانيا، وستسافر إليه، بعد سنة أو سنتين، إلى حين حصوله على فيزا.

- ولأي شيء أقاموا هذه الحفلة؟

- أبوها غني، وأبوه غني، ولا بدّ من الفرح، هذا عرس ابنه، وهذا عرس بنته، ناس مليانة.

- أخي عدنان، والله قبل ساعة كنت أنا وأم أحمد في مثل هذا الحديث.

- آه، إذا حكينا زاد ألمنا، وإذا سكطنا زاد جرحنا، اعذرني، سأرجع إلى المحل، أقرأ في القرآن الكريم، وفي الثانية عشرة والربع أمربك لنذهب إلى جامع عمار بن ياسر لنصلي الجمعة.
يصمت.

- وإذا شئت ذهبنا إلى جامع الرحمن، الخطبة في جامع الرحمن قصيرة، لكن في جامع عمار الخطيب يطيل الخطبة.

- سأفكر.

- أستاذ وحيد، هل تصلي الجمعة؟

- أحياناً.

- وباقي الصلوات.

- أحياناً.

- أنا مثلك، مقصر في أداء الصلوات، لكن أحافظ على صلاة الجمعة، وكل يوم لا بد من قراءة جزء من القرآن الكريم، لكن أنوي الحفاظ على الصلوات في أوقاتها.

*

زهرة ونسرين تدخلان إلى المحل.

يرحب بهما.

نسرين تتكلم:

- صباح الخير أستاذ، أظنك ما نسيتنا، أنا نسرين، وهذه صديقتي

زهرة، لك فضل نقلنا إلى حلب.

- أهلاً وسهلاً، لا يستطيع الأب نسيان بناته، طالباتي والمدرسات

مثل بناتي.

وتتكلم نسرين:

- حكيت لي الأنسة نُهى عن عملك في هذا المحل، هي زميلتي في

مدرسة الطليعة، في حي الخالدية، وأظنها حكيت لك، أنا اتصلتُ بزميلتي

زهرة، واتفقنا على النزول إلى حديقة السبيل لتمضية الوقت، والمرورك

والسلام عليك.

وتتكلم زهرة:

- وجئنا لنسلم عليك، ولنهنئك بالتقاعد والاستراحة من التدريس
وأتعبه.

- شكرا، وأرجو لكم التوفيق في العمل والحياة.

وتتكلم زهرة:

- واسمح لنا أيضًا بتهنئتك بالبراءة من قصة الرشوة، طبعاً أنا
وزميلي وكل المدرسات والمدرسين، كلنا نعرف، أنت بريء من التهمة،
و أنت لا تحتاج إلى تبرئة، لكن هذا هو مجتمعنا للأسف.
- شكرا، سأطلب القهوة.

وتتكلم زهرة:

- شكرا أستاذ، الوقت تأخر، و اقترب موعد الصلاة، وسوف
تذهب أنت الآن إلى الجامع، و وعدتنا نهي بالمرور بك، بعد الصلاة، لا
نعرف بالضبط، بحسب ظرفها، وسنلتقي بها في حديقة السبيل.
يزود كل واحدة منهما بخريطة سورية، وهو يقول:
- أرجو قبول هذه الهدية المتواضعة.

وتعلق نسرين:

- شكرا أستاذ، هي أغلى هدية.

وتضيف زهرة:

- شكرا أستاذنا، نعتز بهذه الهدية، فهي خريطة الوطن، وهي من
رسمك، شكراً.

ثم يتبادل الجميع أرقام الهواتف الجواله، ويطلب منهما رقم هاتف نهى.

ثم يضيف:

- أنا قررت ترك العمل في المحل، وتسرنى دعوتكم مع نهى إلى حفل وداع هنا في المحل عند المغرب، وأتوقع بقاءكم في حديقة السبيل إلى هذا الوقت.

وتتکلم نسرین:

- لكن أستاذ ...

ويقاطعها:

- لم أتأقلم مع الجو، على كل حال سيتصل بكم صديق لي لتأكيد الدعوة.

*

يلف ثلاث خرائط، مصروسورية والوطن العربي، ويدخل على جاره عدنان.

- أهلا بالأستاذ وحيد، شكرًا، كلفت نفسك حمل الخرائط، شكرًا.

ويطوي المصحف أمامه، وينهض.

يتناول منه الخرائط، وينظر في ساعة يده.

- الساعة الثانية عشرة والرّبع، هيا، إلى الجامع، هل توضأت في

المحل، أنا عندي هنا في الإبريق ماء ساخن، إذا أردت تفضل توضأ عندي.

- شكرًا، توضأت، لكن، أنا متردد.

- أستاذ وحيد؟ هل أنت مريض أو مزعوج من شيء، لا سمح الله.

- لا، أبدًا، ولكن كل ما سيقوله الخطيب كلنا نعرفه، لا جديد.
- لا بأس، هو يذكرنا به، يقول المولى تعالى: "وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ
المؤمنين".

- ولكن، للأسف، لا أحد ينتفع، الشيخ في واد، والناس في واد.
يضحك، ويعلق:
- وهل تريد اجتماع الناس كلهم في وادٍ واحد، لا بد، ناس هنا،
وناس هناك.
- لكن، أكثر الناس هناك.

- هذه حال الدنيا، علينا واجب اتباع الخير، ومعرفة في أي
الواديين نحن، تفضل، أستاذ، بقي عشر دقائق.

*

في طريق العودة إلى المحل يقول الأستاذ وحيد لعدنان:
- سوف أستعير منك المصحف الشريف.
- هولك، تفضل.
- شكرا، عندي في البيت مصحف لي، ومصحف لزوجتي، هي دائماً
تتلو القرآن الكريم، أنا مقصّر، أعجبني جداً تلاوة الإمام لسورة
"الإنسان"، سأقعد في المحل لتلاوتها.
- بارك الله فيك، صدقت، وأنا أيضاً أعجبتني، كأنني أسمعها أول
مرة، ومسحت دموعي، وأنا أصلي.
- واليوم، وبعد تلاوة السورة، سأدعو كل أصدقائي لنلتقي في
المحل عند المغرب، وأنت طبعاً مدعو.

- والمناسبة؟

- حفل وداع، قلت لك من قبل: قررت تَرْكُ العمل في المحل.

*

عند باب المحل، وهو يحمل المصحف الشريف، ويهم بفتح الباب

الزجاجي، يتقدم منه شاب.

- مساء الخير، أستاذ.

- أهلاً، مساء الخير.

- شكراً أستاذ، أريد الكلام معك في موضوع.

- تفضل؟

ويفتح الباب، ويدخلان معاً.

- أستاذ، أنا طالب في كلية المعلوماتية، في السنة الثالثة، وأرغب في

سؤالك؟

- اسأل.

- أنا متردد، وأشعر بالرجح.

- تفضل، لا تتردد.

- هل تحتاج إلى عامل عندك في المحل؟

يصمت، ثم يضيف:

- والدي استشهد قبل ست سنوات، برصاصة قناص، وهو خارج

من باب العمارة، لشراء الدواء، كان عمره سبعين سنة، وأنا الوحيد

المعيل لأمي وثلاثة إخوة أصغر مني، ولا أجد أي عمل.

- ما أنا صاحب هذا المحل، وأنا قررت ترك العمل.

يصمت، يتأمل ملامح وجهه، يتكلم:

- سيماء الطيبة والبراءة والصدق واضحة في وجهك، هات، أعطني اسمك ورقم هاتفك الجوال، سأعطي رقمك للوسيط الذي سعى لي بالعمل هنا، وسأوصي بك عنده.

- اسمي حسام، وهذا رقمي، شكرًا.

ويصمت، ثم يضيف:

- والله، يا أستاذ، ضاقت بي الأحوال، لولا أمي وإخوتي، لهاجرت من البلد، لا أعرف ماذا أقول لك؟

*

كلنا أصبحنا لا نعرف، وإن كنا في الحقيقة نعرف، ولكن لا نستطيع الفعل، المعرفة شيء، والفعل شيء، وجلنار قالت لي: "أنت تفكر ولا تفعل، وأنا أفعل ولا أفكر؟"، ولكن جلنار نفسها: هل تفعل حقيقة؟ وماذا تفعل؟ وأنا، ماذا يمكنني أن أفعل؟ وماذا يمكنك أنت أن تفعل؟ ماذا يمكننا نحن أن نفعل؟

*

ويمهم الشاب بالمضي، لكن الأستاذ وحيد يناديه، فيرجع.

- انتظر، يا حسام، سأتصل الآن أمامك بالوسيط وأطلب منه تكليفك بالعمل بدلاً مني.

الأستاذ وحيد يتصل بحواس، ويرشح له الشاب حسام للعمل بدلاً منه في المحل، فيعده بذلك.

الأستاذ وحيد يضع يده على كتف الشاب، ويقول له:

- لا تقلق، ولا تهتم، نحن في عصر المعلوماتية، والمستقبل لكم،
أنتم جيل الشباب، اصبر، وادرس، وتَفَوَّق، واعلم: أنت لست وحدك،
سيتصل بك شخص ويتفق معك، ولا تنس، ما يزال أمامك العمر كله.
يودعه ويمضي وهو يشكر له سعيه الطيب.

*

والمستقبل للجغرافيا والتاريخ والفلسفة واللغة العربية، ولزوجتي
ولي أنا، ولكل العلوم، والمستقبل حتى للمتقاعدين، لو توافرت مراكز
البحوث المستقبلية، ولو وضعت الخطط للاستفادة لا من الشباب فقط،
بل حتى من المتقاعدين والشيخ والعجزة، ومن أصحاب الاحتياجات
الخاصة، ولو كانت الرواتب تكفي، ولو، ولو، ولو، لكن، ماذا تنفع لو، وكما
قال جاري عدنان: "نحن ننفق على الفضائيات والمسلسلات أضعاف ما
ننفق على المدارس والجامعات"، وما فائدة هذا الكلام، حتى ولو صرّحنا به
وصرخنا.

*

يتصل بحواس، يطلب منه دعوة الأصدقاء والصديقات إلى حفل
توديعه عند المغرب في المحل، بمناسبة تركه العمل، ويوصيه بشراء قالب
كاتو، ويزوده بأرقام هواتف نهي ونسرین وزهرة وجلنار، ويطلب منه
تأكيد الدعوة.

يحاول حواس محاورته، لكنه يحسم الأمر:
- هذا قرار، لا رجعة فيه.

*

يضع المصحف الشريف على المنضدة بين الكرة الأرضية

وصندوق المحاسبة، ويبدأ في تلاوة السورة:

(بسم الله الرحمن الرحيم)

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً (١) إِنَّا
خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (٢) إِنَّا
هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا
وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً (٥)
عَيْنًا يُشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً
كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً
(٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً (٩) إِنَّا نَخَافُ
مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ
نَضْرَةً وَسُرُوراً (١١) وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً (١٢) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى
الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ
قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا....

يحبس بحركة في الباب، يرفع رأسه، يرى جلابية صيفية بيضاء،

ووميض نار من فوهة مسدس أبيض لامع، ولا يسمع صوت الطلقة.

الوداع الأخير

أعز وأغلى وأطيب قلب

المقبرة الحديثة زاهية متألقة بشمس الأصيل، والشواهد الحجرية
البيضاء المنتصبة فوق القبور تزدهي، وكأنها تحس بدفء الشمس،
الكون كله يعزف موسيقى الصمت المقدس.

أم أحمد، أمام قبر وحيد، وحولها سهيلة وهدى ونهى ورهف ونهى
وزهرة وأمينة ومنى وجولييت، في ثياب سود، جلنار وحدها في معطفها
الفرو الأبيض.

السيد الوزير، وحوله مدير التربية الجديد ونقيب المعلمين
وحواس وأبو جميل وعدنان، أمام قبر وحيد في الجهة المقابلة.
وفوق القبر أسندت إلى حجر الصورة التي رسمتها رهف للأستاذ
وحيد.

الطفلة هدى بنت سهيلة تتقدم من تراب القبر، تحمل اللوحة
التي كانت قد رسمت عليها خريطة الوطن العربي، ممهورة بتوقيع الأستاذ
وحيد، والتي كان الأستاذ وحيد نفسه قد رسم على وجهها الآخر تخطيطاً
أولياً لوجه هدى، تضعها فوق التراب، وتغطيها بقطعة حجر، جاعلة
خريطة الوطن العربي هي الظاهرة إلى الأعلى، وصورتها هي إلى التراب،
كأنها تقبله.

جلنار تفتح زجاجة جاكوار بلاك وترشها كلها على القبر، ثم
تحطمها على حجر وترميها.
تنثر الورود فوق القبر.
وتتردد في الأصداء صوت شيخ يتلو سورة يس.
*

السيد الوزير يلقي كلمة يؤمن فيها الفقيد.
أم أحمد تتلقى التعازي من الجميع.
*

تتقدم منها سهيلة لتقول لها، والنساء جميعاً من حولها:
- نحن كلنا أحببنا الأستاذ وحيد، ولكن أنت كنت وحدك حبيبته
الوحيدة.
*

جلنار تتوجه إلى رهف:
- الآنسة رهف، أرجوك أوصليني بسيارتك إلى الأوتستراد، لأخذ
سيارة تكسي، طائرتي ستقلع بعد ساعة، أنا بعت سيارتي.
- وحقيبة السفر؟
- لا أحمل معي غير جواز سفري، وتذكرة ذهاب بلا عودة، ما بقي لي
في الوطن أحد، لا أب ولا أم ولا أخ ولا أخت، كلهم هاجروا، حتى ابني
الوحيد معهم في كندا.
- المطار قريب، في عشر دقائق نصل.
- هل عندك شريط أنغام، يا أطيّب قلب؟

رهدف تضع الشريط.

*

يا أعز وأغلى وأطيب قلب
فسر للعالم معنى الحب
وان شاوروا وقالوا عليك طيب
خليك هنا من قلبي قريب
وكفايه تكون إنسان في زمان
فيه طيبة القلب بتعجب

حييتك أنا مع أن الحب اللي جمعنا
مبقاش له مكان زي زمان أبدًا ولا معنى

وتعلق رهدف:

- شكرًا لذوقك واختيارك الأغنية، السيدة جلنار، ربما كان من
الواجب، ومن الأنسب، وضع شريط فيه تلاوة من القرآن الكريم، لكن
الحقيقة هذه الأغنية هي تعبير حقيقي عن هذا الإنسان الطيب، وعن
مشاعرنا الإنسانية نحوه، أنا معرفتي به عمرها أيام، لكن حقيقة الرجل
طيب ونقي وصاحب خلق رفيع.

- أنا دخلت محله مرة واحدة، واشتريت زجاجتين، واحدة لي
وواحدة هدية لأبي، لكن سبحان الله، هدية أبي صارت هدية له على قبره.

- كلنا توقعنا، أنت من زبائننا، وعرفنا الزجاجة اشتريتها من محله، لكن أنت أذهلت الجميع، عندما رششت كل الزجاجة على قبره، وبعدها كسرتها، كأنك قلت له: بعدك لا أحد يستحق مثل هذا العطر، مثل العريس، في عاداتنا بحلب، يقدم له صباب القهوة، الفنجان، ثم يكسره الصباب بنفسه، بعد ما يشربه العريس، وأظن كل الحاضرين عرفوا غلاء ثمن الزجاجة، أو على أقل تقدير أنا.

- وأنا عرفت، اللوحة الموضوعة على قبره هي صورته وهي من رسمك، أنت فنانة.

- هذه اللوحة ستكون في معرض سيقام الأسبوع القادم في مديرية الثقافة، فيها حوالي ثلاثين لوحة، اختارها لي الأستاذ وحيد مع زوجته، الله يرحمه، من بين سبعين لوحة، لولا سفرك كنت أتمنى حضورك افتتاح المعرض.

*

كنت أحس بنفسني غريبة بين المشيعين، والكل نظروا إليّ نظرات اندهاش واستغراب، ربما لرشيّ العطر وكسر الزجاجة، وربما لثيابي، ما كنت لابسة الثياب السود، مع ذلك كانت ثيابي محتشمة، وعادية، معطفي الفرو الأبيض كان يلف جسمي، هل من الضروري لبس الأسود؟ على كل حال، عرفت، كلهم غرباء، لا أب ولا أم ولا أخت ولا ولد، وحدها زوجته كانت أقرب الناس إليه، لا شك كلهم هاجروا، وكم هي ذكية، لما تقدمت أنا إلى تعزيتها، قالت لي بعفوية: "عرفتك، أنت جلنار"، أظنه حدثها عني، وهذا دليل براءته وصدقه، وواضح هي متفهمة ومتأكدة من براءة زوجها وطيبته، أتذكر

مزاحي معه، لولا براءته وطيبته ما كان ليتقبل مزاحي، أكاد الآن أضحك من نفسي، كيف كنت معه جريئة إلى أقصى حد؟ الحقيقة أنا بالغت، هذه أول مرة في حياتي أنطلق هكذا، لكن لا أحس بالندم، أنا أخرجت كل ما في أعماق نفسي، حالة نادرة لا تتكرر، أتذكر الآن، وأسأل نفسي: هل كنت أنا في حلم؟ طبعًا لو حكيت لأحد، لقال عني مجنونة متهورة طائشة، سامحني يا رب، الله يرحمك يا أستاذ وحيد، ولا أنسى عماد، حسبته في البداية أحد إخوته، والكل ناداه حواس، استغربت من هذا الاسم، بعدها عرفت، هو مجرد صديق، نزل إلى القبر، ولَحَدَه بنفسه، وطلع من القبر، وثيابه معفرة بالتراب، والدموع تسح على وجهه، وهو يشهق ويكاد يختنق، أنا كنت أخاف من الميت، هكذا أهلنا خوفونا ونحن صغار، وخوفونا من القبر، لكن الحقيقة غير هذا، وجه وحيد، الله يرحمه، هادئ، ومريح، وجهه في موته، مثل وجهه في حياته، ما تغيَّر، كأنه كان يبتسم ابتسامة هادئة، والجو كله كان في بهاء وتألُّق، السماء زرقاء صافية، والشمس دافئة، وهي تنثر على الكون لونها الذهبي، وما أحلى الطفلة هدى، وهي تضع على القبر صورة، قالوا لي هي من رسمه ورسمها، الحقيقة، الأستاذ وحيد مثلها، طفل صغير، أتمنى الآن لو أبقى في سورية، وما أسافر، لكن، آه.

*

- شكرا لذوقك أنسة رهف، وسامحيني، ما وجدت في المقبرة تكاسي، لذلك طلبت منك توصيلي، والآن أرجوك سأنزل هنا عند الأوتسترد، لا بد ستمر سيارة تكسي توصلني إلى المطار.

- مستحيل، يا أختي، لا بد من توصيلك إلى المطار، ما بقي أماننا
غير خمسة كيلومتر، المشكلة المقبرة الحديثة خارج المدينة، وبعيدة، وكان
من واجب شركة المواصلات وضع خط باص لإيصال الناس إلى المقبرة،
حتى يزوروا موتاهم، ما كل الناس عندها سيارات خاصة، وأجور التاكسي
داخل المدينة مرتفعة، فكيف إلى المقبرة خارج المدينة.
وتلثفت جلنار إلى رهف، لتقول لها:
- أرجوك، أغلقي المسجل، ما عدت أستطيع سماع بقية الأغنية.

وتبقى الأسئلة

تساءل الناس عن مصدر المسدس.

بعضهم قال التقطه الأبله من الحديقة الصغيرة خلف شارع

النيل.

بعضهم الآخر قال عثر عليه في الحاوية أمام محل بائع النظارات

والعطور.

كلهم أجمعوا على أنه من مخلفات الحرب.

ثم نسوا.

*

عدنان في محله.

وراء المنضدة، يتلو القرآن الكريم.

وينتظر مَنْ يأتي لشراء حذاء.

*

السلحفاة العجوز تعبر الشارع عند دوار الدلة كل يوم مرة أو مرتين

وأحياناً ثلاث مرات حاملة الأكياس السوداء المثقلة بالخضروات

والفاكهة.

الشقاء أبدي.

*

حسام يباشر عمله في محل أبيض وأسود لبيع نظارات راي بان

والعطور الفرنسية.

يفتح سحابة الطاولة، يرى خمس حبات شيكولاته، والكفوف
الصوفية، والنظارة الطبية الفاخرة.
يرى الزنبق وقد مال بعنقه، يصب في الكأس بعض الماء، فينتعش.
ينقر بإصبعه الكرة الأرضية، فتدور وتدور.

*

ملك الموت يعود إلى الظهور في شارع النيل بجلايته الصيفية
البيضاء، في صمت وبلاهة، وهو ما يزال يوجه مسدسه الوهمي إلى وجه
الرجال، ويصيح:
- طاخ، طاخ.

*

حواس يصبح سيد المولوية في أكبر مطاعم حلب، ويترك مديرية
التربية، ويتخلى عن سائر أعماله، ويقطع جميع علاقاته السابقة.

*

أم أحمد حكم عليها أن تعيش أرملة وحيدة، وأولادها في المنافي،
بقية حياتها، وهي تسأل:

كان من الممكن أن يقوم بهذه المهمة حفار القبور، لكن لا أعرف لماذا
أصر حواس على أن ينزل إلى القبر بنفسه، ويمدده على التراب، ويضعه على
جانبه الأيمن، ويديره نحو القبلة، وأنا رأيته، وهو يزيح الكفن عن وجهه، ثم
يكب على جبينه، يقبله، وهو يبكي، ويقول: "سامحني"، ويخرج، والدموع
تسح من عينيه، وهو ينشج، وينهه، ويشهق، يكاد يختنق، ثم يأبى إلا أن

يكون هو من يضع آخر صفيحة حجرية، يسد بها فوهة القبر. لماذا فعل
هذا؟ ولماذا قال له وهو يبكي: سامحني؟
ولماذا التهمة بالرشوة والتبرئة في أربعة أيام أو خمسة؟ ولماذا حفلة
التكريم؟ ولماذا يحضرها كل من حضر؟ من الأطفال الصغار إلى كبار
الكبار؟ ودعوة العشاء نفسها لماذا؟
ومن أين حصل الأبله على المسدس؟ وكيف؟ ولماذا لم يجد غير وحيد
ليوجه مسدسه إليه؟
لماذا منى وجلنار وسهيله والوزير وحوّاس وفلان وفلان وفلان؟ لماذا
هذه الحكاية كلها؟

*

هل أنا في حلم؟

حلب ٢٠٢٣/١/١٢

المؤلف ومؤلفاته الدكتور أحمد زياد محبك

السيرة الشخصية:

من مواليد مدينة حلب سورية في ١٠/٥/١٩٤٩
عضو اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٣.
نال شهادة الدكتوراه في الأدب العربي الحديث من جامعة دمشق عام ١٩٨٤.
رفع إلى مرتبة أستاذ في كلية الآداب بجامعة حلب عام ١٩٩٥.

المؤلفات المنشورة :

١. حركة التأليف المسرحي في سورية، (دراسة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٢.
٢. من الحكايات الشعبية، (حكايات شعبية)، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٣.
٣. يوم لرجل واحد، (قصص قصيرة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٦.
٤. المسرحية التاريخية في المسرح العربي المعاصر، (دراسة)، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٩.
٥. حجارة أرضنا، (قصص قصيرة)، مطبعة عكرمة، دمشق، ١٩٨٩.

٦. الكوبرا تصنع العسل، (رواية)، دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦.
٧. بدر الزمان، (مسرحية)، دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦.
٨. حلم الأجفان المطبقة، (قصص قصيرة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٦.
٩. عريشة الياسمين، (قصص قصيرة)، دار القلم العربي، حلب، ١٩٩٦.
١٠. حكايات شعبية (نصوص ودراسة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٩.
١١. دروب الشعر العربي الحديث (دراسة)، مطبوعات جامعة حلب، حلب ٢٠٠٠.
١٢. لأنكٍ معي (قصص قصيرة جداً)، دار شمأل، دمشق، ٢٠٠٠.
١٣. طعم العصافير (قصص قصيرة)، دار القلم العربي، حلب، ٢٠٠١.
١٤. العودة إلى البحر (قصص قصيرة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١.
١٥. قصائد مقارنة، (دراسة)، منشورات جامعة حلب، حلب، ٢٠٠١.
١٦. من الأسطورة إلى القصة القصيرة، (دراسة)، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ٢٠٠١.
١٧. كتاب تكريم الدكتور أحمد زياد محبك (مجموعة من المؤلفين) اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٤.

١٨. الرحيل من أجل مها (قصص قصيرة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣ م.
١٩. انكسارات (بحوث ومقالات)، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٤.
٢٠. متعة الرواية (دراسة)، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥.
٢١. من التراث الشعبي (دراسة)، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥.
٢٢. وردات في الليل الأخير (قصص قصيرة)، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥.
٢٣. عمر أبو ريشة والفنون الجميلة، (دراسة)، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٦.
- عمر أبو ريشة والفنون الجميلة، (دراسة)، دارالفرقان للغات، حلب، ط. ثانية، ٢٠١١.
٢٤. قصيدة النثر، (دراسة)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٧.
٢٥. قراءات في الشعر العربي الحديث، (دراسة)، مطبوعات جامعة حلب، حلب، ٢٠٠٧.
٢٦. نوافذ وشرفات، (مقالات)، دار الثريا، حلب، ٢٠٠٧.
٢٧. ريش نعام، (قصص قصيرة جداً)، دار الثريا، حلب، ٢٠٠٧.
٢٨. نجوم صغيرة، (قصص قصيرة جداً)، مطبعة الأصيل، حلب، ٢٠٠٨.
٢٩. الأعمدة والغزالة، (قصص قصيرة)، دار الثريا، حلب، ٢٠٠٩.
٣٠. التفاحة الأخيرة في الحقل، (قصص قصيرة جداً)، موقع فولاً بوك، ٢٠٠٩.
٣١. النيل لا يجف، (رواية)، موقع فوله بوك، ٢٠١٠.

٣٢. اللغة العربية وثقافة القرن الحادي والعشرين، (دراسة) دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١١.
٣٣. حمامات بيض ونارجيلة، (رواية)، دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١١.
٣٤. نقد السرد، (دراسة)، دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١٢.
٣٥. فوق سطح العمارة، (مجموعة قصصية)، دار الفرقان للغات، حلب، ٢٠١٢.
٣٦. أبو معتز والكناريات (مجموعة قصصية)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠١٤.
٣٧. صورة القمر في الشعر العربي (دراسة)، دار ليوان الربيع، الرياض، السعودية، ٢٠١٤.
٣٨. المرأة، المكان، الشعر، عند الدكتور عبد العزيز محيي الدين خوجة، دار ليوان الربيع، الرياض، السعودية، ٢٠١٤.
٣٩. ما أزال أنتظر (مجموعة قصص قصيرة جداً)، الشارقة، كتاب الرافد، آب، ٢٠١٥.
٤٠. شقة على شارع النيل (رواية)، دار أمل الجديدة، دمشق، ٢٠١٨.
٤١. نظرات متبادلة، (مجموعة قصص)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠١٨.
٤٢. السرير والمرأة، (مجموعة قصص)، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٩.
٤٣. الشعر العربي الحديث، (دراسة) منشورات جامعة حلب، حلب، ٢٠١٩.

٤٤. شهريار يعترف (مسرحيات قصيرة)، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٢٤.
٤٥. المرأة الشاعر الشعر، دراسة في شغل توفيق أحمد، دمشق، ٢٠٢٤.
٤٦. قوس قزح فوق غزة، قصص قصيرة، دار نون، ناشرون، عمان، الأردن، ٢٠٢٤.
٤٧. بانتظار فاتنة (مجموعة قصص) موقع فوله بوك، ٢٠٢٥.
٤٨. الوردية في مكانها (مجموعة قصصية) موقع فوله بوك، ٢٠٢٦.
٤٩. الغياب (مجموعة قصصية)، موقع فوله بوك، ٢٠٢٦.
٥٠. دوائر في نقد الشعر (دراسة) موقع فوله بوك، ٢٠٢٦.
٥١. قراءات في القصة والرواية (دراسة) موقع فوله بوك، ٢٠٢٦.
٥٢. مقدماتي لكتب أصدقائي (مقالات) موقع فوله بوك، ٢٠٢٦.
٥٣. عيد ميلاد أمينة، (مسرحية)، موقع فوله بوك، ٢٠٢٦.
٥٤. سرير الأمان، (رواية) موقع فوله بوك، ٢٠٢٦.
٥٥. بدر الزمان، (مسرحية)، موقع فوله بوك، ٢٠٢٦.
٥٦. أيام عشناها، (رواية) موقع فوله بوك، ٢٠٢٦.

المؤلفات بالمشاركة:

- سنة كتب في اللغة العربية لغير المختصين لجامعات سورية (١٩٨٨١٩٨٦)
- خمسة كتب في اللغة العربية لغير المختصين لجامعة سبها بليبيا (١٩٩٢)
- كتاب أدباء من حلب (مشاركة وإشراف) (سنة أجزاء) حلب (٢٠٠٠).
- (٢٠١١)

عشرون مادة لموسوعة (أعلام العلماء العرب والمسلمين) للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، في تونس (٢٠٠٤.٢٠٠٧).
الحركة الأدبية في بلاد الشام، مجلدان، إصدار الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية، دمشق (٢٠٠٨).
من أبراج قلعة حلب، (مجموعة قصصية مشتركة مع مقدمة نقدية) اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٢٢.

المحتويات

٣.....	الخروج من الفردوس
٣.....	نظارة طبية وفروجة مشوية
٤٨.....	ذيل التقاعد أملس
٧٩.....	الوداع الأول
١١٤.....	أبواب مفتحة
١٥١.....	الدخول في الجحيم
١٥١.....	حبات شوكولا وكفوف صوفية
٢١٩.....	فراشنا وغطاؤنا
٢٣٠.....	كلُّ منا يعرف مصر على طريقته
٢٨٧.....	الرصاص الحي
٣٠٧.....	الوداع الأخير
٣٠٧.....	أعز وأغلى وأطيب قلب
٣١٣.....	وتبقى الأسئلة